مُقدِّمات أساسيّة

العقيـــدة الإسلاميـــة

وربطها بشعب الإيمان (السلوك والعمل)

د. الصادق بن عبد الرحمن الغرياني



عالم الأدب



بسم الله الرحمن الرحيم

العقيـدة الإسلاميـة

وربطها بشعب الإيمـان

الكتـــــــــاب: العقيدة الإسلامية وربطها بشعب الإيمان
المؤلـــــــــف: د. الصادق بن عبد الرحمن الغرياني

عدد الصفحات: ٢٥٦ صفحة
سنة الطباعــة: ٢٠١٨م
بلـد الطباعــة: بيروت/ لبنان
الطبعـــــــــة: الأولى

عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع
مؤسسة عربية تعتني بنشر النصوص المترجمة والعربية
في مجالات الثقافة العامة والأدب والعلوم الإنسانية



الهاتف: 00201099938159
البريد الإلكتروني: info@aalamaladab.com
الموقع: www.aalamaladab.com
القاهرة - جمهورية مصر العربية

Title: Islamic faith
Editor: Dr. Sadeg Elgariani

Pages: 256
Year: 2018
Printerd in: Beirut, Lebanon
Edition: 1

الفهرسة أثناء النشر - إعداد إدارة الشئون الفنية / دار الكتب المصرية،

الغرياني، الصادق
العقيدة الإسلامية وربطها بشعب الإيمان/ تأليف د. الصادق الغرياني
القاهرة، عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، ٢٠١٧م
٢٥٦ ص، ١٧×٢٤سم.
رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٧٠٦٣

ISBN: 978-977-6539-51-8







المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، لا أحصي ثناء عليه، كما أثنىٰ علىٰ نفسه، والصلاة والسلام علىٰ سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد ﷺ وعلىٰ آله وأصحابه، وتابعيهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، وبعد.

فهذا كتاب في العقيدة، توخيت فيه الوضوح والشمول، والتوثيق العلمي والتدليل، قصدت فيه ربط العقيدة بالسلوك، وفهمها علىٰ طريقة الأئمة المقتدىٰ بهم من أئمة الدين، المتمثل في أمرين أساسيين هما:

الأول: ما أثبته الوحي من القرآن أو السنة في أمر العقيدة أثبتوه، وما نفاه نفوه، وما سكت عنه سكتوا عنه، ولم يخوضوا فيه، فطلبوا السلامة لأنفسهم، ولم يتكلفوا عناء لم يكلفهم الله ﷻ به؛ فكان طريقهم أسلم وأنفع، وأعلم وأحكم، فجزاهم الله عن الأمة خير الجزاء.

كان أسلم؛ لأنه طريق الفرقة الناجية التي عليها رسول الله ﷺ وأصحابه، وكان أنفع؛ لأن مفهوم العقيدة عندهم كان منهج حياة للمسلم، بما في هذه الكلمة من معنىٰ.

وكان أحكم وأعلم؛ لأنه ليس علىٰ وجه الأرض أحد أعلم بالله ﷻ وما يجب له من رسول الله ﷺ، فإنه أعلم الناس بربه، وأتقاهم وأخشاهم لله، بإجماع أهل الإسلام، وليس كما شاع عند المتأخرين ممن كتبوا في علم الكلام، من أن طريقة الخلف في تأويل الصفات، أعلم وأحكم، فإن هذا القول مؤداه: أن المشتغلين بعلم الكلام والتأويل في القرون المتأخّرة أعلم بالله ﷻ من رسول الله ﷺ وأصحابه، ولا يصح ذلك في اعتقاد مسلم.

الثاني: ربط العقيدة بعمل المسلم وسلوكه، فلم تكن مسائل العقيدة علىٰ عهدهم مجرّد نطق واعتقاد، بل جمعت مع النطق والاعتقاد السلوكَ والأعمال. العقيدة بمفهومها عندهم ليست كلمة تردّدها الشفاه وتناقضها النيّات والأقوال والأفعال. العقيدة عندهم انضباط لسلوك الفرد المؤمن الموحّد القائم بحق ربه وحق عباده، هذا هو مفهوم العقيدة عندهم، الذي صار غريبًا بيننا.

هذا ما قصدت إليه، والعون من الله وحده لا شريك له، وهو الهادي إلىٰ سواء السبيل، وما توفيقي إلا بالله.

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

الصادق بن عبد الرحمن الغرياني

تاجوراء - ليبيا

الباب الأول

في التوحيد وما يجب الإيمان به

الاعتقاد

معنىٰ العقيدة والاعتقاد:

الاعتقاد هو: الحكم الذي لا يقبل الشك لَدىٰ معتقِده، وهو ما انطوىٰ عليه قلب الإنسان من تصديقات يقينية تنشأ معه، لحاجته إليها، مما يتعلق بأمور الدين، سواء كانت هذه التصديقات فطرية اضطرارية، كاعتقاد النوع الإنساني بأسره في وجود الخالق للكون قبل معرفة البراهين الدالة عليه، أو كانت المعرفة ناتجةً عن إقامة الأدلة والبراهين.

لِذا سُمِّي العلم المتكلِّم فيما يجب الإيمان به علمَ العقائد، وصار علم العقيدة عَلَمًا علىٰ العلم الذي يتناول ما يجب الإيمان به في حق الله -تعالىٰ- من صفات الكمال والأسماء الحسنىٰ، وما يستحيل، وما يجوز، وفي حق رسله، وما يتعلق باليوم الآخر، وما يجب الإيمان به من أمور الغيب. والاعتقاد ينقسم إلىٰ صحيح وفاسد، فمن اعتقد الشيء علىٰ ما هو عليه مطابقًا للواقع، فاعتقاده صحيح، ومن اعتقد الشيء علىٰ غير ما هو عليه، مخالفًا لواقع الحال، فاعتقاده فاسد، ويسمونه جهلًا[1].

تسمية كتب الأقدمين في علم العقيدة:

تسمية العلم الذي يتناول ما ذُكر باسم العقيدة تسميةٌ متأخرة، اشتهرت مع بداية القرن الخامس، وهَلُمَّ جرًّا.

ومن الكتب التي وصلت إلينا مسمّاة بالعقيدة، كتاب (شرح أصول الاعتقاد) للالكائي (ت ٤١٨هـ)، و(الاعتقاد) للبيهقي (ت ٤٥٨هـ)، وكانت الكتب التي تتكلم

---

(١) الحدود للباجي ص ٣٨.

علىٰ هذا العلم قبل ذلك تسمىٰ بمسميات أخرىٰ، منها:

١- (الفقه الأكبر)، وأول من استعمل هذا الاسم الإمام أبو حنيفة، (ت١٥٠هـ).

٢- (السُّنة)، وسميت بذلك لأنها جمعت الأحاديث والسنن الواردة في الاعتقاد، وممن نسب إليه كتاب بهذا الاسم أبو بكر بن أبي شيبة صاحب كتابي (المسنَد) و(المصنَّف) (ت ٢٣٥هـ)، والإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤٠هـ)، وأبو داود السّجستاني صاحب السنن (ت ٢٧٥هـ)، وابن أبي عاصم (ت ٢٨٧هـ)، والطبراني (ت ٣٦٠هـ)، ومحمد بن نصر المَروزي (ت ٤٣٤هـ).

٣- (الإيمان)، كالإيمان لأبي عبيد (ت ٢٢٤هـ)، وابنِ منده (ت ٣٩٥هـ) وأبي يعلىٰ (ت ٤٥٨ هـ).

٤- (التوحيد)، ككتاب التوحيد من صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، و(التوحيد) لابن خزيمة (ت ٣١١هـ).

٥- (الشريعة)، ككتاب الشريعة للآجري (ت ٣٦٠هـ).

٦- (أصول الدين)، ككتاب (الإبانة عن أصول الديانة) لأبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ)، و(الوصول إلىٰ معرفة الأصول) لأبي عمر الطَّلمنكي (ت ٤٢٩هـ) وغيرهما[١].

والاعتقاد ينقسم إلىٰ صحيح وفاسد، فمن اعتقد الشيء علىٰ ما هو عليه مطابقًا للواقع، فاعتقاده صحيح، ومن اعتقد الشيء علىٰ غير ما هو عليه، مخالفًا لواقع الحال فاعتقاده فاسد، ويسمّونه جهلًا[٢].

حاجة الإنسان إلىٰ العقيدة:

الإنسان مخلوق ضعيف في هذا الكون الكبير، والحياة خضم واسع من الصراع بين الخير والشر، والآلام والآمال، والضّر والنفع، وقد يطغىٰ الشرّ وينتصر الظلم، وقد تحيط بالإنسان الشدائد بأنواعها، فيصيبه الضر والفقر، والجوع والمرض،

(١) انظر مجلة الحكمة العدد الرابع عشر ص ٣٥ مقال (عبود بن درع)، ودائرة معارف القرن العشرين ١/ ٤٨٣، والموسوعة العربية الميسرة ٢/ ١٢٢٢.

(٢) الحدود للباجي ٣٨.

ويُصاب بفقد الأحباب وأنواع الابتلاءات، في النفس والأهل والمال، إلىٰ غير ذلك من المكروهات التي لا يد للإنسان علىٰ دفعها.

لذلك كان الإنسان دائمًا في حاجة إلىٰ الاحتماء بقوة عظمىٰ تُنصفه إذا ظُلم، وتحميه إذا أراده أحد بسوء، وتمدّه بالنصر إذا قل ناصره، وتدفع عنه الشدائد إذا حلّت به. محتاج إلىٰ قوة تُعوّضه عما فقد، ويستغيث بها إذا مسه الضر، تُطعمه إذا جاع، وتَشفيه إذا مرِض، وتصرف عنه السوء إذا خافه، وتحيطه بالطمأنينة واستقرار النفس إذا تطرّفت به الطموحات، وتكالبت عليه مطالب الحياة.

هذه القوة مصدرها الدين والعقيدة، لم يختلف علىٰ ذلك الناس قديمًا ولا حديثًا، لا في المجتمعات البُدائية، ولا في العالم المتمدّن، فالاحتماء بالعقيدة شيء مغروز في فطرة الناس لا بد لهم منه، شاء من شاء وكرِه من كره، حتىٰ الملحد ومدّعي الألوهية، إذا أحاط به الهلاك وشاهد مصرَعَه قال: يا رب، قد يقول ذلك دون أن يفكّر؛ استجابة للنداء المغروز في فطرته، وقد يقوله اعترافًا بالحق بعد أن يرىٰ برهانه، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

هذه حاجة الإنسان إلىٰ العقدة الصحيحة علىٰ الجانب المادّي في الحياة الدنيا، أما علىٰ الجانب الآخر في الحياة الآخرة، فإن حاجة الإنسان إليها أشد إلحاحًا وضرورة؛ لأن الحياة الأخرىٰ هي الحياة الباقية التي لا تفنىٰ، والإنسان فيها يُوفّىٰ جزاء أعماله، فإما نعيم مقيم لا ينقطع، إن آمن وكان معتقده صحيحًا، وإما عذاب أليم لا يطاق، إن أشرك وضل الطريق.

وما يفوت الإنسان في الدنيا من آمال، وما يصيبه فيها من حاجة أو حرمان، لا يؤلمه فقده كثيرًا بالمقارنة إلىٰ ما يرجوه في يوم الدين والجزاء من خير عظيم، فإن في ذلك اليوم تعويضًا رابحًا عما فاته، وفي وعده بذلك تسلية لنفسه، تخفف عنه وقع المصائب وقت نزولها، فهو بالاعتقاد الصحيح رابح في الحالين؛ في السراء والضراء، قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا**

للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له»[1].

نظرًا لهذه الحاجة إلىٰ الاحتماء بالعقيدة -سواء في ما يتعلق بالجانب المادي العاجل في الحياة الدنيا، أو فيما يتعلق بالجانب الأخروي الآجل في الحياة الباقية- كان الدين والعقيدة علىٰ مر العصور في الماضي السحيق -ولا يزال كذلك في الحاضر المعاصر- جزءًا من كيان الناس لا ينفكون عنه، ولا بدّ لهم منه، حتىٰ إنهم إذا لم يهتدوا بهداية الله إلىٰ الإيمان بالإله الحق، التجئوا إلىٰ أديان أخرىٰ باطلة، يعبدون فيها الكواكب والأوثان، ويعبدون الإنسان والأبقار، ويجعلونها أندادًا لله، وهي لا تغني شيئًا، ولا تدفع ضرا، ولكن حاجتهم إلىٰ العقيدة جعلتهم يتعلقون بأيّ معتقَد.

وهنا تبرز الحاجة الحقيقية إلىٰ العقيدة الصحيحة والدين الحق، الذي يلبِّي حاجة الإنسان، ويعطيه الحماية الحقيقية، والسعادة التي يَنشدها في الدارين.

إن الدين عند الله الإسلام:

لا شك أن الإسلام هو الدين الحق؛ لأنه الدين الذي رضيه الله -تعالىٰ- لهذه الأمة، ونسخ به جميع الشرائع السماوية، قال -تعالىٰ-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، وهو الدين الذي يقوم علىٰ عبادة إله الكون الذي لا شريك له، المهيمن علىٰ كل شيء، الذي وسع علمه كل شيء، وأحاطت قدرته بكل الكائنات، فكل موجود بأمره، وكل نعمة علىٰ الناس هي من عنده؛ فكان لذلك مستحِقًا للعبادة لذاته، وهي حقه علىٰ عباده، يعبدونه لا يشركون به شيئًا.

ولما كان الدين الإسلامي خاتم الأديان السماوية وآخرَها، وكان دينًا للناس كافة علىٰ مختلف أجناسهم وألوانهم وعصورهم، أحكم الله -تعالىٰ- شريعته علىٰ لسان نبيه محمد ﷺ فجعلها صالحة لكل زمان ومكان إلىٰ قيام الساعة، دستورها كلام الله -تعالىٰ- الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهديُ نبيه محمد ﷺ

---

(١) مسلم حديث، رقم ٢٩٩٩.

المؤيَّد بالوحي، فكان في هذا الدستور شفاءُ الصدور، فيه العقيدة الصحيحة، والعبادة المُثلىٰ، والسلوك القويم.

كان شريعة في جانبها الاعتقادي تقوم علىٰ الإيمان بالله، الذي يملأ النفس البشرية ثقة وقوة واعتزازًا بالله -تعالىٰ- وحده ويحررها التحرر الكامل من التبعية لغيره، فلا عبودية إلا لله وحده، وبذلك تتوجه التوجيه النافع في الحياة الذي يحملها علىٰ التضحية لتحقيق أسمىٰ الأهداف وأنبل الغايات.

وفي جانبها التعبدي تُمثّل هذه الشرعة منهج الإخلاص الذي تنعكس آثاره علىٰ الإنسان شعورًا بالمسئولية واستقامة وصلاح نفس.

وفي جانبها السلوكي تعطي المثل الرائع في حسن التعامل والإنصاف والوفاء بالذمم، والعدل بين الناس.

وهذه الخصال التي هي جماع الإيمان، ما اجتمعت في أمة إلا جمعت الخير من أطرافه، وكان لأهلها شأن عند الله وعند الناس، وكان لهم التمكين والفلاح، قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ﴾ [التوبة: ٥٥].

الإيمان والإسلام

أول ما يجب علىٰ المكلَّف:

أول ما يجب علىٰ المكلَّف هو التوحيد، نطقًا واعتقادًا وعملًا، وليس النظر ولا التفكر، ولا القصد إلىٰ النظر، ولا الشك لنصب البراهين وإقامة الأدلة، كما هو مذكور في كثير من كتب علم الكلام، وهي مسألة ذكر أبو الوليد الباجي عن بعض شيوخه أنها من مسائل المعتزلة التي بقيت في كتب الأشاعرة، وكذلك قال أبو جعفر السِّمْناني وهو من رءوس الأشاعرة[1].

الاكتفاء بالإيمان الإجمالي:

يكفي عامة المسلمين الإيمان الجازم والتصديق المجمل بكل ما جاء به النبي ﷺ أما معرفة تفصيل مسائل الإيمان والخلافيات، والاستدلال وردّ الشبهات، فهذا من فروض الكفاية، لا يجب إلا علىٰ من أعطاه الله -تعالىٰ- قدرة عليه من أهل العلم، ولا يجب علىٰ عامة المسلمين.

قال القرطبي في المفهم: «الذي عليه أئمة الفتوىٰ وبهم يُقتدىٰ، كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد، وغيرهم من أئمة السلف، أن أوّل الواجبات علىٰ المكلَّف الإيمان التصديقي الجزمي، الذي لا ريب معه في الله -تعالىٰ- ورسله وكتبه، وما جاءت به الرسل، كيفما حصل ذلك الإيمان، وبأي طريق إليه توصل»[2]. وهذا الذي قاله القرطبي هو الذي دل عليه حديث جبريل في تعريف الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ

---

(١) انظر التمهيد ٧/ ١٥٢، وفتح الباري ١/ ٧٧ و١٧/ ١١٦.

(٢) المفهم ١/ ١٨٢.

وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1].

ويدل له أيضًا أحاديث إسلام أصحاب رسول الله ﷺ كحديث إسلام الأعرابي، وإسلام أبي ذر، وخالد بن الوليد، وحديث بَهز بن حكيم، وغيرهم من الصحابة، فقد روىٰ بَهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قالَ: «قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا أَتَيْتُكَ حَتَّىٰ حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِهِنَّ لِأَصَابِعِ يَدَيْهِ أَنْ لَا آتِيَكَ وَلَا آتِيَ دِينَكَ، وَإِنِّي كُنْتُ امْرَءًا لَا أَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ ﷻ وَرَسُولُهُ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَحْيِ اللَّهِ، بِمَ بَعَثَكَ رَبُّكَ إِلَيْنَا؟ قَالَ: بِالْإِسْلَامِ، قُلْتُ: وَمَا آيَاتُ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: أَنْ تَقُولَ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَىٰ اللَّهِ، وَتَخَلَّيْتُ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ»[2].

فلم يكن النبي ﷺ يطلب ممن يأتيه راغبًا في الإسلام إقامة البراهين والدلائل العقلية علىٰ إثبات ما يجب لله -تعالىٰ-، وما يستحيل، وما يجوز، بل يكتفي منه بالتصديق والتسليم الإجمالي بما يجب الإيمان به، والنطقِ بالشهادتين، وتعليمه أركان الإسلام ليعمل بها.

قال ابن عبد البر: «إنه من نظر إلىٰ إسلام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وسعد وعبد الرحمن وسائرِ المهاجرين والأنصار، وجميع الوفود الذين دخلوا في دين الله أفواجًا، علِمَ أن الله ﷻ لم يَعرِفه واحد منهم إلا بتصديق النبيين بأعلام النبوة، ودلائلِ الرسالة، لا مِن قِبَل حركة، ولا من باب الكل والبعض، ولا من باب كان ويكون، ولو كان النظر في الحركة والسكون عليهم واجبًا، وفي الجسم وفي نفيه، والتشبيه ونفيه لازمًا، ما أضاعوه، ولو أضاعوا الواجب ما نطق القرآن بتزكيتهم وتقديمهم، ولا أطنب في مدحهم وتعظيمهم، ولو كان ذلك من عملهم مشهورًا أو من أخلاقهم معروفًا، لاستفاض عنهم، ولشُهِروا به، كما شُهِروا بالقرآن والروايات»[3].

تعريف الإيمان والإسلام:

الإيمان في اللغة: التصديق والإذعان، قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، أي بمصدّق. والإسلام معناه: الاستسلام والانقياد،

(١) مسلم حديث رقم ٨.

(٢) سنن النسائي حديث رقم ٢٤٣٦.

(٣) التمهيد ٧/ ١٥٢.

فهو إسلام الوجه لله، وإفرادُه بالنيّات، والأعمال، والطاعات.

والإيمان والإسلام المُنجيان عند الله -تعالىٰ- يوم القيامة يَرِدان في الشرع علىٰ شيء واحد، وهو الاستسلام لله -تعالىٰ-، والخضوُع له، والطاعة لأمره، وإن كان أحدهما -وهو الإيمان- أدخل في عمل القلب، والآخر، -وهو الإسلام- أدخل في النطق والعمل بالجوارح، فليس هناك إيمان منجٍ لصاحبه في الآخرة من غير إسلام، ولا إسلامٌ منج من غير إيمان، فهما متلازمانِ، هما كشجرة الإيمان، في القلب جذورها، والإسلام في الخارج فروعها، فالجذور والفروع كلاهما جزءان لشيء واحد، لا يغني واحد منهما عن غيره.

قال ابن عبد البر: أكثر أصحاب مالك علىٰ أن الإسلام والإيمان شيء واحد[1]، وهو قول جمهور أصحابنا وغيرِهم من المالكيين والشافعيين، وهو قول داود وأصحابه، وأكثر أهل السنة والنظر، المتبّعين للسلف والأثر، قال الله -تعالىٰ-: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]، أي غير بيت مسلم من المؤمنين، فسوّىٰ بين الإيمان والإسلام، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقد بيّنت آيات القرآن أن الإسلام دين الأنبياء جميعًا، قال -تعالىٰ- مخاطبًا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، ومن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ [يوسف: ١٠١]، ولا شك أن الإسلام الذي عليه الأنبياء وأخبر القرآن بأنه الدين الحق، لا يكون مدلوله إلا شاملًا للإقرار بالتوحيد باللسان، والإذعان لله والخضوع له بالقلب والجنان، والعمل بالطاعات بالجوارح والأركان.

ويدل علىٰ أن الإيمان والإسلام سواء، مجيء التعبير بأحدهما عن الآخر، فقد سئل النبي ﷺ: «**أَيُّ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟، قَالَ: الإِيمَانُ**»[2]، قال ﷺ لوفد عبد القيس: «**أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا**

(١) التمهيد ٧/ ٢٤٧. ٢٥٠.

(٢) مسند أحمد حديث رقم ١٦٥٧٩.

مِنَ المَغْنَم الخُمُسَ»[1]. وجاء التعبير بهذه الأركان في حديث جبريل عن الإسلام، فقال: **«أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»**[2].

وأما ما جاء من مثل قوله -تعالىٰ-: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾[الحجرات: ١٤]، مما يقتضي المغايرة بين الإيمان والإسلام، فليس المراد به الحقيقة الشرعية للإسلام، وإنما المراد الحقيقة اللغوية، وهي الاستسلام ظاهرًا، خوفًا من القتل؛ لأن من أظهر الاستسلام عصم دمه، لكنه لا يكون مؤمنًا علىٰ دين الإسلام، الذي ارتضاه الله -تعالىٰ- لعباده دينًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[3].

ما يجب الإيمان به:

يكفي المسلم في الإيمان أن يؤمن بالله وحده لا شريك له، وملائكته، وكتبه، ورسله، وما جاء به الرسل، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبالبعث بعد الموت، وأن الله -تعالىٰ- ليس كمثله شيء -إيمانًا عامًا مجملًا، علىٰ ما جاء في حديث جبريل عليه السلام وهو قوله ﷺ في الجواب عن حقيقة الإسلام: «... **أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»، وقوله عن الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ،

---

(١) البخاري حديث رقم ٥٣.

(٢) مسلم حديث رقم ٨، ومن السلف من ذهب إلىٰ أن الإيمان أخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم ولا ينعكس ويدل له قول سعد للنبي ﷺ وقد قسم قسمًا في الحديث: يا رسول الله، أَعْطِ فُلَانًا فَإِنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَقَالَ النبي ﷺ: «**أَوْ مُسْلِمٌ**» أَقُولُهَا ثَلَاثًا، ويرددها علي ثلاثا «**أَوْ مُسْلِمٌ**»، ثُمَّ قَالَ: «**إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، مَخَافَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ**» صحيح مسلم رقم ١٥٠، فقد فرق النبي ﷺ بينهما بما يفيد أن الإيمان أخص من الإسلام. وهناك من المتأخرين من يجعل الإيمان غير الإسلام فيجعل الإيمان هو التصديق والإذعان الباطن بالقلب لله -تعالىٰ-، ولو كان صاحبه غير منقاد ولا مقر في الظاهر، وهذا يكون عند الله ناجيًا ولا يعامل في الدنيا معاملة المسلمين، والإسلام هو الانقياد في الظاهر، الذي قد يكون صاحبه صادقا في الباطن وقد يكون منافقًا، وهذا لا يكون ناجيًا عند الله، لكن في الظاهر يعامل معاملة المسلمين لقول النبي ﷺ = إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ. صحيح البخاري رقم ٤٣٥١.

(٣) البخاري مع فتح الباري ١/ ٨٦.

وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ...»[1].

فالإيمان بالله معناه: توحيده في ذاته وصفاتِه، وأنه متّصف بكل كمال، ومنزَّه عن كل نقص، وأنه ليس كمثله شيء، وتصديقُ ذلك بالقلب واللسان، مع الخضوع لأمره.

والإيمان بالملائكة معناه: التصديق بما سمىٰ الله -تعالىٰ- لنا منهم في القرآن علىٰ التعيين والتصديقُ بباقيهم إجمالًا، وذلك باعتقاد أن لله -تعالىٰ- ملائكة غير المذكورين، لا يعلم أعدادَهم وأسماءهم إلا هو.

والإيمان بالكتب يعني: الإيمان بما سماه الله لنا من الكتب، وهو القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصُحف إبراهيم وموسىٰ، وكذلك الإيمان بأن لله كتبًا أخرىٰ أنزلها علىٰ أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددَها إلا هو.

والإيمان بالرسل يعني: التصديق بمن سماهم الله لنا منهم في القرآن، والإيمان كذلك بأن لله رسلا آخرين لا يعلم أعدادَهم وأسماءهم إلا هو، كما قال الله -تعالىٰ-: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

والإيمان باليوم الآخر معناه: الإيمان بالبعث بعد الموت، وبكل ما في ذلك اليوم من الحساب، والجزاء، والجنة، والنار، والميزان، والصراط...

والإيمان بالقدر هو: التسليم لقضاء الله -تعالىٰ- وقدره، وأن نعلم أن ما أصابنا لم يكن ليخطئنا، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا، وأن نرضىٰ بذلك.

الإيمان والإسلام مبناهما التسليم:

لا يصح للمؤمن إيمان ولا إسلام إلا بالتسليم المطلق، والإذعان الكامل بالقلب واللسان لكل ما أمر به الله -تعالىٰ- ورسوله ﷺ دون اعتَراض أو انتقاد. فليس للمسلم أن يقول: لِم أمر الله -تعالىٰ- بكذا؟ أو لِم نهىٰ عن كذا؟ أو لِم قدَّر كذا؟ أو لِم فعل كذا؟ ولِم حكم بكذا؟ فإن ذلك مناقض للإيمان، مناف للتسليم، قال الله -تعالىٰ-: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقال -تعالىٰ- لرسوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) مسلم حديث رقم ٨.

فالله ﷻ لا يُسأل عما يفعل، وذلك لكمال حكمته وعدله، لا لمجرد قهره وسلطانه. فالمسلم إذا سأل يقول: بِم أمر ربنا؟ ولا يقول: لِم أمر ربنا؟ ولا ضير من سؤال المستفهم المتعلِّم، الراغب في العلم، الباحث عن حكمة ترتفع بها عن النفس الشبهة، أو يرتاح القلب عند الوقوف عليها في أمر من أمور الدين، فإنما شفاء العَي السؤال.

والسؤال المذموم هو سؤال المتعنِّت المنكر، الذي لا يريد المعرفة، وإنما يريد العناد، ومعارضةَ الحق والوحيِ برأيه[١].

والصفة التي تُميِّز السائل المعترض، عن السائل المستفهم المتعلّم، أنّ الأول إذا لم يعرف الحكمة والغاية من الأمر، رفض الإيمانَ، وتشكّك في صحة الأحكام. أما المستفهم تعلُّمًا وتفقّهًا، فهو علىٰ إيمانه ويقينه وتسليمه، عرَف الحكمة أم لم يعرفها، فعدَمُ معرفة الحكمة لا تسلبه الإيمان، ولا تشكّكه فيما عنده من يقين، ومعرفتها تزيدهُ اطمئنانًا.

الإيمان يزيد وينقص:

الإيمان يزيد بالطاعات، ويَنقص بالمعاصي، فهو مراتب بعضها فوق بعض. فليس إيمان الأنبياء كإيمان غيرهم، وليس إيمان أبي بكر الصديق كإيمان سائر الناس، وليس إيمان المطيع كإيمان العاصي، قال -تعالىٰ-: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ **[الأنفال: ٢]**، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ **[المدثر: ٣١]**، وقال -تعالىٰ: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ **[الكهف: ١٣]**، وقال -تعالىٰ-: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ **[الفتح: ٤]**، فالآيات نَصّ في الدلالة علىٰ زيادة الإيمان، والزيادةُ تستلزم النقْصَ لا محالة. وقال ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ**»[٢]، ولا يكون مَن اتّصف بهذه الصفة أكملَ إلا إذا كان المتّصف بضدها أنقصَ. وقال ﷺ: «**أوثق عرىٰ الإيمان**

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٦/٣٠٩، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٩٠.

(٢) سنن الترمذي حديث رقم ١١٦٢.

الحب في الله والبغض في الله»[١]، فإنه يدل على أن عرى الإيمان بعضها أوثق من بعض وأكمل. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّىٰ تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ**» ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[٢].

وقال ﷺ: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[٣]، وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه: «هلموا نزدادُ إيمانًا، فتَذكرون الله ﷻ»[٤]، وقال الإمام مالك -رحمه الله تعالىٰ-: «الإيمان قول وعمل يزيد ويَنقص»[٥].

الإيمان قول وعمل:

قال الشافعي -رحمه الله تعالىٰ-: كان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومَن أدركناهم يقولون: الإيمان قول وعمل ونيّة، ولا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر[٦]. وقال الأوزاعي: كان مَن مضىٰ من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل.

وقال ابنُ عبد البر: أجمع أهل الفقه والحديث علىٰ أنّ الإيمان قول وعمل، وذكَر منهم مالك، والليث بن سعد، وسفيان الثوري، وابنَ عيينة، والأوزاعي، ومَعْمر بن راشد، وابن جُريح، وعبد الله بن عمر، وإسحاق بن راهُوَيه، وأبا عبيد القاسم بن سلاَّم، وداود بن علي، وأبا جعفر الطبري، فإنهم ومن سلك مسلكهم يقولون: الإيمان قول وعمل[٧]. قول باللسان وهو: الإقرار لله بالوحدانية، ولنبيّه ﷺ بالرسالة، واعتقاد بالقلب، بتصديق ما جاء به الرسول ﷺ، مع التسليم والقبول، وعملٌ

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ١٧٠.

(٢) سنن الترمذي حديث رقم ٣٣٣٤، وقال: حسن صحيح.

(٣) البخاري حديث رقم ٢٤٧٥.

(٤) الشريعة ص ١١٢.

(٥) الشريعة ص ١١٨.

(٦) مجموع الفتاوىٰ ٧/ ٣٠٨.

(٧) التمهيد ٩/ ٢٣٨ و٢٥٣، والاستذكار ٢٦/ ١٣٤.

بالجوارح، بكل ما يطاع الله ﷻ به من الفرائض والنوافل واجتنابِ النواهي. وهذا هو تعريف الإيمان الواجب، الجامع لشعب الإيمان كلِّها الذي وعد الله -تعالىٰ- أهله دخول الجنة دون عذاب، وهو معنىٰ الإيمان عند الإطلاق. فالعمل لازم من لوازم الإيمان المنجي في الآخرة، لا يتحقق بدونه.

ومن فرط في شيء من الفرائض مع إذعانه وإقراره بالتوحيد، لا يكون بمجرد ذلك كافرًا عند جماعة المسلمين، ولكن لا يكون مؤمنًا الإيمان الذي أوجبه الله -تعالىٰ- علىٰ المؤمنين، ووعدهم عليه الجنة دون عذاب.

والدليل علىٰ أن العمل من الإيمان قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فإن أهل التفسير لم يختلفوا في أنّ المراد بالإيمان الصلاة إلىٰ بيت المقدس[1]، فسمىٰ القرآن الصلاة إيمانًا، وقال -تعالىٰ-: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فجعل الله ﷻ في الآية إيتاء المال، وإقامةَ الصلاة، والوفاء بالوعد، والصبر، كلَّ ذلك من وصف الإيمان. وقال ﷺ لوفد بني عبد القيس: **«أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ»**[2].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»**[3]. وقال ﷺ: **«الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا**

---

(١) التمهيد ٩/ ٢٤٥.

(٢) البخاري حديث رقم ٥٣، المشكاة ١/ ١٧١.

(٣) البخاري حديث رقم ٢٤٧٥.

إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ»[1]، وقال ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ**»[2]. فجعل النبي ﷺ كفَّ الأذىٰ عن المسلمين من الإيمان، وقد قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أمر إِذَا أنتم فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»[3].

وقال لمن طلب منه قولًا في الإسلام لا يسأل عنه غيره: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ»[4]، فأمره بالتوحيد مع الاستقامة، والطاعات بأنواعها مندرجة تحت الاستقامة. وذكر ﷺ أنّ كثيرًا من الأعمال الصالحة جزء من الإيمان، من ذلك الحبُّ في الله والبغض في الله، وإكرام الضيف، والصلاة، والصيام، والزكاة، واتباع الجنائز، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، وغيرُ ذلك كثير، وكله ثابت في الصحيح عن النبي ﷺ في البخاري وغيره.

قال الآجرّي في كتاب (الشريعة): إن الله ﷻ ذكر في ستة وخمسين موضعًا في كتابه أنه لم يُدخل المؤمنين الجنة بالإيمان وحده حتىٰ ضَمَّ إليه العملَ الصالح الذي قد وفّقهم له، فصار الإيمان لا يتم لأحد حتىٰ يكون مصدقًا بقلبه، وناطقًا بلسانه، وعاملًا بجوارحه، وهذا من القرآن ردٌّ علىٰ من قال: الإيمان المعرفة، وعلىٰ من قال: المعرفة والقول، وإن لم يعمل[5].

توجيه حديث البطاقة:

وهذا لا يتعارض مع ما ورد في صحيح الحديث من نصوص ظاهرها الاعتماد علىٰ كلمة التوحيد وحدها في دخول الجنة، من مثل حديث أبي ذر ؓ أنّ النبي ﷺ قال: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَىٰ؟ قَالَ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَىٰ**»[6].

---

(١) مسلم حديث رقم ٣٥.

(٢) البخاري حديث رقم ١٠.

(٣) سنن الترمذي حديث رقم ٢٦٨٨، وقال: حسن صحيح.

(٤) مسلم حديث رقم ٣٨.

(٥) الشريعة ص ١٢٢.

(٦) البخاري حديث رقم ٧٤٨٧.

ومثل حديث البطاقة وهو ما رواه عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**»[1].

مثل هذه النصوص فحواها التّنويه بما لتوحيد الله -تعالىٰ- من منزلة عظيمة، وما للخاتمة علىٰ الإيمان من مكانة رفيعة عند الله -تعالىٰ-، ولا تفهم علىٰ أن من قصّر فيما كلفه الله -تعالىٰ- به من الطاعات، واجتناب المحرمات، ولقىٰ الله ﷻ بكلمة التوحيد مجرّدة من كل عمل صالح لا يعذبه الله.

فإن هذا الفهم يتناقض مع ست وخمسين آية في كتاب الله، رتّبت كلُّها دخولَ الجنة علىٰ الإيمان المقرون بالعمل الصالح، والله ﷻ يفعل ما يشاء ويختار، لا معقِّب لحكمه، فلو أدخل أحدًا الجنة دون أن يعذبه مع تقصيره علىٰ ما جاء في حديث البطاقة، لكان ذلك من سابغ فضله، وهو أهل العفو وأهل المغفرة، لكن من الذي يضمن لنفسه أن يكون ذلك السعيد؟ مَن ترك العمل واتّكل وخاطر بنفسه علىٰ هذا النحو، لا شك أنه غامر بالمصير، وهل يغنيه حينئذٍ إن حق عليه العذاب أن يقول: يا ويلتا علىٰ ما فرطت في جنب الله! قال -تعالىٰ-: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

القائلون بأن الإيمان الإقرارُ دون العمل:

خالف قوم فقالوا: الإيمان الإقرار والتصديق، وأما الطاعات فلا تسمّىٰ إيمانًا، كما أن المعاصي لا تسمّىٰ كفرًا، واحتجوا بما يأتي:

١- إن من مات من الصحابة قبل نزول الفرائض كان مؤمنًا لا محالة، فدل علىٰ أن

(١) سنن الترمذي حديث رقم ٢٦٣٩.

الطاعات ليست من حقيقة الإيمان. وأجيب بأنها من حقيقة الإيمان، وأن تركها نقص، لكن لا لوم عليهم فيه؛ لأنه لم يكن منهم باختيار، فإن اللوم يتوجه بعد التكليف، لا قبله(١).

٢- احتجوا بحديث عِتبان بن مالك في قصة مالك بن الدُخشُم، وقد تغيّب عن الصلاة مع رسول الله ﷺ، حيث وصفه من حضر بالنفاق، فقال ﷺ: «**فإنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(٢)، وأجيب عنه بأن ذلك كان قبل نزول الفرائض.

قال الزهري: أدركنا الفقهاء وهم يرون أن ذلك كان قبل أن تنزل موجبات الفرائض، فإن الله قد أوجب علىٰ أهل هذه الكلمة التي ذكرها رسول الله ﷺ، وذكر النجاة بها فرائض في كتابه، فنحن نخشىٰ أن يكون الأمر قد صار إليها، فمن استطاع أن لا يغير فلا يغير. ومثله مروي عن سفيان بن عيينة وأبي عبيد في كتابه الإيمان له(٣).

وقد تخوف عمر ﷺ لما أعطاه الله -تعالىٰ- من الفطنة وحضور الذهن، علىٰ الأمة من هذا التطبيق القاصر للإيمان. جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال لأبي هريرة: «**اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاء هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيتُ عُمَرُ، فَقَالَ: مَا هَاتَانِ النَّعْلاَنِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَقُلْتُ: هَاتَانِ نَعْلاَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعَثَنِي بِهِمَا مَنْ لَقِيتُ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُسْتَيْقِنا بِهَا قَلْبُهُ، بَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ، فَضَرَبَ عُمَرُ بِيَدِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ، فَخَرَرْتُ لاِسْتِي، فَقَالَ: ارْجع يا أَبَا هُرَيْرَةَ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَجْهَشْتُ بُكاء، وَرَكِبَنِي عُمَرُ فَإِذَا هُوَ عَلَىٰ أَثَرِيْ، فَقَالَ لي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عُمَر مَا حَمَلكَ عَلىٰ مَا فَعَلتَ، قَالَ: يَا رسُولَ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيرَةَ بِنَعْلَيْكَ مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إِلا اللهُ مُسْتَيقَنًا بِهَا قَلبُهُ، بَشَّرَهُ بِالجَنَّةِ؟ قَالَ: نَعَم، قَالَ: فَلا تَفْعَلْ، فَإِني أَخْشَىٰ**

---

(١) فتح الباري ١/ ١١١.

(٢) البخاري حديث رقم ٥٤٠١.

(٣) التمهيد ٧/ ٢٤٠، وفتح الباري ١/١١١.

أَن يَتكِلَ النَّاسُ عَلَيْهَا، فَخَلِّهِمْ يَعْمَلونَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَخَلِّهِمْ»[1]، فكان هذا من عمر رضي الله عنه تذكيرًا لرسول الله ﷺ بما جاء عنه ﷺ في حديث معاذ أنه قال: **«مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَىٰ النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا، قَالَ: إِذًا يَتَّكِلُوا»**[2].

المعرفة وحدها دون إذعان لا تكفي:

لا يكفي في صحة الإيمان مجردُ العلم والمعرفة بالقرآن وأركان الإسلام، والعلمِ بوجوب الإيمان بما جاء به محمد ﷺ، وأن الله هو الرازق الخالق، وأن مَن دونه لا يملكون ضرًا ولا نفعًا، إذا لم يصحب ذلك استسلام لله -تعالىٰ- وخضوع وإقرار وانقياد، فإن فرعون وجنوده، واليهود، والمشركين القدامىٰ كانوا يعرفون الله كذلك، قال -تعالىٰ- عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال -تعالىٰ- عن اليهود: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٠]، فقد كان اليهود يعرفون أن النبي ﷺ مرسل من عند الله، ومع ذلك لم تنفعهم هذه المعرفة الخالية من التسليم والقبول والإذعان، قال عبد الله بن سلاَم: لقد عرفت محمدًا ﷺ حين رأيته كما أعرف ابني، ومعرفتي لمحمد أشد[3]. فمجرد المعرفة لا تغني شيئًا في باب الإيمان، فهي كمعرفة إبليس، ومعرفة فرعون وجنوده، كان إبليس يعرف ربه، وكان فرعون يعرف ربه كما قال له -تعالىٰ- علىٰ لسان موسىٰ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولكن معرفتهما كانت مصحوبة بالتعالي والتكبر، وعدمِ الإذعان والقبول، فكانا من الهالكين.

وقال -تعالىٰ- في محاجّة المشركين: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، فلم يصيروا مؤمنين مع أنهم أجابوا صراحة بأن الرازق في السماء والأرض، والمالك للأمر الله.

وهل يُستفاد منه أن من يتّجه إلىٰ غير الله بطلب شيء لا يملكه إلا الله، كتفريج

(١) مسلم حديث رقم ٣١.

(٢) البخاري حديث رقم ١٢٨.

(٣) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/ ١٤٠.

كَرْب، أو كَشْف ضر، أو إعطاء ولد أو رزق، أو يتقرب إليه بعبادة لا تكون لغير الله، كنذر ودعاء -لا يغني عنه بعد ذلك أن يقول لا يكشف الضر إلا الله، ولا يعطي الحاجات إلا الله، فقد كان المشركون يقولون ذلك، ولم ينفعهم قولهم المخالف لعملهم واعتقادهم، قال -تعالىٰ- في محاجّتهم: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

ونجد في العصر الحاضر كثيرًا من اليهود والنصارىٰ تخصصّوا للبحث في دين الإسلام، ودرسوا القرآن والحديث والعلوم الشرعية، وربما منهم من إذا ناقشته اعترف بصدقِ القرآن وصحة الحديث وصدق النبي ﷺ ولكنه يجعل ذلك في نطاق البحث العلمي المجرد، بمعنىٰ أن البحث العلمي يثبت له صحة القرآن، وأنه وحي من عند الله، دون أن يقبل الباحث ذلك، ويسلّم به، ويخضع له، فلم يخرج عن دائرة مجرد العلم بصحة الإسلام، وذلك لا يستلزم الإيمان به، والإذعان إليه، ومن لم يذعن لله بما يجب الإيمان به لا يكون مسلمًا، ولا ينفعه مجرد العلم.

حسن النية وحده لا يكفي:

عبادة الله -تعالىٰ- هي الغاية من خلق العباد، كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والتقيُّد فيها بما شرعه الله منها علىٰ الصورة التي شرعها، ضرورة لازمة لصحَّتها وقبولها عند الله -تعالىٰ-، قال -تعالىٰ-: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، قال الفُضيل بن عياض رحمه الله: العمل الصالح لا يُقبل، حتىٰ يكون أخلصَ العمل وأصوَبه، قيل له: فما أخلصُ العمل؟ قال: أن يكون لله، قيل: فما أصوَبُه؟ قال: أن يكون علىٰ السنَّة، أي علىٰ وَفق ما شرعه الله -تعالىٰ-[(١)].

وكان من دعاء عمر رضي الله عنه: «اللهم اجعل عملي كلَّه صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا»، وتخليص الأعمال مما يفسدها أشق من الاجتهاد في العبادة.

فلا بد لقبول العمل من تصحيح صورة العمل، بحيث يكون مشروعًا، مع إخلاص التوجّه به إلىٰ الله -تعالىٰ-، فلا يكفي حسن النية وإخلاص القصد إذا لم ينضمّ إليه

---

(١) إعلام الموقعين ٢/ ١٢٤.

حسن العمل. فلو كان حسن النية وحده كافيًا لما كانت هناك حاجة إلىٰ إرسال الرسل، وإنزال الشرائع والكتب، حتىٰ المشركون يزعمون أن عبادتهم لله خالصة، وأنهم ما يعبدون غير الله إلا ليقربوهم إلىٰ الله زلفىٰ.

ولا يكفي في مشروعية العمل أن يكون صاحبه يريد به الخير، فقد قال عبد الله بن مسعود للذي قال له: ما أردنا إلا الخير: «وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ حَدَّثَنَا أَن قَوْمًا يَقْرَءونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم»[1].

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كلُّ عبادة لم يتعبّدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تَعَبَّدُوها، فإن الأول لم يدع للآخِر مقالًا»[2].

ومن المُجمع عليه بين أهل العلم أن العمل لا يكون مقبولًا إلا بشرطين:

موافقتُه للشرع، وإخلاص النية فيه لله وحده، فما كان علىٰ خلاف الشرع من الأعمال فهو باطل، مهما كان القلب به طيبًا، والقصد إليه صالحًا، قال الله -تعالىٰ-: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، وقال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا ليسَ عليه أمرُنا فهو رَدٌّ**»[3].

وما كان من الأعمال مقصود به غير الله، متوجّهٌ به إلىٰ من سواه، رياء وظهورًا، فهو باطل مردود، ولو كان علىٰ وَفق المشروع، لقول النبي ﷺ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ**»[4].

قول الإنسان: أنا مؤمن -إن شاء الله-:

إذا قال الإنسان: أنا مؤمن -إن شاء الله-، في جواب من سأله: هل أنت مؤمن؟ فلا ضرر في ذلك، وكان السلف الصالح يكرهون مثل هذا السؤال، فكان طاووس إذا سُئل يقول: آمنت بالله وكُتبه ورسله، وكان سفيان بن عيينة إذا سُئل هذا السؤال

---

(١) سنن الدارمي ٢٠٤، وانظر الاعتصام ١/١٨١.

(٢) الحوادث والبدع ٢٩٧.

(٣) مسلم حديث رقم ١٧١٨.

(٤) البخاري حديث رقم ١.

لا يجيب، ويقول للسائل: سؤالك إياي بدعة، ولا أشك في إيماني، وقال الأوزاعي للسائل: «إن المسألة عن ذلك بدعة، والشهادة عليه تعمق لم نُكلَّفه في ديننا، ولم يشرعه نبينا، القول فيه جدل والمنازعة فيه حدث»[1].

وتعليق الإيمان علىٰ المشيئة لا يضر، ولا يقدح في الجزم بالإيمان، إذا كانت المشيئة متجهة إلىٰ واحد من الأمور الآتية:

١- اتجاه المشيئة إلىٰ الخاتمة علىٰ الإيمان، لا للإيمان نفسه، فإن الإنسان لا يستطيع أن يجزم بما يكون عليه حاله عند الخاتمة، وبذلك يكون قوله: إن شاء الله في محله.

٢- اتجاه المشيئة إلىٰ العمل الذي هو فعل الطاعات وتركُ المحرمات، فإن الإيمان لا يتم إلا بالعمل، والإنسان لا يستطيع أن يجزم بأنه أكملَ العمل الذي يتطلّبه الإيمان، فهو شاك في ذلك، فلو قال: أنا مؤمن قطعًا، دون تعليق علىٰ المشيئة في هذه الحالة، فكأنه قال: أنا في غاية الطاعة التي يتطلّبها الإيمان الكامل، وهذا من تزكية النفس المنهي عنها، قال ﷺ: «**وَاللَهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي**»[2]، هكذا جاء الحديث في بعض الروايات علىٰ غير صيغة الجزم تواضعًا منه ﷺ، وجاء في بعضها بلفظ: «**أَمَا وَاللَهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ**»[3]، علىٰ الجزم ورسول الله ﷺ أهل لذلك.

٣- اتجاه المشيئة إلىٰ رجاء قبول الأعمال، كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [**المؤمنون: ٦٠**].

مرتكب المعصية ليس كافرًا:

ارتكاب المعاصي لا يُسلب المؤمنَ إيمانَه، ولو كانت المعاصي من الكبائر، ما دام فاعل المعصية يعتقد أنها معصية، فإن استحلها واعتقد أنها حلال وغيَّر حكم الله، خرج عن الإيمان. فالزاني وآكل الربا لا يرتد عن الإسلام إذا زنىٰ أو أكل الربا، وهو يعتقد حرمة ما ذُكر، فإن فَعَل شيئًا من ذلك معتقدًا أنه حلال، رادًّا علىٰ الله حكمه في

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٥٣٩.

(٢) مسلم حديث رقم ١١١٠، والشريعة للآجري ص ١٣٨، ومجموع الفتاوي ٧/٤٤٩.

(٣) البخاري حديث رقم ٥٠٦٣.

التحريم، كان مرتدًا. جاء في الصحيح عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَىٰ؟ قَالَ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَىٰ**»[1].

قال النووي في شرح صحيح مسلم: «. . . ما عليه أهل الحق من السلف والخلف، أن من مات موحِّدًا دخل الجنة قطعًا علىٰ كل حال، فإن كان سالمًا من المعاصي كالصغير والمجنون الذي اتصل جنونه بالبلوغ، والتائب توبة صحيحة من الشرك، أو غيره من المعاصي، إذا لم يحدث معصية بعد توبته، والموفَّق الذي لم يُبتلَ بمعصيةٍ أصلًا، فكل هؤلاء يدخلون الجنة، ولا يدخلون النار أصلًا، لكنهم يرِدُونها علىٰ الخلاف المعروف في الورود، والصحيح أن المراد به المرور عَلىٰ الصراط . . . وأما من كانت له معصية كبيرة ومات من غير توبة، فهو في مشيئة الله -تعالىٰ-، فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة أوْ لا، كالقِسم الأول، وإن شاء عذّبه القدر الذي يريده ﷻ، ثم يدخله الجنة، فلا يخلّد في النار أحد مات علىٰ التوحيد، ولو عمِل من المعاصي ما عمِل، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات علىٰ الكفر، ولو عمِل من أعمال البر ما عمِل»[2].

وما ورد من النصوص في القرآن والسُّنة الدالةِ بِظاهرها علىٰ الحكم علىٰ صاحب المعصية بالكفر، فمؤوّل عند جمهور العلماء علىٰ غير ظاهره، من ذلك قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله ﷺ: «**لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[3]، وقوله ﷺ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[4]، وقوله: «**لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»[5].

---

(١) البخاري حديث رقم ٧٤٨٧.

(٢) النووي علىٰ مسلم ١/٢١٧.

(٣) مسلم حديث رقم ٥٧.

(٤) مسلم حديث رقم ٦٤.

(٥) مسلم حديث رقم ٦٥.

وقوله ﷺ: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَىٰ الْمَيِّتِ**»[1]، وقوله ﷺ: «**أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ مِنْ مَوَالِيهِ فَقَدْ كَفَرَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ**»[2]، وقوله ﷺ: «**لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَىٰ لِغَيْرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إِلاَّ كَفَرَ، وَمَنِ ادَّعَىٰ قَوْمًا لَيْسَ لَهُ فِيهِمْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[3]، وقوله ﷺ: «**أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلا رَجَعَتْ عَلَيْهِ**»[4].

فقد روي عن ابن عباس -رضي الله تعالىٰ عنه- في حديث: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»، أنه قال: ليس بالكفر الذي ينقل عن المِلَّة، ثم تَلاَ قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وأظهر الأقوال في تأويل هذه النصوص لِتَتَّفق مع باقي نصوص الشريعة، التي تقضي بعدم تكفير صاحب المعصية -القولُ: بأن من زنىٰ، أو قتل، أو حكم بغير ما أنزل الله، أو ادّعىٰ إلىٰ غير أبيه، أو أبق من مواليه، أو طعَن في النسب، أو رمىٰ غيره بالكفر- فقد فعل فِعْل الكفار، تغليظا وتشديدًا عليه، وتنفيرًا من فعله، ولا يكون أحد كافرًا بمجرد ذلك، إلا إذا استحلّه وأباحه لنفسه، وكذلك من حكم بغير ما أنزل الله يكون كافرًا إن استحلّ ذلك، أو لم يستحلّ، ولكن اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله وأصلحُ للعباد، فأما من حكم بغير ما أنزل الله، وهو يعتقد أنه يرتكب حرامًا، ويفعل معصية، وأن حكم غيرِ الله ليس مثلَ حكم الله في إحقاق الحق، وتحقيقِ العدل، وإصلاح العباد، فهو فاسق، وأمره إلىٰ الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، كما ذكر ذلك القرطبي في التفسير[5].

سلب الإيمان:

تبين مما تقدم في حقيقة الإيمان والإسلام، أن الداخل إلىٰ الإسلام لا يحتاج إلىٰ أكثرَ من الاعتراف بالشهادتين بلسانه، وتصديق ذلك بقلبه، ولا يحتاج إلىٰ معرفة

---

(١) مسلم حديث رقم ٩٣٤.

(٢) مسلم حديث رقم ٦٨.

(٣) البخاري حديث رقم ٣٥٠٨.

(٤) مسلم حديث رقم ٦٠.

(٥) انظر المفهم ١/ ٢٥٣ والجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٨٠.

البراهين والدلائل والحجاج علىٰ قضايا العقيدة. فالدخول في الإسلام أمر سهل ميسّر لمن شرح الله -تعالىٰ- صدره إليه، ولكن قد يُسلَب الإنسان إيمانه ويُعدّ مرتدًّا في عِداد الكافرين مع إقراره بالشهادتين، وذلك إذا صدر منه فعل أو قول يناقض مضمون الشهادتين، أو يدل علىٰ عدم رضاه بالإسلام، بعد إقامة الحجة عليه، فالناطق بالشهادتين لا يكون مؤمنًا إلا إذا لم يصدر عنه ما يعارضهما.

ولا يكفَّر المسلم إلا بإنكار أمر مجمَع عليه في الشريعة، معلومٍ ثبوته من الدين بالضرورة، يعلمه الخاص والعام، والصغير والكبير.

أمثلة لما يسلب الإيمان:

الأمور التي تسلب الإيمان كثيرة، منها إنكار صفة من الصفات الواجبة لله -تعالىٰ-، كالخلق والقِدم والرحمة ... إلخ، وكأن يسند الإنسان إيجاد العالَم إلىٰ الطبيعة أو إلىٰ المصادفة، أو يقول: الله -تعالىٰ- غير رحيم، أو غير عليم، أو أنه لا يعلم الجزئيات وتفصيلات الأمور.

ويسلب الإيمانَ كذلك إثباتُ صفة له -تعالىٰ- لا تليق بكماله، كمن يصفه -تعالىٰ- بالظلم أو الاستبداد، أو بمشابهة الحوادث في علمه أو قدرته، أو في صفة من الصفات الأخرىٰ، كوصفه بالعجز وعدم القدرة علىٰ النُّصرة، تصريحًا أو ضمنًا، كمن يقول لخصمه: (خَلِّ ربك ينفعك، أو يمنعك مني)، أو: (لو كان ربك هنا لأصابه ما أصابك)، أو يسبّ لفظ الجلالة ويشتمُه، تعالىٰ الله عن ذلك.

ويسلب الإيمانَ إنكارُ القرآن أو شيء منه، ولو كلمة واحدة اتفق المسلمون علىٰ أنها من القرآن، أو تحقيره وعدم احترامه، أو إلقاء شيء مكتوب منه في مكان يُمتهن، كوطئه بالأقدام، أو في محل الأوساخ والنجاسات.

ويسلب الإيمان الطعنُ في رسول الله محمد ﷺ، أو في نبي آخر من أنبياء الله جميعًا -صلوات الله وسلامه عليهم-، كالسّخرية والاستهزاء بواحد منهم أو تكذيبه، أو عدم الإذعان والتسليم لما حكم به، وثبت عنه، قال -تعالىٰ-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، أو نسبتِه إلىٰ الظلم أو الجهل تصريحًا أو تعريضًا، كمن

يسمع الحديث عن النبي ﷺ فيقول: هذا الكلام ظلم حتىٰ لو كان من قول النبي ﷺ، أو هذا كلام جاهل ... إلخ.

ويسلب الإيمان الطعنُ في الشريعة الإسلامية، أو الاستخفاف بشيء منسوب إليها، أو رد حكم من أحكامها التي أجمعت عليها الأمة، وعلم بالضرورة أنها من دين الله -تعالىٰ-، كإنكار الصلاة، أو أنها ليست علىٰ الكيفية المعهودة بين المسلمين، كمن يجعل الصلاة كلّها ركعتين ركعتين، أو أنه لا يشترط أن تكون بالكيفية الخاصة، بل تكفي الصلاة ولو من غير ركوع أو سجود، أو لا تشترط إقامة الصلوات الخمس، بل يكفي منها ما تيسر ولو ركعتين في اليوم، أو أنها تصح من غير وضوء، أو ينكر الصوم أو الحج، أو فرضية الزكاة أو الغسل من الجنابة، أو تحريم الزنا، أو تحريم الخمر والربا، أو ينكر حلية البيع والشراء، إلىٰ غير ذلك من كل حكم معلوم بالضرورة أنه من دين الله -تعالىٰ-، يعرفه الكبير والصغير والعالم والجاهل، إلا أن يعذر منكر ذلك بجهل، كأن يكون حديث عهد بالإسلام لا يعرف أحكامه وحدوده، فلا يعد إنكاره كفرًا[1].

شروط تكفير المعيّن:

لا يحكم علىٰ إنسان بعينه بالكفر إذا بدا منه ما يستوجب الكفر إلا بعد تحقق الشروط الآتية:

١- القصد إلىٰ القول أو الفعل المكفِّر، فإن كان القائل ناسيًا، أو مخطئًا أو غالطًا بسبق لسان، فهو معذور، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٥]، وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»[2]، وقال ﷺ في حديث فرَح الرب بتوبة العبد: «**لَلهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَىٰ شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ**

---

(١) انظر شرح النووي علىٰ مسلم ١/٢٠٥، والزواجر ١/٢٩، ٣٠.

(٢) سنن ابن ماجه حديث رقم ٢٠٤٣.

عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»[1]، يقول العبد ذلك حين يغمره الفرح براحلته بعد أن يئس منها.

٢- عدم الإكراه لقول الله -تعالىٰ-: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

٣- كون المتكلم عالمًا بمقتضىٰ كلامه ولوازمه، غيرَ معذور بالجهل، فلو لم يكن عالمًا بذلك لا يحكم عليه بالكفر، كما هو الحال في تلفظ العامة بألفاظ شركية، كهو يهودي أو نصراني، أو خارج من دين الإسلام إن فعل كذا ويفعله، وكالحلف بغير الله والمبالغة في الخوف من ذلك أكثر من الخوف من الحلف بالله العظيم. ويدل عليه قول الله -تعالىٰ- حكاية عن قوم موسىٰ لموسىٰ عليه السلام: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ومنه قول النبي ﷺ لأصحابه عندما طلبوا منه أن يجعل لهم ذات أنواط، كما كان أهل الجاهلية لهم ذات أنواط، فقال ﷺ: «**سُبْحَانَ الله هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهةٌ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم**»[2].

فلم يخرجهم قولهم عن الملة، وعذرَهم النبي ﷺ لأنهم كانوا جاهلين، غير عالمين بمقتضىٰ كلامهم ولوازمه، وكذلك كان أهل الجاهلية يحلفون بآبائهم ويحلفون باللات والعزىٰ، وجرىٰ ذلك علىٰ ألسنة بعضهم بعد الإسلام، فنهاهم النبي ﷺ عنه، وقال: «**مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّىٰ، فَلْيَقُلْ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[3]، ولم يكفِّرهم.

فمن أنكر شيئًا من دين الإسلام مدَّعيًا الجهل به، لا يسارَع إلىٰ تكفيره، حتىٰ يبيّن له ذلك ويعرَّف به، وتزولَ عنه الشبهة، فإن تمادىٰ بعد ذلك علىٰ إنكاره، حُكم بكفره[4].

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٧٤٧.

(٢) الترمذي حديث رقم ٢١٨٠، وقال: حسن صحيح.

(٣) البخاري حديث رقم ٤٨٦٠.

(٤) انظر المغني ٨/ ١٣٢.

٤- عدم التأويل، فلو كان القائل لما يستوجب الكفر متأوّلًا طالبًا للحق، مجتهدًا في الوصول إلىٰ الصواب، غير متبع للهوىٰ، فلا يحكم علىٰ قوله بالكفر، لقول النبي ﷺ: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»(١)، وقد رُوي أن قدامة بن مظعون، ومعه جماعة شربوا الخمر مستحلين لها، متأولين قول الله -تعالىٰ-: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]، فأقيم عليهم الحد، وعُرِّفوا تحريمها، فتابوا ولم يكفَّروا بذلك.

٥- ألا يكون مغلوبًا علىٰ عقله، لقول النبي ﷺ: «**رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّىٰ يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّىٰ يَشِبَّ**»(٢).

٦- قيام الحجة عليه، فلا يحكم علىٰ أحد بكفر إلا بعد قيام الحجة عليه واستتابته، لقول الله -تعالىٰ-: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقيام الحجة أن يبيَّن للمتكلم أن قوله يستوجب الكفر من جهة كذا وكذا، ويُطلبَ منه التوبة والرجوع عن قوله، فلعله يرجع عنه، فإن رجع عنه فلا يُحكم بكفره؛ لأن رجوعه يُعدّ توبة، أو لعله يكون متأوّلًا فيبيّن مستنده، والمتأوّل أيضًا لا يحكم عليه بكفر؛ لأنه مجتهد، والمجتهد مأجور أخطأ أو أصاب.

ما يترتب علىٰ الرِّدّة:

ومن وقع منه شيء من الأمور المتقدمة، التي تسلُب الإيمان، وتستَوْجب الرِّدّة، فإنه يفرَّق بينه وبين زوجه، ويطلبه القاضي للتوبة، فإن لم يتب أقام عليه حد الردة وهو القتل، لما جاء في الصحيح، قال ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»(٣).

---

(١) البخاري حديث رقم ٧٣٥٢.

(٢) الترمذي حديث رقم ١٤٢٣.

(٣) مسلم حديث رقم ١٦٧٦.

وفي الصحيح قال ﷺ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فاقْتُلُوهُ**»[1]، ولا يُدفن في مقابر المسلمين، ولا توارث بينه وبين قرابته المسلمين، كذلك لا يرثه قرابته من الكفار، وماله فيء لبيت المال؛ لأنه بردته صار كالحربي، دمه وماله حلال[2].

والردة تحبط الأعمال، وصاحبها كافر، يُخلَّد في النار، قال -تعالىٰ-: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

العذر بالجهل:

يرىٰ القرافي أن الجاهل يُعذر بجهله في الفروع والأحكام العملية، ولا يعذر بجهله في الاعتقاد والمسائل العلمية[3].

وما قاله القرافي من عدم العذر في الاعتقاد والمسائل العلمية غيرُ مسلَّم علىٰ إطلاقه عند العلماء؛ لأنه من التكليف بما لا يطاق، ومن التكليف بالحرج الذي رفعه الله عن هذه الأمة. ويدل علىٰ ردّه ما جاء في الصحيحين في الرجل الذي قال لبنيه: «إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحرقُونِي، ثُمَّ اسحقوني ثم اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ، فَوَ اللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَ بِهِ أَحَدًا، قَالَ: فَفَعَلُوا ذَٰلِكَ بِهِ، فَقَالَ لِلْأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ، أَوْ قَالَ: مَخَافَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ بِذَٰلِكَ»[4].

فالرجل شكَّ في قدرة الله، واعتقد أن الله -تعالىٰ- لا يقدر علىٰ إعادته إذا ذُرّي، وشكَّ في المعاد، وهذا كفر لا شك فيه، لكنه كان جاهلًا باعتقاده المصحوب بالخوف من الله، فغفر له.

وقد قالت الجارية بين يدي رسول الله ﷺ: «**وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَالَ**

---

(١) البخاري مع فتح الباري حديث رقم ٣٠١٧.

(٢) انظر الشرح الكبير ٤/٥٠٥.

(٣) الفروق ٢/ ١٥٠.

(٤) البخاري حديث رقم ٣٢١٩، ومسلم حديث رقم ٤٩٥٠، واللفظ لمسلم.

النَّبِيُّ ﷺ: **لا تَقُولِي هَكَذا وقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**»[1]، فنهاها عن قولها وعلّمها، ولم يكفِّرها، وعذَرها بالجهل. وذَكر رجل للنبي ﷺ ما اعتاده الناس من قولهم: ما شاء الله وشاء محمد، فما كفّره بل عذره بالجهل، وعلّمه أن يقول: ما شاء الله ثم ما شاء محمد[2].

وفي الصحيح: «أَنَّ رَجُلًا أَهْدَىٰ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رَاوِيَةَ خَمْرٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَهَا؟** قَالَ: لَا، فَسَارَّ إِنْسَانًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **بِمَ سَارَرْتَهُ؟** فَقَالَ: أَمَرْتُهُ بِبَيْعِهَا، فَقَالَ: **إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا**، قَالَ: فَفَتَحَ الْمَزَادَةَ حَتَّىٰ ذَهَبَ مَا فِيهَا»[3].

قال ابن عبد البر: في الحديث دليل علىٰ أن الإثم مرفوع عمّن لم يعلم، ومن أمكنه التعلُّم ولم يتعلم أثم[4].

وقال يونس بن عبد الأعلىٰ: سمعت الشافعي يقول: «لله -تعالىٰ- أسماء وصفات لا يسع أحدًا قامت عليه الحجةُ ردُّها، فإن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر، فأما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل، ولا بالروية والفكر»[5]. وفي مجموع الفتاوىٰ: «فمن شرط الإيمان وجود العلم التام، ولهذا كان الصواب أن الجهل ببعض أسماء الله وصفاته لا يكون صاحبه كافرًا إذا كان مقرًّا بما جاء به الرسول ﷺ»[6]. وفي موضع آخر يقول عمن أنكر علم الله بكل شيء، وقدرته علىٰ كل شيء: «إن هذا القول كفر، ولكن تكفير قائله لا يحكم به حتىٰ يكون قائله قد بلغه من العلم ما تقوم عليه به الحجة التي يكفر تاركها». ثم يقول: «علىٰ ذلك اتفاق سلف الأمة وأئمتها ومشايخها»[7]. ويقول: «وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل

---

(١) البخاري حديث رقم ٣٧٠٠.

(٢) سنن ابن ماجة، حديث رقم ٢١١٨.

(٣) مسلم حديث رقم ١٥٧٩.

(٤) التمهيد ٤/ ١٥٤.

(٥) مختصر العلو للذهبي ص ١٧٧.

(٦) مجموع الفتاوي ٧/ ٥٣٨.

(٧) مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٤١٣.

العملية»[1]، وذكر الذهبي قول ابن خزيمة: «من لم يُقرّ بأن الله علىٰ عرشه قد استوىٰ فوق سبع سماوات، فهو كافر حلال الدم، وكان ماله فيئًا» ثم علق عليه بقوله: «من أقرّ بذلك تصديقًا لكتاب الله، ولأحاديث رسول الله ﷺ، وآمن به مفوّضًا معناه إلىٰ الله ورسوله، ولم يخض في التأويل، ولا عمّق فهو المسلم المتبّع، ومن أنكر ذلك، فلم يدْرِ بثبوت ذلك في الكتاب والسنة فهو مقصّر، إذ لم يوجب الله علىٰ كل مسلم حفظَ ما ورد في ذلك، ومن أنكر ذلك بعد العلم وقفًا غير سبيل السلف الصالح، وتمعقل علىٰ النص، فأَمْرُه إلىٰ الله، ونعوذ بالله من الضلال والهوىٰ» ثم قال: «وقد تأوّل ابن خزيمة حديث الصورة، فليَعْذِر من تأول بعض الصفات»[2].

مصير المؤمنين ومصير الكافرين:

قال -تعالىٰ-: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ **[النازعات: ٣٧-٤٠]**، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ **[النساء: ٤٨]**، وقد أجمع المسلمون علىٰ دخول المشركين النار وعلىٰ خلودهم فيها، لا يخرجون منها أبدًا ولا يموتون. فقد حكىٰ الله عنهم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ **[المومنون: ١٠٧]**، فيرد الله عليهم بقوله ﷻ: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ **[المومنون: ١٠٨]**، وقال -تعالىٰ-: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ **[الزخرف: ٧٥]**، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ٣/٢٣٩.

(٢) وهو ما خرجه البخاري وغيره: (خلق الله آدم علىٰ صورته طوله ستون ذراعًا...)، وخرج مسلم من حديث أبي هريرة: (إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم علىٰ صورته)، رقم ٢٦١٢، قال ابن خزيمة بعد أن أورد الأحاديث: توهم بعض من لم يتحر العلم أن قوله: «علىٰ صورته» يريد صورة الرحمن، عز ربنا وجل علىٰ أن يكون هذا معنىٰ الخبر، بل معنىٰ قوله خلق آدم علىٰ صورته، الهاء في هذا الموضع كناية عن اسم المضروب والمشتوم، أراد ﷺ أن الله خلق آدم علىٰ صورة هذا المضروب الذي أمر الضارب باجتناب وجهه. قال الحافظ في الفتح: «وَاخْتُلِفَ إِلَىٰ مَاذَا يَعُود الضَّمِير؟، فَقِيلَ إِلَىٰ آدَم: أَيْ خَلَقَهُ عَلَىٰ صُورَته الَّتِي اِسْتَمَرَّ عَلَيْهَا إِلَىٰ أَنْ أُهْبِطَ وَإِلَىٰ أَنْ مَاتَ، ... وَقِيلَ الضَّمِير لِلَّهِ، وَتَمَسَّكَ قَائِل ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي بَعْض طُرُقه (عَلَىٰ صُورَة الرَّحْمَن) وَالْمُرَاد بِالصُّورَةِ الصِّفَة، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّ اللَّه خَلَقَهُ عَلَىٰ صِفَته مِنْ الْعِلْم وَالْحَيَاة وَالسَّمْع وَالْبَصَر وَغَيْر ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ صِفَات اللَّه -تَعَالَىٰ- لَا يُشْبِههَا شَيْء، انظر فتح الباري شرح حديث رقم ٦٢٢٧، وسير أعلام النبلاء مع حاشية المحقق ١٤/٣٧٥.

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

وهذا عام في كل كافر، لا فرق بين اليهودي والنصراني، والوثني والمنافق في العقيدة -الزنديق- والمجوسي والملحد والشيوعي والهندوسي، ولا فرق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين الكافر أصلًا، والمرتد عن الإسلام، بأن حُكِم بكفره بعد اعتناقه الإسلام؛ لارتكابه ما يوجب الرِّدة والإشراكَ بالله -تعالىٰ-، فإن مصير جميع الكفار واحد، والكفر كله ملة واحدة، لكن بعض عذاب جهنم أشد من بعض، وأكثر هوانًا ونكالًا، كما قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]، وقال ﷺ في عمه أبي طالب: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ»[1].

وأجمع المسلمون كذلك علىٰ أن مصير المؤمنين الذين ختم الله لهم بالتوحيد الجنةُ، وأنهم خالدون فيها لا يُخرجون منها ولا يموتون. قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وقال ﷻ: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقال ﷺ في الحديث الذي فيه ذبح الموت: «... **فينادي منادٍ يا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ...**»[2].

لكن إن كان مَن مات علىٰ التوحيد لم يمت مُصرًّا علىٰ كبيرة من الذنوب دخل الجنة أوّلا، عند دخول المؤمنين الذين كمُل إيمانهم بأعمالهم الصالحة، وإن مات علىٰ كبيرة لم يقبل الله -تعالىٰ- توبته منها، فهو تحت المشيئة، فإن عفا الله ﷻ عنه دخل الجنة أوّلا مع المطيعين، وإلا عُذّب علىٰ قدر ذنوبه، ثم أُخرج من النار، وخلّد في الجنة[3].

ويدل علىٰ أن أهل الكبائر من الموحّدين يدخلون الجنة وإن جرت لهم قبل ذلك

---

(١) مسلم حديث رقم ٢١٠.

(٢) البخاري حديث رقم ٤٧٣٠.

(٣) شرح النووي علىٰ مسلم ١/ ٩٧.

أنواع من العذاب والمِحن ما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ من حديث أبي ذر، قال: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ** عليه السلام، **فَقَالَ: مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ، لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ**»[1].

(١) البخاري حديث رقم ٢٣٨٨، العذر بالجهل مجموع الفتاوىٰ ٤٠٧/١١.

وجود الله

وجود الشيء لا يتوقف علىٰ إدراكه:

وجود الأشياء لا يتوقف علىٰ إدراك العقل إياها وتصوّرها، هذه قضية لوضوحها لم تَعُد محل خلاف بين الناس. فالروح والعقل موجودان في الإنسان، ولكن العقل لا يعرف عنهما شيئًا. فلو سألت العاقل: أين عقلك؟ أو أين روحك؟ ما قدر أن يجيب، ولو قيل لآخر قبل مائة سنة: إنه لو وضعنا ورقة مكتوبة في آلة صغيرة، وضغطنا علىٰ أزرارها، فإن صورةً طبق الأصل لتلك الكتابة تخرج في التوّ والحين مكتوبة في متناول من أرسلت إليه في اليابان أو في غيرها من أقطار الدنيا، لو أخبر الإنسان بذلك قبل مائة سنة، وعرض ذلك الخبر علىٰ عقله، لأجاب العقل بأن ذلك مستحيل، ولا يمكن حصوله. فعقل الإنسان محدود بقانون الزمان والمكان، فإذا خرج عن هذا القانون خبط في أحكامه وضل.

وأمور الغيب كلها خارجة عن هذا القانون، وخارجة عن موازين الحواس وقياساتها. فإن الفكر في الشيء مسبوق بتصوره، وتصور ما في الغيب علىٰ وجه صحيح غير ممكن، والواجب علىٰ المسلم إذا وردت علىٰ نفسه خواطر عن أمر من أمور الغيب كذات الباري ﷻ وصفاته، أو عن أمر آخر لم يرد في الوحي ما يوضّحه، فليدفع هذه الخواطر بما علّم النبي ﷺ به أصحابه، فقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة قال: «جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»[1]، وعنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: **«لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّىٰ يُقَالَ هَذَا:**

(١) مسلم حديث رقم ١٣٢.

خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ»[1]. وفي رواية: «**إذا وجدت شيئًا من ذلك، فقل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم**»[2].

ومعنىٰ «**إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ**» أي نجد الشيء القبيح، نحو: من خلق الله؟ وكيف هو؟ ومن أي شيء هو؟ ونحو ذلك مما يعظم علىٰ النفس النطقُ به، فما حكم جريان ذلك علىٰ خواطرنا؟. ومعنىٰ «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»: أنَّ تحرُّجكم من ذلكَ وردَّكم لما يلقيه الشيطان في نفوسكم وكراهيتكم لذلك هو صريح الإيمان.

وفي المثل الذي ضربه الله ﷻ لنفسه في قوله -تعالىٰ-: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، لَفْت إعجازي للعقول بأنه -سبحانه- لا يُدرك، ولا يراه أحد بعينيه في الدنيا يقظة، فقد أعطىٰ العلم الحديث بُعدًا جديدًا لمدلول الآية الكريمة، فالعلم يقول: إن النور لا يُرىٰ في ذاته، وإنما يُرىٰ بواسطة الأشياء إذا انعكس عليها، أو تخللّته، كأن ينعكس علىٰ حائط، أو يتخلله غبار أو ماء.

لذا فإن الإنسان كلما صعِد في الفضاء، وابتعد عن الأجرام والمواد، وانعدم ما يتخلل الهواء من الأجسام، أطبقت عليه الظُّلمة، مع أنه نسبيًا يكون أقرب إلىٰ الشمس مصدر النور.

بعد معرفة هذه الحقيقة كان الواجب أن يزداد العقل إيمانًا بالله واستيقانًا بقدرته، وتسليمًا بأمر الغيب الذي جاء به الوحي من عنده، فكما أن النور الذي ضرب الله به المثل لنفسه -سبحانه- لا يرىٰ في ذاته، وإنما فيما ينعكس عليه، فكذلك الأمر إليه -سبحانه-، لا يُرىٰ في الدنيا في ذاته يقظة، وإنما في عجائب مصنوعاته.

الدليل علىٰ وجود الله -تعالىٰ-:

يدل علىٰ وجود الله -تعالىٰ- الفطرة السليمة، والعقل الصحيح، وفيما يلي بيان ذلك:

---

(١) مسلم حديث رقم ١٣٤.

(٢) مسلم ١/ ١١٩.

١- نداء الفطرة:

الإيمان بوجود الله -تعالىٰ- أمر فِطري لا يحتاج من الإنسان إلىٰ جهد وعناء لكي يثبته؛ لأنه يشعر به في إحساسه، ويرتكز في فِطرته، يستوي في ذلك العالم والجاهل، والمؤمن والكافر. إلا أن الإحساس الفطري قد يحجبه الغرور بسبب ما أوتيَه الإنسان من علم أو جاه، أو سلطان، أو مال، أو نعمة بين يديه، أو تحجبه العصبية أو الأنانية والكبرياء، أو تضلِّله الشهوات والأهواء، أو تقليد الآباء والأجداد، فيخفُت نداء الفطرة في النفس وسط إقبال الدنيا وفتنتها، بما فيها من جاه ومال وسلطان وملذّات، أو بسبب عمىٰ القلب باتباع الأهواء، فيرتفع في النفس وسط هذه الفتن والابتلاءات صوت العناد والإلحاد والاعتراض، فإذا ما أحسّ الإنسان فجأة بزوال ذلك كله وعاين الخطر، استيقظت فيه الفطرة الإيمانية، وانقشع ما ران عليها من عوامل الزّيف والتّضليل؛ فيجد نفسه -دون إرادة منه- ينادي ربه ويلجأ إليه، ويطلب النجاة مستغيثًا به، وليس ذلك إلا فطرَة الإيمان بالله -تعالىٰ- المغروزة فيه. وهذا ما أخبر به القرآن عن حال الملحدين وعلىٰ رأسهم فرعون، فقد تمادىٰ بفرعون العناد حتىٰ قال كما أخبر عنه الباري ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وعندما أطبق عليه البحر وتيقّن الهلاك، رجع إلىٰ النداء الأول الذي استقر في نفسه، بمقتضىٰ فطرته: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

فلو أن فرعون يعتقد أنه كان علىٰ حق في إلحاده، ما تنصّل منه وقت أن تيقّن الهلاك، فإنه أحوج ما يكون إليه في ذلك الوقت أن لو كان حقًا، ولكنه كان يعرف أنه زيْف وبهتان، ولذلك رجع إلىٰ نداء الفطرة، وهو الاستغاثة بالله الواجب الوجود.

وقد أخبر الله -تعالىٰ- في أكثرَ من موضع أن الناس إذا مسّهم الضر دعوا الله مخلصين له الدين، قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [يونس: ٩٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢]. فالمضطر يرجع إلىٰ فطرته ينادي ربه، والغافل البطر ينسىٰ ربه وقت النعمة، ويعرض عنه، ولذلك فإن كلمة (يا رب) نجدها تتردد عند الشدة والحيرة علىٰ شفاه الناس جميعًا، المؤمن وغير المؤمن.

والاعتراف بخالق الكون مُسلَّم به حتىٰ عند المشركين، فقد أخبر الله -تعالىٰ- عن الكافرين بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فَهُم في قَرارة أنفسهم يعرفون الخالق؛ لأن فطرتهم تدلُّهم عليه، إذ إن العاقل يستدل بطبعه السليم بالصنعة علىٰ وجود الصانع، وبالحكمة علىٰ وجود الحكيم، وبأثر العلم علىٰ وجود العليم. وهذا الإحساس الفِطري المغروز في الطبع في الاعتراف بوجود الخالق، هو الذي تكلم به الأعرابي علىٰ سجيّته في أسلوب عفوي عندما قال: البعرة تدل علىٰ البعير والأثر يدل علىٰ المسير.

٢- نداء العقل:

عِلاوة علىٰ نداء الفطرة الذي يجده كل إنسان في نفسه يدعوه إلىٰ الإيمان بوجود الله -تعالىٰ-، هناك وسائل مَنحها الله -تعالىٰ- للناس ليعرفوه بها، فأعطاهم العقل والسمع والبصر، وأمرهم بالاستدلال والنظر، والأخذ بأسباب العلم، ثم أوجد لهم الدلائل، لو نظروا فيها، واستعملوا عقولهم، دلَّتهم علىٰ وجود الله -تعالىٰ- والاعتراف به، قال -تعالىٰ-: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٣٥].

وليس أقوىٰ في التدليل علىٰ وجود الخالق ﷻ من الدليل العقلي، فبالمقدمات العقلية الصحيحة عُرفت صحة الإيمان، وحقيقة التوحيد؛ لأن بالعقل يستحيل وجود أثر من غير مؤثِّر، ووجود مسبَّب من غير سبب، فإنه من مسلمات العقول بداهة أنه لا توجد صنعة من غير صانع، ولا علم من غير عالم، ولا حكمة من غير حكيم، ولا قدرة من غير قادر. وقد أكد القرآن صحة المقدمات العقلية هذه، حين طلب الاستدلال بالأمم السالفة، ومن ساروا في الأرض وآثارِهم، وبالدليل العقلي عرَف الإنسان المعجزة، وميّزها عن الشعوذة، وحكم بصدق النبوة، وشهِد بأن القرآن حق، وشريعةَ الإسلام صدق.

فإن العقل هو الذي شهد بصدق الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-، وصدق ما جاءوا به من التوحيد والإيمان بالله -تعالىٰ- حين رأىٰ من معجزاتهم الباهرة، التي

أيدهم الله -تعالىٰ- بها، وأظهرها علىٰ أيديهم، كمعجزة موسىٰ -عليه الصلاة والسلام- بانقلاب العصا حية تسعىٰ، ومعجزة عيسىٰ -عليه الصلاة والسلام- بإحياء الموتىٰ، ومعجزات سيدنا محمد ﷺ، وأعظمها، معجزة القرآن في نظمه ومعناه، الذي تحدىٰ الله -تعالىٰ- به الإنس والجن كافة أن يأتوا بمثله فعجزوا، ومعجزة الإسراء والمعراج، ومعجزة انشقاق القمر إلىٰ نصفين، ورؤية الناس إياه كذلك، فهذه المعجزات برهان عقلي علىٰ صدق الرسول، وصدق ما أتىٰ به، بأنه من عند الله -تعالىٰ-؛ لأن تأييد الله -تعالىٰ- لرسوله بالمعجزات حين يطلبها الناس منه، هو شهادة من الله -تعالىٰ- علىٰ أن الرسول صادق في كل ما يبلِّغ عن الله ﷻ، فالمعجزات وإن كانت صامتة، فإن العقل جعلها ناطقة، فهي بيِّنات كما سماها القرآن، من حيث إنها تبيِّن صدق الرسل، قال -تعالىٰ-: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥].

المصنوعات تدل علىٰ صانعها:

فالعاقل حين يشاهد نفسه، ويشاهد هذه المخلوقات العظيمة من أرض وسماء، وشمس وقمر، ونجوم وجبال، وبحار وحيوان، ونبات وكواكب، كلها تسير بحكمة بالغة في غاية الإتقان والنظام -لا يستطيع أن يصدق أنها خلقت من غير خالق، وأنها وجدت من لا شيء، من عدم محض، فإن ذلك ضرب من المستحيل؛ لأن السلب والعدم يستحيل أن يَنتج عنه خلق وإيجاد، وذلك بالمشاهدة والعيان، فإن الميت لا يقدر علىٰ فعل شيء، قال -تعالىٰ-: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

ولا يستطيع العقل كذلك أن يصدِّق أن الطبيعة هي التي أوجدت الكائنات؛ لأن الطبيعة صماء بكماء، لا توصف بالعلم ولا بالحكمة ولا تدبير الأمور، وهذه المخلوقات دلَّت بصنعتها وإتقانها، وما يشاهد فيها من حكمة وخبرة، علىٰ أن صانعها حكيم خبير عليم، واسع العلم بما كان وما يكون.

الصدفة في خلق الكون لا يقبلها العقل:

لا يستطيع العقل كذلك أن يصدِّق أن هذا الكون بما فيه، أوجَدَتْه المصادفة والاتفاق؛ لأن عمر الدنيا من أولها إلىٰ آخرها لا يتسع لينتج بالمصادفة عملية واحدة

معقَّدة لتركيب خلية واحدة في جسم الإنسان، فكيف بملايين الخلايا في مئات الآلاف من أنواع الحيوان والنبات، وكيف بتركيب وظائف أعضاء الإنسان المعقَّدة، كالمخ والكُلية والسمع والبصر، وجهاز التَّنفس والهضم، وكيف بباقي مخلوقات الله الأخرىٰ التي لا تُحصىٰ، ومنها ما هو في العظمة ما لا يُعدّ الإنسان بالنسبة إليه شيئًا، قال -تعالىٰ-: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

ولتوضيح استحالة دور المصادفة في خلق هذا الكون، نأخذ مثالًا لأصغر مكوِّنات الحياة في النبات والحيوان، وهو الخلية، لنرىٰ هل لاحتمال المصادفة دور في إيجادها.

إن إمكانية حدوث المصادفة لِتَكوين الأشياء السهلة غير المعقَّدة أمر في غاية البعد، فكيف بالأشياء عندما تكون أكثر تعقيدًا، فمثلًا لو وَضع الإنسان عشر بطاقات مرقمة من (١) إلىٰ (١٠) في صندوق مُقفل، وحرَّكها حتىٰ اختلَّ ترتيبها، ثم حاول أن يخرجها مرتَّبة من الواحد إلىٰ العشرة، دون أن يراها، فإن إمكانية المصادفة لإنجاح ذلك تحتاج إلىٰ ألف مليون محاولة، ولو كان المطلوب ترتيبه عن طريق المصادفة هو مائة بطاقة من هذا النوع، فإن الإنسان يحتاج إلىٰ عدد من المحاولات مقدراه ضرب الرقم ألف مليون في نفسه عشر مرات، وهو رقم يتعذر وصفه أو النطق به.

لِنَقِس بعد ذلك إمكان خلق الخليَّة التي لا يمكن أن تُرىٰ إلا بالمجهر، لا بل الأجدر أن نقيس جزءًا من الخلية، وهو الجزء البروتيني منها، والجزء البروتيني ذرّة من أجزاء الخلية، لا يمكن رؤيته حتىٰ بالمنظار، ويتكون من خمسة عناصر كيماوية هي: الكربون، والهيدروجين، والنتروجين، والأكسجين، والكبريت. والجزء البروتيني الواحد الذي لا يُرىٰ حتىٰ بالمجهر يشتمل علىٰ أربعين ألفًا من ذرات هذه العناصر الخمسة، ويتكون الجزء البروتيني هذا من سلاسل من الأحماض الأمينية ACIDS AMION، هذه السلاسل مرتَّبة بطريقة عجيبة، بحيث لو اختلَّ ترتيبها ووضع شيء منها في غير موضعه، لفتكت بالإنسان وقضت عليه، بدل أن تكون سببًا في نموّه وحياته.

وقد قام العالم السويسري (تشارلز يوجين جوابي) بحساب المدّة التي يُحتاج إليها لتكوين جزيء بروتيني عن طريق الصدفة، فانتهىٰ إلىٰ أن احتمال الوصول إلىٰ ذلك يحتاج إلىٰ مقدار من المادة يزيد حجمه بليون مرة علىٰ المادة الموجودة الآن في الكون، حسب علم الإنسان، ويحتاج إلىٰ محاولات متواصلة لتحريك المواد وضخِّها زمنًا يتكون من رقم (١) أمامه مائتان وأربعة وأربعون صفرًا من السنين، وهو رقم خيالي لا يتصور[١].

والوصول إلىٰ تكوين جزيء بروتيني مع ما في الحصول عليه بطريق الصدفة من استحالة كما تقدم -بعد ذلك ليس هو كلَّ القصة، فإن القصة تكمن في الحياة، فيمن يجعل هذه الخليَّةَ حية، وهو السِّر الذي استأثر به الخالق ﷻ!

(١) انظر الإسلام يتحدىٰ ص ١٥١ وما بعدها، والعلم يدعو للإيمان ص ١٩٣.

التوحيد

وحدة النِّظام تدلّ علىٰ وحدانية الخالق:

وحدانية الله -تعالىٰ- تتجلىٰ لكل ذي عقل في وحدة النظام الذي أبدع الله -تعالىٰ- عليه هذا الكون، وجعله يسير عليه، لا يختلّ، ولا يتبدّل، فالعاقل يستدل بمشاهدة وحدة النظام الذي أبدعه الله -تعالىٰ- علىٰ غير مثال سابق في النفس البشرية، وفيما خلق الله -تعالىٰ- في الكون من شمس وقمر ونجوم وأفلاك. يستدل بذلك علىٰ وحدانية الصانع المبدع، فإن وحدة المصنوع تدل علىٰ وحدة الصناع. فلو كان لله شريك ما استقام هذا الصنع البديع علىٰ هذا النظام الواحد، ولاختلّت المصنوعات وفسد الكون، قال -تعالىٰ-: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، أي السموات والأرض، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣].

معنىٰ توحيد الله:

التوحيد: اعتقاد أن الله ﷻ واحد في ذاته، ليس كمثله شيء، وواحد في صفاته، لا يشبهه أحد من خلقه في صفة من صفاته، متَّصف بكل كمال، منزه عن كل نقصان. قال -تعالىٰ-: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]. والتوحيد، هو العدل، بل هو غاية

العدل، لذا كان أفضل الأعمال على الإطلاق، سئل النبي ﷺ: «**أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ**»[1]. وضدّ التوحيد الشرك، وهو الظلم، بل هو أظلم الظلم وأعظمه، وهو أكبر الذنوب وأقبحها، قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وسئل النبي ﷺ: «**أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عند الله؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلهِ نِدًّا، وَهُوَ خَلَقَكَ**»[2]. وكان التوحيد غاية العدل؛ لأنه قيام بحق المنعم المستحِق أن يعبد لذاته دون سواه، وكان الشرك ظلمًا؛ لأنه جحود ونُكران لمن نعمه في الدنيا والآخرة سابغة، وعطاياه غامرة، وأياديه بالخيرات على العباد مبسوطة سانحة، وأعظم هذه النعم في الدنيا دين الإسلام، وأعظمها في الآخرة دخول الجنة للموحدين، وما لهم فيها من النعيم المقيم.

وعبادة الله -تعالىٰ- أساسها التوحيد، وكل عبادة لا تقوم على توحيد الله هي شرك وضلال، ولذلك كان النطق بكلمة التوحيد أولَ ركائز الإيمان، وبابَ مدخل الإسلام، قال ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْس: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**»[3].

والتوحيد لا يقبله الله ﷻ من العباد إلا كاملًا غيرَ منقوص، فمن أخلط توحيده بشرك، واعتقاد فاسد لم يقبل منه. وأي خلل في دعائم التوحيد يقوّض بنيانه، فإنه -تعالىٰ- أغنى الأغنياء عن الشرك، والشرك يُحبط العمل كلَّه، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

معنىٰ لا إله إلا الله:

معنىٰ الشهادة لله بالوحدانية: أنه لا معبود بحق في الوجود إلا الله -تعالىٰ-، فلا يُقصد ولا يُستعان إلا به، ولا يُتوجه إلا إليه، ولا يُدعىٰ غيره، ولا يُرجىٰ سواه ولا يُتوكل إلا عليه، قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧]. فمن صدَق في قول لا إله إلا الله، كان عمله كلُّه لله، فلا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا في الله، ولا يُوالي ولا يُعادي إلا في الله. أما

(١) مسند أحمد حديث رقم ١٦٥٧٩.

(٢) البخاري حديث رقم ٤٤٧٧.

(٣) البخاري حديث رقم ٨.

من أحب لهواه، وأبغض لهواه، وعادىٰ ووالىٰ لهواه، مِن طمع في دنيا، أو منزلة أو جاه، فلم يحقِق معنىٰ لا إله إلا الله، وإنما تبع هواه[1].

ومعنىٰ الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة: تصديقُه في كل ما أخبر به، وطاعتُه في كل ما أمر به، وألا يعبدَ الله -تعالىٰ- إلا بما بينَّه وبلغه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

توحيد الألوهية[2]:

شاع استعمال هذا المصطلح في الآونة الأخيرة علىٰ قلة استعماله عند الأقدمين، واستعماله أثار جدلًا بين المعاصرين، وأضاف مادة لأسباب الخلاف، وكثير منه خلاف لفظي، يحمل عليه التعصب، ولا وجود له عند التحقيق، شأنه شأن كثير من مسائل الخلاف في تراثنا الفكري التي غذاها التعصب، ولم يحرر فيها محل النزاع.

وهذا ما دعاني إلىٰ استعمال هذا المصطلح، فلم أستعمله لأنه يضيف جديدًا في أمر التوحيد لم يكن عند أسلافنا الذين لم يستعملوه، وإنما لأُجلي به ما عساه أن يرفع الخلاف الناتج عن عدم إمعان النظر في مدلول هذا اللفظ ومعناه، والوقوف عند التقسيم ومبناه.

فتوحيد الألوهية لا يختلف مَن ذكره من القدامىٰ والمحدثين علىٰ أن معناه تخصيص الله -تعالىٰ- بالعبادة، واستحقاقه إياها دون سواه. وهذا المعنىٰ في التوحيد مما أجمعت عليه الأمة، ونطقت به آيات القرآن، وجاء به دين الإسلام، ولا يختلف عليه من المسلمين اثنان، فبإنكار حق الله -تعالىٰ- وحده في العبادة كفر من كفر من أهل الكتاب والمشركين، فكفر اليهود والنصارىٰ باعتقادهم تعدّدَ المستحق للعبادة، فجعل النصارىٰ الرب مركبًا من ثلاث، وجعل اليهود عزير ابن الله، مع كفرهم جميعًا برسالة محمد ﷺ، وكفَر الوثنيون باعتقادهم عددًا من الآلهة تُعبد وتقرِّب إلىٰ الله، ولذا قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

لذا كان إرسال الرسل قاطبة يقوم علىٰ الدعوة إلىٰ عبادة الله وحده، وخطابات القرآن في التوحيد كلها متوجهة إلىٰ تحقيق ذلك وتحصيله، قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ص ٢٨٨.

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٦، ٨٧.

﴿ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ ٱللَّهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ ٱللَّهِ؟ قُلْتُ: ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ ٱللَّهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»[1].

توحيد الربوبية:

وهذا أيضًا اصطلاح في الاستعمال، ولا مشاحة في الاصطلاح، ومعناه: الاعتقاد بأن الله -تعالىٰ- وحده خالق كل شيء، ومليكه ومدبّره، لا رب سواه لا يُرجىٰ إلا نفعه، ولا يُخشىٰ إلا ضرُّه، فهو الخالق الرازق، الضار النافع المغيث، الذي بيده الأمر كلُّه، ما من حركة ولا سكون في الأرض ولا في السماء إلا بإذنه. وثبوت التوحيد بهذا المعنىٰ لله -تعالىٰ- لا يختلف عليه أهل الإسلام من صرح منهم بهذا التقسيم ومن لم يصرح، وهو توحيد فِطري، قد يقرّ به حتىٰ من لا يعبد الله -تعالىٰ- من اليهود والنصارىٰ والمشركين. فإن المشاهد في الواحد منهم اليوم -إذا عجز عن أمر، واستعمل كل حيلة عنده في تحصيله، كشفاء مريض مثلًا أو دفع ضر، ولم يفلح- أن يفوض الأمر إلىٰ الله، ويتبرأ من حوله وقدرته، ومصداق ذلك من القرآن إخبار الله -تعالىٰ- عن المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وفي آية أخرىٰ: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣]، ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وهذا الاعتقاد بربوبية الله -تعالىٰ-، وهيمنته علىٰ مقاليد السماوات والأرض، لا ينفع صاحبَه إلا إذا انضم إليه اعتقاد أنه المستحق وحده للعبادة، وإفراده بها دون سواه، مع كامل الخضوع والإذعان والتذلل. فإن أشد الناس كفرًا، وهو فرعون الذي قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، كان يقرّ بقدرة الله -تعالىٰ- وتدبيره لأمر السماوات والأرض، كما أخبر الله -تعالىٰ- عنه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ

---

(١) البخاري حديث رقم ٥٩٦٧.

هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله -تعالىٰ- عنه هو وجنوده: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤].

ولا يلزم من الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق، وأنه هو النافع الضار، لا يلزم منه حصول الإيمان الذي لا يصحّ إلا بالاعتراف بأن الله وحده المستحِقّ للعبادة، لكن يلزم من الإذعان لله والخضوع له، وأنه وحده المستحق للعبادة -يلزم منه الإقرارُ بأنه الخالق الرازق، وأنه واحد لا شريك له، فإن الإله الحق المستحِقّ للعبادة لا بدّ أن يكون خالقًا، بارئًا مُوجدًا متّصفًا بكل كمال، وهذا ما جعل كتب العقيدة عند المتقدمين في الغالب لا تتعرض لهذا التقسيم، وتقتصر عند بيان ما يجب اعتقاده، وما يجب الإيمان به علىٰ ذكر توحيد الله وإفراده بالعبادة؛ لأنه مستلزم لتوحيده وإفراده بالخلق والرزق والنفع والضر. وقلَّ منها من يفصل ويذكر التقسيم صراحة، وإن ذكر المضمون، ومن القدامىٰ الذين ذكروا هذا التقسيم ونصوا عليه صراحة القرطبي المفسر، فذكره ونسبه إلىٰ علماء المالكية، قال في (الجامع لأحكام القرآن): «فاعلم أن علمائنا ﷺ قالوا: الشرك علىٰ ثلاثة أضرب، وكله محرم وأصله اعتقاد شريك لله في ألوهيته، وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية، وهو المراد بقوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، ويليه اعتقاد شريك الله -تعالىٰ- في الفعل، وهو قول من قال: «إن موجودًا غير الله -تعالىٰ- يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يتعقد كونه إلهًا»[1]. وفصل هذا التفصيل أيضًا الشنقيطي في (أضواء البيان) فقال: «دل استقراء القرآن العظيم علىٰ أن توحيد الله ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: الأول توحيده في ربوبيته ... الثاني توحيده -جلا وعلا- في عبادته ... النوع الثالث توحيده -جل وعلا- في أسمائه وصفاته ...»[2].

وقد وردت إشارات إلىٰ هذا التقسيم عند غير من ذكر.

ولما كان توحيد الله بالعبادة وإفراده بها مستلزمًا لإفراده بأنه الرب الخالق القادر المدبّر؛ كان الطلب في آيات القرآن منصبًّا علىٰ الأمر بالعبادة وإفراده بها، فهو المقصود الأول من خلق الخلق وبعثةِ الرسل، قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ

---

(١) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ٥/ ١٨١.

(٢) أضواء البيان ٣/ ١٧.

إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وكثيرًا ما يذكر القرآن توحيد الربوبية برهانًا علىٰ استحقاقه -سبحانه- للعبادة، تنبيهًا للغافلين، وحجة علىٰ المعاندين، قال -تعالىٰ-: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢] أي المستحِقّ وحده للعبادة.

وحدة الذات ووحدة الصفات:

يجب الإيمان بأن الله -تعالىٰ- واحد في ذاته، بمعنىٰ أنه لا شريك له، وأنه لا مثيل له ولا شبيه، قال الله -تعالىٰ-: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، ، وقال -تعالىٰ-: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ويجب الإيمان كذلك بأن الله -تعالىٰ- واحد منفرد في صفاته، ومعنىٰ وحدة الصفات: أن الله -تعالىٰ- لا يشبهه أحد من خلقه في صفة من صفاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] -جل وعلا-، متصف بكل صفات الكمال، ومنزه عن كل صفات النقصان، وكلُّ ما خطر ببالك فالله ﷻ بخلاف ذلك، وما أطلقه الشرع في نصوص القرآن والسنة علىٰ الخالق والمخلوق من الصفات، فلا تشابه بينها البتة. فلا تشابه مثلًا بين صفة العلم والحياة، والسمع والبصر، التي يتّصف بها الله -تعالىٰ- ويتّصف بها المخلوق، فعلم المخلوق متجدِّد حادث، محدود بالزمان والمكان، مسبوق بجهل، ويتَّصف بالنقص والعجز، وعلم الله -تعالىٰ- كامل، شامل للكليات والجزئيات، أزلي، لا يحدّه زمان ولا مكان، تنكشف به جميع الأشياء في وقت واحد انكشافًا كاملًا، لا يسبقه جهل، ولا يلحقه نقص، لا يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يعلم الخواطر، وخفيَّات السرائر والنوايا والضمائر، ويعلم السِّرّ وأخفىٰ، قال -تعالىٰ-: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا

﴿حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فالتوافق بين علم الله وعلم المخلوقين إنما هو في اللفظ فقط، وهكذا في سائر الصفات.

وصفات الله -تعالىٰ- علىٰ نوعين: صفات الذات، وصفات الفعل. فصفات الذات، كوصفه -سبحانه- أنه إله، عزيز، مجيد، جليل، عظيم، غني، حميد، ملك، جبار، متكبِّر، سميع، بصير، إلىٰ آخر أسمائه الحسنىٰ.

وصفات الفعل ثابتة لله -تعالىٰ- لذاته أزلًا بصفة القدرة، التي يفعل بها ما يشاء ويختار[1]، كالإحياء والإماتة والخلْق والرزق.

أ- صفة الذات:

وهي صفات أزلية، يستحقُّها الباري -سبحانه- لذاته، واجبة له، لم يزل ولا يزال متَّصفًا بها. وأسماء الله الحسنىٰ تشتمل علىٰ هذه الصفات، فيتَّصف -تعالىٰ- بالحياة والسمع والبصر، والقدرة، والإرادة، والعلم والبقاء، والوحدانية، والقيومية، والغنىٰ، والعظمة، والكبرياء، والعزة، والجبروت، والجلال، إلىٰ آخر الأسماء الحسنىٰ. فالعليم معناه أنه متَّصف بالعلم، والسميع معناه أنه متَّصف بالسمع، وهكذا في باقي الأسماء، فهي أسماء وصفات في آن واحد، سماها القرآن أسماء، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعرف: ١٨٠]، وسماها النبي ﷺ بذلك، فقال كما ثبت عنه في الصحيح: «**إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[2].

ومن صفات الذات ما ثبت وجوبه لله -تعالىٰ- بالنقل والعقل، كالصفات المتقدِّمة من القدرة والإرادة، والسمع والبصر، ومنها ما ثبت وجوبه لله -تعالىٰ- بالنقل والخبر، دون العقل، وهي:

الصفات الخبرية:

والمراد بالصفات الخبرية ما ورد مضافًا إلىٰ الله -تعالىٰ- في الكتاب أو السنة من الوجه، واليد، والقدم، ونحو ذلك. وسُميت صفاتٍ خبرية لثبوتها بالخبر والسمع،

---

(١) انظر الأسماء والصفات ص ١٧٦، وفتح الباري ١٧/ ١٥٣.

(٢) البخاري حديث رقم ٢٧٣٦.

لا بالعقل، وهي صفات أزلية، واجبة لله -تعالىٰ-، لم يزل ولا يزال متَّصفًا بها، قال -تعالىٰ-: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ في صفة جهنم -أعاذنا الله منها-: **«لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّىٰ يَضَعَ فيها رَبُّ الْعِزَّةِ -تبارك وتعالىٰ- قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ وَعِزَّتِكَ، وَيُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ»**[1]، وفي الصحيح: **«إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»**[2].

وقد سمىٰ المتأخرون ما ذكر بالصفات الخبرية ولم يَرِد له عمَّن قبلهم من الصحابة والتابعين والمتقدمين تسمية، بل كانوا يُثبتون لله -تعالىٰ- ما أثبته لنفسه منها، دون أن يقولوا عنها إنه صفات[3].

فيجب الاعتقاد بأن الله -تعالىٰ- متّصف بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسول الله ﷺ، من الوجه واليد والقدم وغيره مما ورد به النص، علىٰ الوجه الذي أراده الله -تعالىٰ- دون تأويل ولا تكييف، ولا توصيف، وهو معنىٰ قول أهل العلم من السلف المتقدمين، «أمِرّوها كما جاءت»، مع الجزم بنفي المماثلة والمشابهة، وأن صفات الله -تعالىٰ- ليست جوارحَ كصفات المخلوقين.

وذلك لأن الكلام عن الصفات فرع الكلام عن الذات، وذات الله لا تُدرك، فكذلك صفاته، إثباتها إثبات وجود لا إثبات كيفيّة. قال أبو عمر بن عبد البر: «أهل السنُّة مجمِعون علىٰ الإقرار بالصفات الواردة كلِّها في القرآن والسنة والإيمان بها، وحملها علىٰ الحقيقة لا علىٰ المجاز، إلا أنهم لا يكيِّفون شيئًا من ذلك، ولا يحدّون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها، والخوارج فكلهم ينكرها، ولا يحمل شيئًا منها علىٰ الحقيقة، ويزعمون أن من أقرّ بها مشبّه... والحق

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٨٤٨.

(٢) سنن الترمذي حديث رقم ٢١٤٠.

(٣) انظر الإبانة للأشعري ص ٤٠.

فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسنّة رسوله، وهم أئمة الجماعة، والحمد لله»[1].

وروىٰ ابن عبد البر عن الوليد بن مسلم، قال: سألت الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والليث بن سعد، عن هذه الأحاديث التي جاءت في الصفات، فقالوا: أمِرّوها كما جاءت بلا كيف[2].

ب- صفات الفعل:

وهي صفات أزلية، واجبة لله -تعالىٰ- لذاته، متعلّقة بإرادته وقدرته، يفعل منها ما يشاء ويختار، كالخلق والإحياء والإماتة، والرزق، والعفو، والرحمة، والعقوبة، قال -تعالىٰ-: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ومن هذه الصفات ما ثبت وجوبه لله -تعالىٰ- بالخبر والعقل معًا، كالخلق والإحياء والإماتة، ومنها ما ثبت وجوبه بالخبر دون العقل، كالنزول والمجيء، والغضب والرضا.

وما ورد من هذه الصفات في الكتاب أو السنة، كالمجيء والنزول والضحك، والعجب، والغضب، والرضا، والاستحياء، يجب إثباته لله -تعالىٰ- كما ورد، دون توصيف ولا تكييف ولا تأويل، ومن تحير وقال: كيف ينزل ربنا أو كيف يغضب ربنا؟ يقال له: كيف هو سميع؟ وكيف هو بصير؟ وكيف هو حي عليم؟ وكيف هو نفسه؟ فكما أنه سبحانه لا تدركه العقول، فكذلك صفاته، فإن الصفة فرع الموصوف.

ومما ورد في القرآن من هذه الصفات قوله -تعالىٰ-: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وجاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»**[3].

كان مالك -رحمه الله تعالىٰ- إذا ذكر عنده من يدفع أحاديث الصفات يُكثر أن

---

(١) التمهيد ٧/ ١٤٥.

(٢) التمهيد ٧/ ١٤٩.

(٣) البخاري مع فتح الباري ٣/ ٢٧٢، وانظر الإبانة ص ١١.

يقول: قال عمر بن عبد العزيز: «سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننًا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة علىٰ دين الله، ليس لأحد من خلق الله -تعالىٰ- تغييرها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدىٰ فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولىٰ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا»(1). ومقصود مالك من هذا أنه يجب الاقتداء في باب الصفات بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

فالمسلم عليه أن يعتقد ثبوت هذه الصفات لله -تعالىٰ- كما وردت، دون كيف ولا وصف، روىٰ يحيىٰ بن يحيىٰ التيمي قال: «جاء رجل إلىٰ مالك فقال: يا أبا عبد الله، الرحمن علىٰ العرش استوىٰ، كيف استوىٰ؟، قال: فما رأيت مالكًا وجد من شيء كموجدته من مقالته، وعلاه الرُحضاء، وأطرق القوم، فسُرِّي عن مالط، وقال: الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني أخاف أن تكون ضالًا، وأمر به فأخرج»(2).

ونقل مثل هذا القول عن ربيعة بن عبد الرحمن والسفيانين. وقول مالك هذا قاعدة في فهم جميع صفات الباري أخذ به أهل العلم واستشهدوا به وأقروه، ولم يعترض عليه أحد، لصحته ومطابقته لما كان عليه الصحابة والتابعون، وهو يعني أن جميع الصفات الثابتة لله يجب الإيمان بها حقيقة علىٰ ما جاءت، دون بحث عن كيفيتها في حق الله -تعالىٰ-، مع النهي عن الخوض فيها(3).

قال ابن عبد البر: «علماء الصحابة والتابعين الذين حُمل عنهم التأويل في القرآن قالوا في تأويل هذه الآية ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾: هو علىٰ العرش، وعلمه في كل مكان، وما خالفهم في ذلك أحد يُحتج بقوله»(4).

ونسب أبو الحسن الأشعري في الإبانة القولَ بخلاف ذلك إلىٰ الجهمية والمعتزلة، فقال: «وزعمت المعتزلة والحرورية والجهمية أن الله ﷻ في كل مكان، فلزمهم أنه

---

(1) مجموع الفتاوىٰ 5/40.

(2) التمهيد 7/138، وهو ثابت عن مالك من طرق صحيحة.

(3) انظر العقيدة السلفية في كلام رب البرية ص 74.

(4) التمهيد 7/139، 22/80.

بطن مريم، وفي الحشوش والأخلية، وهذا خلاف الدين، تعالىٰ الله عن قولهم»[1].

وأسند اللالكائي عن محمد بن الحسن الشيباني، قال: «اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلىٰ المغرب علىٰ الإيمان بالقرآن وبالأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الربِّ من غير تشبيه ولا تفسير، فمن فسر شيئًا منها وقال بقول جهم، فقد خرج عما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وفارق الجماعة؛ لأنه وصف الرب بصفة لا شيء[2]. وكان الأئمة من أهل السنة يقولون في أحاديث النزول وما شابهها: «**أمرّوها كما جاءت**»، ويقولون: «نؤمن بها بلا كيف وبلا تشبيه ولا تعطيل»، والشافعي يقول: «آمنت بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنت برسول الله، وما جاء عن رسول الله علىٰ مراد رسول الله ﷺ»[3].

قال ابن عبد البر: «كلهم يقول: ينزل ويتجلىٰ ويجيء بلا كيف، لا يقولون كيف يجيء؟ وكيف يتجلىٰ؟وكيف ينزل؟ .... لأنه ليس كشيء من خلقه»[4].

وإثبات ما ذكر من الصفات علىٰ الوجه السابق هو أعدل الأقوال، فإن فيه إثبات ما أثبته الكتاب والسنة، ولكن لا يُتعمق في التوصيف؛ لأن التعمق يؤدي إلىٰ التشبيه. ودون تأويل، فإن التأويل يؤدي إلىٰ النفي والتعطيل، وخير الأحوال ما كان عليه الأوائل، مالك وأضرابه، قبل الاشتغال بالرد علىٰ المشبهين والمعطلين، كانوا لا يحبون الكلام فيما سكت عنه النبي ﷺ وأصحابه، ويقولون عن الصفات: أمروها كما جاءت، ويقولون تفسيرها قراءتها، وكان كلامهم فيها معدودًا بالحروف، فمن زاد كلمة لاموه عليها حتىٰ لو كانت صوابًا، وقالوا له: هي وإن كانت صحيحة، فالأولىٰ تركها، لأن السلف لم يتكلموا بها.

قال القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي عند شرحه لعبارة ابن أبي زيد في (الرسالة): «وأنه فوق عرشه بذاته»، «وعلىٰ العرش استوىٰ»، قال: «العبارة الأخيرة أحب إليّ من الأولىٰ... لأن قوله علىٰ العرش هو الذي ورد به النص، ولم يرد النص

---

(١) الإبانة ص ٣٧.

(٢) فتح الباري ١٥/ ٣٦٥.

(٣) مجموع الفتاوىٰ ٦/ ٣٥٤.

(٤) التمهيد ٧/ ١٥٣.

بذكر (فوق)، وإن كان المعنىٰ واحدًا إلا أن ما طابق النص أولىٰ بأن يستعمل»[1].

وقال الذهبي تعليقًا علىٰ العبارة نفسها: «وقد تلفظ بالعبارة المذكورة جماعة من العلماء كما قدمناه، وبلا ريب إن فضول الكلام، تركه من حسن الإسلام . . .»، إلىٰ أن قال: «وقد نقموا عليه في قوله بذاته، فلَيْته تركها»[2].

الكف عن الخوض في الصفات:

الإيمان بهذه الصفات كما جاءت، علىٰ مراد الله منها كما يقول الشافعي رحمه الله، يقتضي أن يقف المسلم حيث وقف به النص، ويستعمل ألفاظ النص ذاتها، دون تعمق ولا تحديد ولا تمثيل، فلا يكيّفها ولا يتكلف فيها، ولذا استفاض عن الأئمة قولهم أمرّوها كما جاءت، أمرّوها بلا كيف، وكانوا يقولون: معناها قراءتها. قال سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عنه[3]، أي واجب أن نؤمن به، ولا نتوهم ولا نقول: كيف، ومعنىٰ هذا أنهم يؤمنون بها كما جاءت ولا يحبون السؤال عنها، ولا الجدال فيها، علىٰ خلاف ما شاع اليوم بين كثير من أهل العلم وغيرهم.

سئل الإمام مالك عن أهل البدع، قال: «أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله -تعالىٰ- وصفاته، وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يكفون عما سكت عليه الصحابة والتابعون»[4]. وقال للسائل عن الاستواء: «الإقرار به واجب والسؤال عنه بدعة».

وروىٰ البيهقي بسنده قال: «كان سفيان الثوري وشعبة والحمادان وشريك لا يَحدّون، ولا يشبهون، ولا يمثلون، يروون الحديث ولا يقولون: كيف، وإذا سئلوا أجابوا بالأثر[5]، ومن زاد علىٰ ذلك فلن يَأْمن الزلل.

قال ابن عبد البر: «الكلام في صفات الباري يستبشعه أهل السنة، وقد سكت عنه الأئمة، فما أشكل علينا من مثل هذا الباب بشبهة أمررناه كما جاء، وآمنا به كما نصنع

---

(١) شرح القاضي عبد الوهاب ورقة ١٣.

(٢) مختصر العلو ص ٢٥٦.

(٣) انظر فتح الباري ١٥/٣٦٥.

(٤) الآداب الشرعية ١/٢١٠.

(٥) السنن الكبرىٰ ٣/٣.

بمتشابه القرآن، ولم نناظر عليه؛ لأن المناظرة إنما تسوغ وتجوز فيما تحته عمل، ويصحبه قياس، والقياس غير جائز في صفات الباري تعالىٰ»[1]، وقال: كان مالك يقول: «أدركت أهل هذا البلد ويعني -المدينة- وهم يكرهون المناظرة والجدال إلا فيما تحته عمل. قال: يريد مالك ﷺ الأحكام في الصلاة والزكاة والطهارة، ولا يجوز عنده الجدل فيما تعتقده الأفئدة، مما لا عمل تحته أكثر من الاعتقاد»[2].

دفع شبهة المؤولين:

فإن قيل في إثبات هذه الصفات، من المجيء والنزول، والاستواء، والوجه، واليد والقدم، إلىٰ آخر ما ورد، إثبات للتشبيه، فلزم التأويل حتىٰ لا يشبّه اللهُ ﷻ بمخلوقاته، كما فعلت المشبهة والمجسمة. يقال: هذا الإيراد لازم أيضًا في صفة الحياة والسمع والبصر، والعلم والقدرة والإرادة إلخ، فالعقل لا يدرك الحياة والسمع والبصر والإرادة إلا هذه الأعراض والحواس التي يتصف بها المخلوق، فهل إرادة الله وحياته وسمعه وبصره هي كحياة وسمع وبصر خلقه؟ لا شك أنها ليست كذلك، وأنها حياة تليق به ليست كحياتنا، وسمع يليق به ليس كسمعنا، وعلم يليق به ليس كعلمنا، فكذلك الاستواء والنزول والقرب والوجه واليد، هي أيضًا يقال عنها: استواء يليق به، ونزول يليق به، ووجه يليق به، فالله ﷻ ليس كمثله شيء، لا يحتاج إلىٰ شيء البتة، لا إلىٰ العرش ولا إلىٰ غيره، كان وليس قبله شيء، وكان عرشه علىٰ الماء، وكان قبل العرش.

فلمّا لم تُؤوّل تلك الصفات، وهي السمع والبصر. . .إلخ، لم تؤول هذه؛ لأن تأويل الصفات معناه أن حقيقتها غير ثابتة لله -تعالىٰ- ولا مراده، وذلك يستلزم نفيها. ثم إن الصفات بنوعيها ما أوله منها المؤولون وما لم يؤولوه، ثابتة ثبوتًا واحدًا، بالكتاب والسنة، فمن أثبت بعضها بلا تأويل ولم يقبل بعضها إلا بتأويل، كان كمن يأخذ ببعض الكتاب ويردّ بعضه.

ولوالد إمام الحرمين أبي محمد الجويني رسالة نافعة في هذا المعنىٰ، ذكر فيها تحيرّه بادئ الأمر في مسألة الصفات، ومسألة العلو، ثم كيف شرح الله صدره لما ذهب

---

(١) التمهيد ١٩/ ٢٣١.

(٢) التمهيد ١٩/ ٢٣٢.

إليه أئمة السلف، وضمّن ذلك ردّ الشبه الواردة علىٰ القلب بما فيه مقنع لكل ذي لب[1].

ما ورد فيه من الصفات تأويل عن السلف:

حمل اللفظ علىٰ غير المتبادر منه قد يتعين في بعض نصوص الوحي، لتصحيح الكلام شرعًا، أو لتعذر حمله علىٰ ظاهره، حتىٰ لا يتناقض الكلام عقلًا، وسواء سمينا صرف الكلام عن هذا المعنىٰ المتبادر تأويلًا أم لم نسمه، فلا مشاحة في الاصطلاحات، ما دام التفسير بغير المتبادر متعيّن.

ومن الناس من يفر من استعمال كلمة التأويل في هذه المواطن، حتىٰ لا يقال له: لم قبلت التأويل في بعض النصوص وأنكرت علىٰ القائلين به في بعض آخر؟

والجواب عن هذا الاعتراض لا يكون بوضع كلمة بدل أخرىٰ، والمؤدَّىٰ واحد، فذلك يعود بالإضعاف علىٰ المسألة في إنكار التأويل برمّتها، ولكن الجواب أن يقال: ليس في باب صفات الله ﷻ من قياس، فما فهمه أهل القرون الأولىٰ من النصوص في باب الصفات، وقبلوه علىٰ ظاهره من غير تأويل، قبلناه، وما أولوه أولناه، فإن ذلك هو الحق والصواب -إن شاء الله-.

ومما نقل عنهم فيه تأويل، قول الله -تعالىٰ-: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، قال القرطبي: «وقد جمع في هذه الآية بين ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، والأخذ بالظاهر تناقض، فدل علىٰ أنه لا بد من التأويل، والإعراض عن التأويل اعتراف بالتناقض»، فمعنىٰ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي بعلمه[2].

وفي مجموع الفتاوىٰ[3]: «أجمع المسلمون من أهل السنة علىٰ أن معنىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ونحو ذلك في القرآن -أن ذلك علمه»، «فأخبر -سبحانه- أنه مع علوّه علىٰ عرشه يعلم كل شيء، فلا يمنعه علوه عن العلم بجميع الأشياء»، وقال في معنىٰ قوله ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]:

---

(١) مختصر العلو ص ٢٦.

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٧/٢٣٧.

(٣) ٥/٥١٩.

«أن كل شيء هالك إلا ما كان لوجهه من الأعيان والأعمال وغيرها»[1].

ومثله قوله -تعالىٰ-: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: ١٦]، قال في مجموع الفتاوىٰ: «أي بملائكتنا في الآيتين»[2].

وكقوله تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، فإن المراد به في استعمالهم الشائع: في حق الله، وكذا قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦] معناه: خرّب الله بنيانهم، وقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] معناه لأجل الله، وقِس علىٰ ذلك[3].

ومنه الحديث: «إني أجد نفس الرحمن من قِبَل اليمن ...»[4]، فإن معناه تنفيس الله عن المؤمنين كربتهم يكون من أهل اليمن، قال في مجموع الفتاوىٰ[5]: هم الذين قاتلوا أهل الردة، وفتحوا الأمصار، فبهم نفّس الله عن المؤمنين الكربات.

ومنه قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فإن معناه بنصره وتأييده وحفظه، وفي الحديث القدسي: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي . قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعالمين؟ قال: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أما علمت أنك لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟** ...»[6] إلخ، فإن معناه مرض المؤمن، واستطعام الجائع، كما جاء مفسرًا في الحديث نفسه.

صفة الكلام:

من الصفات الواجبة لله -تعالىٰ- صفة الكلام، وهي صفة أزلية واجبة لله -تعالىٰ- لذاته، يتصف بها ﷻ علىٰ ما يليق به، فيتكلم بما يشاء، كيف يشاء، متىٰ شاء، وإننا نصدق بكلامه ونؤمن به، ولا نعرف كيف هو كسائر الصفات الأخرىٰ، مع الجزم بعدم مشابهته لكلام المخلوقين.

---

(١) ٢/٤٢٧.

(٢) ٥/٥٠٢.

(٣) انظر فتح الباري ١٧/١٥٣، ١٦٠، والتمهيد ٧/١٣٨.

(٤) مسند الشاميين ٢/١٤٩.

(٥) ٦/٣٩٨.

(٦) مسلم حديث رقم ٢٥٦٩.

وقد كلم الله ﷻ ملائكته، قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وكلم بعض رسله، قال -تعالىٰ-: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وممن كلمه الله -تعالىٰ-، موسىٰ ﷺ، قال -تعالىٰ-: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. وكلم نبينا محمد ﷺ ربه ليلة المعراج، ففي الصحيح من حديث المعراج، قال ﷺ: «**فرجعت إلىٰ ربي فقلت: يا رب خفف عن أمتي، فحط علي خمسا** . . .»، وقال -تعالىٰ-: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]. ويكلم الله -تعالىٰ- عباده يوم القيامة في المحشر، مؤمنهم وكافرهم: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

وفي الصحيح: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ ربه لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ**»[1]، ويكلم الباري أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، فإنه يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لا نَرْضَىٰ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يا رَب، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[2].

وقال ﷺ لجابر: «**مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلاَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا، فَقَالَ: يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَىٰ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيةً. قَالَ الرَّبُّ ﷻ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّىٰ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لاَ يُرْجَعُونَ، قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ** ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾»[3].

ويقول ﷻ لأهل النار: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وكلمات الله -تعالىٰ- لا تنفد ولا نهاية لها: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

ونفت الجهمية والمعتزلة صفة الكلام، كما نفت سائر الصفات الأخرىٰ، وأنكر

---

(١) البخاري حديث رقم ٧٤٤٣.

(٢) البخاري حديث رقم ٦٥٤٩.

(٣) سنن الترمذي حديث رقم ٣٠١٠.

الجعد بن درهم أن يكون الله -تعالىٰ- كلم موسىٰ، فقتله خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحىٰ بعد الخطبة، وقال: «أيها الناس ارجعوا فضحوا، تقبل الله منكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يكلم موسىٰ تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا تعالىٰ الله عما يقول الجعد علوًا كبيرًا»، ثم نزل إليه وذبحه في أصل المنبر[1].

الكلمات التشريعية والكلمات الكونية:

تتنوع كلمات الله -تعالىٰ- إلىٰ نوعين: كلمات تشريعية، وكلمات كونية. فكلماته التشريعية كتبه المنزلة، وهي: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسىٰ ﷺ. وكلماته الكونية هي التي يخلق بها الخلق، ويقدر بها المقادير، ويقول للشيء كن فيكون. والكلمات التشريعية هي الأوامر والنواهي، من أطاع الله -تعالىٰ- عمل بها، ومن عصاه خالفها وتركها. فالمطيع إذا قيل له: صلِّ وآتِ الزكاة صلىٰ وزكىٰ، والعاصي إذا قيل له: صلِّ لا يصلي. والكلمات الكونية لا يقدر أحد أن يخرج عنها، الجميع يخضع لها قهرًا، فمن قضىٰ الله عليه بأمر من مرضٍ أو موت، أو فقر أو غنىٰ، أو هلاك مال، أو ولد -أصابه، مطيعًا كان أو عاصيًا، قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: ٤٣].

القرآن كلام الله:

لم يكن المسلمون في الصدر الأول قبل ظهور البدع يزيدون عن قولهم: القرآن كلام الله، فلا يقولون مخلوق، ولا غير مخلوق، شأن القرآن شأن سائر الصفات الأخرىٰ الواجبة لله -تعالىٰ-، كالسمع والبصر، والقدرة والحياة، فإنهم لا يقولون عنها: مخلوقة ولا غير مخلوقة، فكذلك القرآن الذي هو كلامه، لا يقولون عنه مخلوق ولا غير مخلوق، حتىٰ ظهرت بدعة المعتزلة بخلق القرآن، فاحتاج الناس إلىٰ نفيها بقولهم: القرآن كلام الله غير مخلوق.

---

(١) جعل الأشعرية بعد أبي الحسن الأشعري صفة الكلام لله -تعالىٰ- تطلق علىٰ الكلام النفسي، ومعناه المعاني الموجودة في النفس، وقالوا: هذه هي الصفة الأزلية أما النطق بالصوت فهو تعبير عن الكلام النفسي، لذا هم يرون أن الحروف الموجودة في المصحف هي عبارة عن كلام الله، وهي مخلوقة، وقد قال بالكلام النفسي ابن كُلاَّب، وأخذه عنه الأشاعرة. الشريعة ص ١٩٧.

سئل جعفر الصادق الإمام عن القرآن أمخلوق هو؟ فأجاب: «ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله»[1]. وكان مالك يقول: كلم الله موسىٰ ﷺ، والقرآن كلام الله، ويستفظع قول من يقول: القرآن مخلوق ويقول: «من قال: القرآن مخلوق يوجع ضربًا ويحبس حتىٰ يموت»[2].

ويكفي في صحة إيمان المسلم أن يقول: القرآن كلام الله، ولا يخوض فيه، وهو الذي كان عليه أصحاب الرسول ﷺ والتابعون، فيسكت عما سكتوا عنه. فإن الصحابة ماتوا وما خاضوا في القرآن ولا في الصفات، «ومن رأىٰ أن طريقة المتكلمين أجود من طريق أبي بكر وعمر فبئس الاعتقاد»[3].

قال عمرو بن دينار: «أدركت أصحاب النبي ﷺ فمن دونهم منذ سبعين سنة يقولون: الله الخالق، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله، منه خرج وإليه يعود»[4].
ومثل هذا القول مروي عن السفيانين وغيرهما من الأئمة، ومعنىٰ وإليه يعود، أن القرآن يُسرىٰ عليه ليلًا فيرفعه الله إليه، وينتزعه من صدور الحفاظ، وأوراق المصاحف، فيصبحون ليس في الأرض ولا في جوف مسلم منه شيء، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾[5].

روىٰ ابن عبد البر بسنده إلىٰ سليم بن منصور بن عمار، قال: كتب بشر المرِّيسي إلىٰ أبي: أخبرني عن القرآن أخالق هو أم مخلوق؟ فكتب إليه أبي: «بسم الله الرحمن الرحيم، عافانا الله وإياك من كل فتنة، وجعلنا وإياك من أهله، وممن لا يرغب بدينه عن الجماعة، فإنه إن يفعل فأولىٰ بها ونعمة، وإلا يفعل فهي الهلكة، وليس لأحد علىٰ الله بعد المرسلين حجة، ونحن نرىٰ أن الكلام في القرآن بدعة، تشارك فيها السائل والمجيب، تعاطىٰ السائل ما ليس له، وتكلف المجيب ما ليس عليه، ولا أعلم خالقًا إلا الله، والقرآن كلام الله، فانته أنت والمختلفون فيه، إلىٰ ما سماه الله به تكن من المهتدين، ولا تسم القرآن باسم من عندك فتكون من الهالكين، جعلنا

---

(١) الشريعة ص ٧٧، والأسماء والصفات ٢٤٦.

(٢) الشريعة ٧٩.

(٣) من كلام لابن عقيل، انظر الآداب الشرعية ١/ ٢٠٤.

(٤) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٢٠٥، والتمهيد ٢٤/ ١٨٦.

(٥) الإسراء آية ٨٦، وانظر مجموع الفتاوىٰ ٣/ ١٧٤، والعقيدة السلفية في كلام خير البرية ص ١٩٦.

الله من الذين يخشونه بالغيب وهم من الساعة مشفقون»[1].

وقال في (التمهيد) في شرح حديث الموطأ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَلْيَقُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، فإنه لَن يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَرْتَحِلَ»، قال: «في الاستعاذة بكلمات الله أبين دليل علىٰ أن كلام الله منه -تبارك اسمه- وصفة من صفاته، ليس بمخلوق؛ لأنه محال أن يستعاذ بمخلوق، وعلىٰ هذا جماعة أهل السنة»[2]. وقال في موضع آخر: «القرآن عندنا كلام الله، وصفة من صفاته غير مخلوق»[3]. وقال ابن أبي زيد في (الرسالة): «ومما يجب اعتقاده أن القرآن كلام الله، ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد»[4].

قال الحافظ في الفتح: «ومن شدة اللبس في هذه المسألة كثر نهي السلف عن الخوض فيها، واكتفوا باعتقاد أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ولم يزيدوا علىٰ ذلك شيئًا، وهو أسلم الأقوال». وقال: «والمحفوظ عن جمهور السلف ترك الخوض في ذلك والتعمق فيه والاقتصار علىٰ القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، ثم السكوت عما وراء ذلك»[5].

فلما خرجت المعتزلة ببدعة خلق القرآن، وتبنىٰ الحكام مذهبهم فتنوا العلماء به وامتحنوهم، ومن لم يقل بخلق القرآن سجنوه وعذبوه، ومن ذلك الوقت صار أهل السنة يطلقون عبارة القرآن كلام الله غير مخلوق، للرد علىٰ الجهمية والمعتزلة، الذين يقولون بخلق القرآن، وقد فصل الأشعري -رحمه الله تعالىٰ- في (الإبانة) الأدلة في وجوه الرد عليهم[6].

التفصيل في مقام التعليم:

أما في مقام التعليم وردّ الشبه، فكانوا يفصلون الكلام بوجوب الإيمان بأن القرآن كله كلام الله غير مخلوق، مكتوب في المصاحف محفوظ في الصدور، مقروء

---

(١) التمهيد ١٩/ ٢٣٣.

(٢) التمهيد ٢٤/ ١٨٦.

(٣) التمهيد ١٩/ ٢٣١.

(٤) رسالة ابن أبي زيد ١/ ١١٩.

(٥) فتح الباري ١٥/ ٤٢١ و٤٦٧.

(٦) الإبانة ص ٢١ وما بعدها.

بالألسنة، تكلم الله به وألقاه إلىٰ رسول الله ﷺ بواسطة جبرائيل -عليه الصلاة والسلام-، وهو الذي بين دفتي المصحف، ويقرؤه الناس بأصواتهم فيما يقرءونه ويحفظونه ويسمعه الناس منهم هو كلام الله؛ لأن الله -تعالىٰ- سمىٰ اللفظ المسموع من القارئ كلام الله، قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ: **«أَنَّهُ كَانَ يَنْهَىٰ أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَىٰ أَرْضِ الْعَدُوِّ مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ»**[١]، والمراد ما في المصاحف. وأجمع السلف علىٰ أن الذي بين دفتي المصحف كلام الله[٢]، ولأن الكلام إنما ينسب لمن ابتدأ قوله، لا لمن قرأه وأداه، ويدل عليه إجماع المسلمين علىٰ أن القارئ إذا قرأ فاتحة الكتاب، قالوا: سمعنا كلام الله، وفرقوا بين أن يقرأ كلام الله -تعالىٰ- وبين أن يقرأ قصيدة من الشعر، فيقولون في الأول: سمعنا كلام الله، وفي الثاني: سمعنا قصيدة فلان.

وأما قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، فالمراد به قول رسول مبلِّغ عن الله، ولفظ الرسول واشتقاقه يشعر بذلك، بدليل قوله -تعالىٰ- في الآية بعدها: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٣].

أما فعل التلاوة الذي هو الصوت، فهو صوت القارئ، وهو حادث مخلوق، والكلام الذي يقرؤه صاحب الصوت كلام الباري؛ لأن الصوت فعل العبد، وأفعال العباد كلها مخلوقة، وكذلك المداد المكتوب به القرآن، واللوح والورق، وجلدة المصحف، كله حادث.

رؤية الباري ﷻ:

اتفق أهل العلم علىٰ أن الله -تعالىٰ- لا يراه أحد في الدنيا يقظة بعينيه، فقد سأل موسىٰ عليه السلام أن يرىٰ ربه، فقال له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وجاء في الصحيح عن النبي ﷺ:

---

(١) مسلم حديث رقم ١٨٦٩.

(٢) انظر فتح الباري ١٥/ ٤٦٧.

«**تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَىٰ أَحَدٌ مِنكُمْ رَبَّهُ ﷻ حَتَّىٰ يَمُوتَ**»[1]. وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في رؤية النبي ﷺ لربه ليلة المعراج رؤية عين، فجاء في كلام ابن عباس ما يمكن حمله علىٰ إثباتها ونفيها[2]، ونفتها عائشة، وهو الصحيح، حتىٰ إن عثمان بن سعيد الدارمي حكىٰ إجماع الصحابة علىٰ نفيها، فقد جاء في الصحيح عن عائشة ﵂: «قُلْتُ لِعَائِشَةَ ﵂: يَا أُمَّتَاهْ هَلْ رَأَىٰ مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعرِي مِمَّا قُلْتَ أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ؟ مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَىٰ رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ ثُمَّ قَرَأَتْ ﴿**لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ**﴾﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ . . . ، وَلَكِنَّهُ رَأَىٰ جِبْرِيلَ ﵇ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ»[3]، وفي حديث أبي ذر عند مسلم، قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: **نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ؟!**»[4].

ورؤية الباري ﷻ في المنام جائزة عند الجمهور، وتختلف الصفة التي يُرىٰ عليها ﷻ في المام باختلاف صفة الرائي، فمَن حاله في الدين والاستقامة وطاعة الله ورسوله حسنة، يراه علىٰ أحسن صورة، كما رآه رسول الله ﷺ، علىٰ ما دل عليه حديث معاذ الآتي، ومن حاله دون ذلك رآه بحسب حاله، روىٰ معاذ بن جبل حديث احتباس النبي ﷺ عن صلاة الصبح حتىٰ كادت الشمس أن تطلع، وفيه قوله ﷺ: «**. . . فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي، فَاسْتَثْقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي -تَبَارَك وتَعَالىٰ- فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ**»[5].

الأسماء الحسنىٰ وإحصاؤها:

قال -تعالىٰ-: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿**قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ**﴾ [الإسراء: ١١٠]، وجاء في الصحيح عن النبي ﷺأنه قال: «**إِنَّ**

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٩٣١.

(٢) مجموع الفتاوىٰ ٦/ ٥٠٧.

(٣) البخاري حديث رقم ٤٨٥٥.

(٤) مسلم حديث رقم ١٧٨.

(٥) سنن الترمذي حديث رقم ٣٢٣٥، وقال: حسن صحيح.

لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1].

وإحصاؤها: عدها وحفظها، مع الاعتبار بمعانيها والتعظيم لها، والعمل بما يقتضيه كل اسم منها، فالحكيم يقتضي تسليم الأمر له؛ لأن جميع أمره علىٰ وفق الحكمة، والقدير تقتضي قدرته أن تخشىٰ سطوته؛ لأن كل شيء في ملكه، وتحت طوله، والعليم يجب أن لا يُعصىٰ لا سرًّا ولا جهرًا؛ لأنه مطلع علىٰ الخفايا والقلوب، وهكذا.

ومن الأسماء ما يستحب للعبد أن يقتدي بها، ويتحلىٰ بمعانيها، كالرحيم والعفوّ والكريم، ليؤدي حق العمل بها، وبذلك يحصل الإحصاء العملي مع الإحصاء القولي، الذي هو حفظها والدعاء والتعوذ بها، وما تقدم هو أرفع مراتب إحصائها، وأدناه مجرد حفظها باللسان، ليثني المسلم علىٰ الله بجميعها. قال القرطبي: «المرجو من كرم الله -تعالىٰ- أن من حصل له إحصاء هذه الأسماء علىٰ إحدىٰ هذه المراتب، مع صحة النية أن يدخله الله الجنة»[2].

ولم يقع في الصحيح سرد هذه الأسماء، وخرَّج الترمذي وغيره الحديث بسرد الأسماء التسعة والتسعين، من طريق الوليد بن مسلم، وقال: «هذا حديث غريب، حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح، وهو ثقة»[3].

ورواية الوليد هذه عن شعيب بن أبي حمزة أقرب الطرق إلىٰ الصحة، وعليها اعتمد أكثر العلماء، والراجح أن سرد هذه الأسماء وتعيينها في الحديث ليس من كلام النبي ﷺ، وإنما هو مدرج من جمع بعض الرواة، قال الداودي: لم يثبت أن النبي ﷺ عين الأسماء المذكورة. وقال ابن العربي: يحتمل أن تكون الأسماء تكملة للحديث المرفوع، ويحتمل أن تكون من جمع بعض الرواة، وهو الأظهر عندي[4]، وهذا هو الصحيح.

---

(١) البخاري مع فتح الباري ١٧/١٤٨.

(٢) انظر فتح الباري ١٧/١٤٨، ١٣/٤٧١، وتفسير القرطبي ٧/ ٣٢٥.

(٣) سنن الترمذي حديث رقم ٣٥٠٧.

(٤) انظر فتح الباري ١٣/٤٧١، وعارضة الأحوذي ١٣/٣٤.

وقد جمعها غير الترمذي جمعا آخر استخرجه من القرآن وصحيح السنة منهم سفيان ابن عيينة والإمام أحمد، وعلىٰ جمع الترمذي اعتمد أكثر العلماء. وسياقها عنده: هو الله[1] الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس[2] السلام[3] المؤمن[4] المهيمن[5] العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ[6] المصور[7]، الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح[8] العليم.

القابض الباسط[9] الخافض الرافع[10] المعز المذل السميع البصير الحكم[11] العدل[12] اللطيف[13] الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور[14] العلي الكبير الحفيظ[15] المقيت[16] الحسيب[17] الجليل الكريم الرقيب[18]

---

(١) الله معناه: المعبود، الذي يألهه كل شيء أي يعبده كل الخلق، من أَلَه يأله: عبد، وإله علىٰ وزن فِعال. بمعنىٰ مألوه أي معبود. وألهه: أجاره وآمنه، وأَلِه إلىٰ الله كفرح: فزع ولاذ، واسم الله علم علىٰ الإله المعبود بحق، الواجب الوجود المتصف بكل صفات الكمال، تفرد -سبحانه- بهذا الاسم لا يشاركه فيه غيره، فلم يسم به غيره، كما قال -تعالىٰ-: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، وهذا بخلاف إله، فإنه يطلق علىٰ الإله الحق وعلىٰ ما يعبد من دون الله من الأصنام.

(٢) القدوس: المنزه عن المشابهة؛ كالحاجة والافتقار إلىٰ الزوجة والولد وغير ذلك.

(٣) السلام: الذي سلم من كل عيب وبرئ من كل آفة.

(٤) المؤمن: الذي أخبر عن نفسه بأنه حق وصدق، وأخبر عن عباده المؤمنين بأنهم علىٰ صدق في اعتناقهم الإسلام.

(٥) المهيمن: الرقيب والحافظ والمسيطر.

(٦) البارئ: الخالق.

(٧) المصور: هو الذي خلق خلقه بصور مختلفة.

(٨) الفتاح: الحاكم بين عباده، والناصر لمن يريد نصرته، والفاتح لكل الأبواب المغلقة.

(٩) القابض والباسط: الذي يوسع الرزق علىٰ من يريد ويضيقه علىٰ من يريد.

(١٠) الخافض الرافع: الذي يعز من يشاء من عباده، ويذل وينتقم ممن يشاء.

(١١) الحكم: الحاكم.

(١٢) العدل: الذي له أن يفعل ما يريد ولا يظلم عنده أحد.

(١٣) اللطيف: الحليم بعباده، العالم بخفايا الأمور.

(١٤) الشكور: الذي يقبل اليسير من الطاعة ويعطي عليه الأجر الكثير مع الثناء علىٰ عباده.

(١٥) الحفيظ: الذي لا ينسىٰ ما علم، والراعي لمن أراد حفظه من خلقه.

(١٦) المقيت: القادر.

(١٧) الحسيب: الكافي.

(١٨) الرقيب: الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء.

المجيب[١] الواسع[٢] الحكيم[٣] الودود[٤] المجيد[٥] الباعث[٦] الشهيد[٧] الحق[٨] الوكيل[٩] القوي[١٠] المتين[١١] الولي[١٢] الحميد[١٣].

المحصي[١٤] المبدئ[١٥] المعيد[١٦] المحيي المميت الحي القيوم[١٧] الواجد الماجد[١٨] الواحد الصمد[١٩]القادر المقتدر المقدم المؤخر[٢٠] الأول الآخر[٢١] الظاهر[٢٢] الباطن[٢٣] الوالي[٢٤] المتعال[٢٥] البر[٢٦] التواب[٢٧] المنتقم العفو

---

(١) المجيب: الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

(٢) الواسع: واسع العلم والغنىٰ والملك.

(٣) الحكيم: الذي يكون فعله في غاية الإتقان والإحكام، ولا تكون أفعاله إلا لحكمة علىٰ وجه السداد.

(٤) الودود: الذي يحب عباده المؤمنين ويحبونه.

(٥) المجيد: من المجد وهو الجلال والعظمة والرفعة.

(٦) الباعث: الذي يبعث عباده بعد الموت.

(٧) الشهيد: الذي لا يغيب عنه شيء.

(٨) الحق: الموجود حقًا.

(٩) الوكيل: هو الكافي والقائم علىٰ خلقه بما يصلحهم.

(١٠) القوي: القادر.

(١١) المتين: شديد القوة.

(١٢) الولي: الناصر.

(١٣) الحميد: الذي يستحق الحمد.

(١٤) المحصي: المحيط علمه بكل شيء.

(١٥) المبدئ: المخترع في خلقه علىٰ غير مثل سبق.

(١٦) المعيد: الذي يعيد الخلق إلىٰ الموت ثم إلىٰ الحياة.

(١٧) القيوم: القائم بنفسه دون احتياج والمقيم لغيره، والباقي فلا يزول.

(١٨) الواجد الماجد: الغني القادر.

(١٩) الصمد: الذي يُلجأ إليه في الأمور ويُقتصد في الحوائج، ولا يفتقر إلىٰ شيء.

(٢٠) المقدم المؤخر: الذي ينزل الأشياء منازلها، فيقدم من يشاء ويؤخر من يشاء.

(٢١) الأول: الذي لا أول لوجوده، والآخر: الذي لا انتهاء لوجوده.

(٢٢) الظاهر: بالحجج والبراهين الدالة علىٰ ربوبيته، والظاهر بغلبته وعلوه علىٰ كل شيء سواه.

(٢٣) الباطن: الذي لا تتوهم له كيفية، المطلّع علىٰ ما خفىٰ وبطن من الأمور.

(٢٤) الوالي: المالك للأشياء المستولي عليها

(٢٥) المتعالي: علو ذات وقهر، المنزه عن صفات الخلق، المخالف للحوادث.

(٢٦) البر: المحسن إلىٰ خلقه.

(٢٧) التواب: الذي يتوب علىٰ من يشاء ويقبل توبته.

الرءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام[1] المقسط[2] الجامع[3] الغني المغني المانع[4] الضار النافع النور[5] الهادي البديع[6] الباقي[7] الوارث[8] الرشيد[9] الصبور[10].

أسماء الله توقيفية وليست محصورة في هذا العدد:

الصحيح أن أسماء الله -تعالىٰ- ليست محصورة في هذا العدد التسعة والتسعين[11]، بل أسماؤه -تعالىٰ- أكثر من ذلك، وأوصلها ابن العربي إلىٰ مائة وستة وأربعين اسمًا، ولكن خُص هذا العدد التسعة والتسعين بالذكر؛ لأن من أحصاه دخل الجنة، فإن كثيرًا من أهل العلم علىٰ أن الأسماء التي من أحصاها دخل الجنة ليست أسماء معينة، بل المراد من أحصىٰ تسعة وتسعين منها علىٰ سبيل البدل دخل الجنة، ومنهم من يجعلها معينة، وذهب ابن حزم إلىٰ أن أسماء الله الحسنىٰ ليست إلا تسعة وتسعين اسمًا فقط، والصحيح خلافه.

ويدل علىٰ عدم حصرها في التسعة والتسعين ما جاء في حديث ابن مسعود ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ: أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي،**

(١) ذو الجلال والإكرام: الذي يستحق الإجلال والشكر، فلا يجحد فضله.

(٢) المقسط: العادل في حكمه.

(٣) الجامع: هو الذي يجمع الخلائق يوم القيامة، أو هو الذي يجمع صفات المدح.

(٤) المانع: هو الذي يمنع العطاء أو البلاء عمن يريد، وينصر من يريد نصره.

(٥) النور: الهادي إلىٰ الحق.

(٦) البديع: الذي أبدع الخلق علىٰ غير مثال سابق.

(٧) الباقي: الذي لا انتهاء لوجوده.

(٨) الوارث: الباقي بعد فناء الخلق.

(٩) الرشيد: المرشد والهادي إلىٰ الحق، وكذلك هو في ذاته رشيد لسلامة تدبيره وتنزهه عن النقص والخطأ.

(١٠) الصبور: الحليم، انظر شرح هذه الأسماء في (الاعتقاد)، للبيهقي ص ١٧ وما بعدها، وعارضة الأحوذي ١٣/ ٣٤.

(١١) انظر أحكام القرآن (٢/ ٧٩٧)، والأسماء والصفات ص٦.

وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي. إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجا»[1].

وفي الموطأ عن كعب الأحبار أنه قال: «لَوْلا كَلِمَاتٌ أَقُولُهُنَّ لَجَعَلَتْنِي يَهُودُ حِمَارًا، فَقِيلَ لَهُ: ومَا هِن؟ فَقَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِ اللهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَيْسَ شَيْءٌ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَبِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلا فَاجِرٌ، وَبِأَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ كُلِّهَا مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ووبرأ وَذَرَأَ»[2]، وقد ثبت في القرآن من الأسماء غير المذكورات في حديث الترمذي: الرب، والمولىٰ، والبر، والمحيط، والكافي، والعلّام، وثبت في السنة: المنان، الحنان، السِّتِّير، الجميل.

ويخبر عن الله -تعالىٰ- بأنه قديم، وليس صفة له، لأن القديم يطلق علىٰ مالم يزل موجودًا، وعلىٰ السابق لغيره وإن كان قبل ذلك غير موجود، فما يطلق عليه -تعالىٰ- في باب الإخبار ليس توقيفيًا، كالقِدم والشيء والموجود والقيام بالنفس.

أسماء الله لا تعرف إلا عن طريق الشرع:

أسماء الله -تعالىٰ- أعلام علىٰ ذاته المقدسة، كل اسم منها يدل علىٰ صفة له -تعالىٰ- كما تقدم، فالرحيم يدل علىٰ صفة الرحمة، والقدير يدل علىٰ القدرة، وهكذا، وهي لا تعرف إلا من جهة الشرع، لا يجوز لأحد أن يجتهد فيها بإضافة اسم من عنده، فلا يسمي الله -تعالىٰ- إلا بما سمىٰ به نفسه في كتابه أو علىٰ لسان نبيه ﷺ، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، قال المفسرون: من الإلحاد في أسمائه تسميته بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة[3]، من ذلك تسمية النصارىٰ لله بالأب، وتسمية الفلاسفة له بالعلة الفاعلة، ونحو ذلك.

ولا يجوز أن يطلق علىٰ الله اسم أو صفة توهم نقصًا، ولو أنَّ أصل اشتقاق ذلك الاسم ورد اتصاف الله -تعالىٰ- به في القرآن، فلا يطلق علىٰ الله -تعالىٰ- بأنه زارع، أو فالق أو ماهد، أو ماكر، أو بان، أو مستهزئ، مع أنه ثبت في القرآن: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤]، ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾

---

(١) مسند أحمد حديث رقم ٣٧٠٤.

(٢) الموطأ ١٧٧٥.

(٣) انظر تفسير القرطبي ٣٢٨/٧.

[الذاريات: ٤٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[١]، ونقول: إن لله عرشًا، ولا نقول: له سرير، ونقول: هو الحكيم، ولا نقول: هو العاقل، ونقول: عالم، ولا نقول: عارف، ونقول خليل إبراهيم، ولا نقول: صديق إبراهيم، بل يقتصر عل ما ورد، ولا يقاس عليه[٢].

ولا يجوز التسمي بالأسماء الخاصة بالله ﷻ، كالرحمن والجبار والقدوس، ولا التسمي بملك الملوك، لورود النهي عنه في الصحيح عن النبي ﷺ، قال: «**أَخْنَىٰ الأَسْمَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلَاكِ**»[٣].

اسم الله الأعظم:

أنكر جماعة من العلماء تفضيل بعض أسماء الله -تعالىٰ- علىٰ بعض، وقالوا: أسماء الله تعالىٰ كلها عظيمة، ليس فيها اسم أفضل من غيره؛ لأن ذلك يؤدي علىٰ اعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل، وهو لا يجوز. ومن هؤلاء العلماء أبو جعفر الطبري، أبو الحسن الأشعري، وابن حبان، والقاضي الباقلاني، وأبو الحسن القابسي، ونسب هذا القول أيضًا إلىٰ الإمام مالك، قال القابسي: «ويحتج له بأنه ﷺ نقل عنه دعاء في أشياء كثيرة فلم يستجب له، فلو كان عنده اسم أعظم لعلمه الناس وما خفي عنه، وكيف يعلمه الناس ولم يعلمه هو»[٤]. واحتجوا أيضًا بأن الآثار عن النبي ﷺ اختلفت في تعيين الاسم الأعظم، ولم يرد في واحد منها أنه اسم أعظم ولا شيء أعظم منه، فدل علىٰ أن المراد بالأعظم: العظيم، فأسماء الله -تعالىٰ- كلها عظيمة.

وحمل هؤلاء الأحاديث التي ورد فيها لفظ الاسم الأعظم علىٰ أنه بمعنىٰ العظيم، أو أن المراد بأعظميته زيادة الثواب لمن دعا به، كما جاء ذلك في تعظيم بعض سور القرآن، حيث يراد منه زيادة ثواب القارئ، لا أن سورة فاضلة وسورة مفضولة. وقيل

---

(١) الذاريات آية ٤٧، وانظر فتح الباري ١٣/ ٤٨١.

(٢) انظر التمهيد ٧/ ١٣٦.

(٣) البخاري حديث رقم ٦٢٠٥.

(٤) انظر فتح الباري ١٣/ ٤٨٢، والمعيار ١١/ ١٧٠، وعون المعبود ٨/ ١٦٠.

المراد بالاسم الأعظم كل اسم من أسماء الله -تعالىٰ- دعا به العبد مستحضرًا عظمة الله مستغرقًا، بحيث لا يكون في فكره حينئذٍ غير الله -تعالىٰ-.

وذهب جماعة من العلماء إلىٰ أن في أسماء الله الحسنىٰ اسمًا أعظم، إذا دُعي الله -تعالىٰ- به أجاب، أخفاه الله -تعالىٰ- علىٰ الناس، ليدعوه بجميع أسمائه، واختلفت أقوال العلماء في تعيين هذا الاسم علىٰ أقوال[1]، وأصحها من حيث السند ما رواه الترمذي وغيره عن بُريدة الأسلمي، قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يدعو، وهو يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، قَالَ: فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ»[2].

---

(١) انظر فتح الباري ١٣/٤٨٣.

(٢) الترمذي حديث رقم ٣٤٧٥، ٥/٥١٥ وقال: حديث حسن غريب.

الإيمان بالملائكة

من أمور الغيب التي يجب على المسلم أن يؤمن بها الإيمان بوجود الملائكة، قال -تعالىٰ-: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقد جعل الله -تعالىٰ- عدم الإيمان بالملائكة كفرًا، فقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وفي الصحيح من حديث جبريل المتقدم في تعريف الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ»[١].

صفات الملائكة:

الملائكة جمع مَلَك والتاء للمبالغة، وليست للتأنيث، ولفظها مشتق من الألوكة، ومعناه الرسالة، فهم رسل الله -تعالىٰ-. والملائكة مخلوقات نورانية لطيفة، لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتوالدون، ولا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، أعطيت قدرة على التشكل، ومسكنها السماوات، مجبولون على الطاعة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وفي الصحيح قال ﷺ: «**خُلِقَتْ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ**»[٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ [التحريم: ٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]. وقد أنكر الله -تعالىٰ- على الكافرين حين جعلوا

---

(١) مسلم حديث رقم ٨.

(٢) مسلم ٤/ ٢٢٩٤.

الملائكة إناثًا، فقال -تعالىٰ-: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقد سمىٰ الله -تعالىٰ- ملائكته رسلًا لأنهم ينفذون أوامره بالوحي فقال -تعالىٰ-: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورىٰ: ٥١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ [فاطر: ١].

وقد جعل الله -تعالىٰ- للملائكة قدرة علىٰ أن تتصور بصورة البشر، قال -تعالىٰ- في سورة مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، وكثيرًا ما كان النبي ﷺ يرىٰ جبريل في صورة رجل من أصحابه اسمه دحية الكلبي(١).

ففي الصحيح من حديث جبريل المتقدم: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعرِ لَا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْهِ ... إلىٰ أن قالَ: **يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟** قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»(٢). **ومن الصفات التي ذكرها الله -تعالىٰ- للملائكة في القرآن أن لها أجنحة فقال -تعالىٰ-**: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾ [فاطر: ١].

وجاء في الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَىٰ جِبْرِيلَ لَهُ سِتمِائَةِ جَنَاحٍ»(٣).

وملائكة الله لا يحصي عددهم إلا الله، قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال ﷺ: «**أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ**»(٤)، وقال الله -تعالىٰ-: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ

---

(١) انظر سنن النسائي حديث رقم ٤٩٩١.

(٢) مسلم حديث رقم ٨.

(٣) البخاري مع فتح الباري حديث رقم ٣٢٣٢.

(٤) الترمذي حديث رقم ٢٣١٢، وقال: حديث حسن غريب، والأطيط: صوت الأقتاب (جمع قتب: الرحل الصغير علىٰ قدر سنام البعير) من الثقل فوقها، وهو كناية عن كثرة الملائكة في السماء، حتىٰ كأنها أثقلت السماء لكثرتها.

مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورىٰ: ٥].

وفي الصحيح من حديث المعراج: «**فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ**»(١)، والبيت المعمور: بيت في السماء للعبادة حُرمته كحُرمة الكعبة في الأرض.

وظيفة الملائكة:

أعمال الملائكة ووظائفهم عدا عبادة الله كثيرة، فمنهم من هو موكل ببني آدم من تصويره في رحم أمه، إلىٰ حفظه وكتابة أعماله، والاستغفار والدعاء له، ثم قبض روحه إذا حضر أجله. ففي الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «... **إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ**...»(٢)، وفي الصحيح عن أبي هريرة -رضي الله تعالىٰ عنه- عن النبي ﷺ، قال: «**يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ**»(٣)، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورىٰ: ٥]، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «... **الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَىٰ أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مصَلاه مَا لَمْ يُحْدِثْ، اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللهُمَّ ارْحَمْهُ، لَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا دَامَتِ الصَّلَاةُ تَحْبِسُهُ لَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا الصَّلَاة**»(٤)، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾(٥)، وهي الملائكة تتنزل علىٰ الرسل وتلقي إليهم بالوحي وتفرق بين

---

(١) البخاري مع فتح الباري حديث رقم ٣٢٠٧.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٦٤٥، وانظر البخاري مع فتح الباري ٧/ ١١٤.

(٣) مسلم ١/ ٤٣٩، وانظر صحيح البخاري حديث رقم ٥٥٥.

(٤) البخاري مع فتح الباري ٦٥٩.

(٥) المرسلات آية ٥، وانظر مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٨٧.

الحقّ والباطل. وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: ١٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]. إلىٰ غير ذلك من الأعمال الأخرىٰ التي تقوم بها الملائكة، كلعن العصاة، والدعاء للمطيعين، ففي الصحيح عن النبي ﷺ: «**إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَأَبَتْ، فَلَمْ تَأْتِهِ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّىٰ تُصْبِحَ**». تَابَعَهُ شُعْبَةُ وَأَبُو حَمْزَةَ وَابْنُ حَمْزَةَ وَابْنُ دَاوُدَ وَأَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ الْأَعْمَشِ[1].

ومن الملائكة ملائكة موكلون بأعمال أخرىٰ في كون الله الواسع في السماء والأرض كالسحاب والمطر، والرياح والجبال والبحار، والجنة والنار، والعرش واللوح المحفوظ... إلخ

قال -تعالىٰ-: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]، وهي الملائكة تدبر الأمر من السماء إلىٰ الأرض، وتنزل بأوامر الله وتنفيذها، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]. وفي الصحيح أن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها-، قالت للنبي ﷺ: «**هلْ أَتَىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِم الْأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»[2]. وفي الصحيح أن النبي ﷺ: «**قد رَأَىٰ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَخَلْقُهُ سَادٌّ مَا بَيْنَ الْأُفُقِ**»[3].

---

(١) البخاري مع فتح الباري ٣٢٣٧.

(٢) البخاري مع فتح الباري حديث رقم ٣٢٣١.

(٣) البخاري مع فتح الباري حديث رقم ٣٢٣٤.

وفي الصحيح من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ: «. . . **تَحْرُسُ الْمَلَائِكَةُ الْمَدِينَةَ مِنْ الدَّجَّالِ**»[1]. والمقصود مما تقدم أن الملائكة رسل الله -تعالىٰ-، ينفذون إرادته في حفظ الكون بتقسيم أموره وتدبيرها، وذلك بحفظ النواميس والقوانين التي سنها الله -تعالىٰ- ليسير عليها نظام الله العجيب في مخلوقاته وفق الأسباب العادية، قال -تعالىٰ-: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]، فإذا أراد الله -تعالىٰ- إبطال مفعول الأسباب العادية، أذن للملائكة أن تنفذ خلاف ذلك، فتطبق الجبلين علىٰ أهل الأرض، أو تجعل أعلىٰ الأرض سافلها، أو تنفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، إلىٰ غير ذلك من الأعمال الموكولة إلىٰ الملائكة، كنصر المؤمنين مع قلة عددهم وعدتهم، وإلقاء الرعب والخوف في قلوب أعدائهم، مع كثرة جندهم ووفرة سلاحهم، وقبض الأرواح إذا جاء أجلها، بإيقاف الله الأسباب التي تمد البدن بالحياة. وبذلك يعلم أنه لا تعارض بين ما يراه الناس بمقتضىٰ العلم الذي كشفه الله لهم، من ربط الظواهر الكونية بأسباب ونواميس ثابتة، كنزول المطر وتسخير الرياح ودوران الأفلاك، وبين إسناد ذلك إلىٰ الملائكة كما جاء في الأحاديث وتوكيلها بحفظ ومراقبة تلك النواميس إلىٰ أن يريد الله -تعالىٰ- خلاف ذلك، فتنفذ الملائكة إرادة الله -تعالىٰ-. قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

ما يجب الإيمان به من الملائكة إجمالًا وتفصيلًا:

يجب الإيمان إجمالًا بجميع ملائكة الله، والتصديق بهم علىٰ الصفة المتقدمة التي خلقهم الله عليها من عبادة وأعمال موكولة إليهم.

ويجب الإيمان تفصيلًا ببعض الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن أو السنة، والتصديق بأنهم يقومون بالأعمال والوظائف التي أسندها الله -تعالىٰ- إليهم، ومنهم جبريل وميكائيل، قال -تعالىٰ-: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]. وجبريل هو الموكل بالوحي، قال -تعالىٰ-: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٤]، فالروح الأمين جبريل عليه السلام، ومنهم إسرافيل،

---

(١) البخاري مع فتح الباري حديث رقم ٣٢٣٩.

وهو الموكل بنفخ الصور نذيرًا بين يدي الساعة، ثم ينفخ فيه النفخة الثانية التي يحيي الله -تعالىٰ- عندها الخلائق، قال -تعالىٰ-: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، ومنهم مالك خازن النار، قال -تعالىٰ-: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ومنهم ملك الموت الذي يتولىٰ قبض الأنفس إذا جاء أجلها، قال -تعالىٰ-: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]. ولم يرد في القرآن أو السنة الصحيحة اسمهم وورد في بعض الآثار وكتب التفسير أن اسمه عزرائيل، ولا تعارض بين هذه الآية التي تفيد أن الذي يتوفىٰ الخلائق ملك الموت، وبين ما جاء في قوله -تعالىٰ-: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، فإن ملك الموت يباشر قبض الروح، وذلك بأمر الله -تعالىٰ-، ثم تسلم روح المؤمن إلىٰ ملائكة الرحمة، وروح الفاجر إلىٰ ملائكة العذاب بعد قبضها، كما جاء في الحديث، فالله يتوفىٰ الأنفس؛ لأنه هو الآمر المقدر، ورسل الله من الملائكة يتوفون الأنفس؛ لأنها تسلم إليهم عند قبضها، وملك الموت يتوفاها؛ لأنه المباشر لقبضها، وبذلك تسلم النصوص من التعارض ويستقيم فهمها.

ويجب التصديق بجميع الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن والسنة، والتصديق بالأعمال التي أوكلها الله -تعالىٰ- إليهم، مثل الكرام الكاتبين والحفظة، قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]، وفي الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالىٰ عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ، قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»**[1].

تفضيل المطيع من بني آدم علىٰ الملائكة:

والصحيح أن المطيعين من بني آدم أفضل وأكرم عند الله -تعالىٰ- من الملائكة؛ لأن الله -تعالىٰ- خلق آدم بيديه تكريمًا له كما جاء في الحديث، ولم يثبت ذلك

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٨١٤.

للملائكة؛ ولأنه لما خلق آدم أمر الملائكة بالسجود له، وعلمه الأسماء كلها، فدل علىٰ تفضيله علىٰ الملائكة؛ ولأن طاعة الملائكة مجبولون عليها، فهم لا يقدرون علىٰ المعصية بأصل خلقتهم، فليست لهم إرادة تنازعهم إلىٰ المعصية، بخلاف الإنسان الذي يكابد الشهوات المركبة فيه، وقد أخبر الله -تعالىٰ- عن حال المؤمنين في الجنة بما يفيد تكريم الملائكة لهم، فقال -تعالىٰ-: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

الإيمان بالأنبياء والرسل

وظيفة الرسل:

يجب الإيمان بأنبياء الله -تعالىٰ- ورسله، والاعتقاد بأن الله -تعالىٰ- أرسلهم مبشرين ومنذرين، وأنهم جاءوا بالعدل والرحمة والهدىٰ ومحبة الناس، والحرص علىٰ ما ينفعهم، وإرشادهم إلىٰ الحق والخير، وتحذيرهم من الضلال والشر، وأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله -تعالىٰ-، قال -تعالىٰ-: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وجوب طاعتهم والإيمان بهم:

يجب علىٰ الناس جميعًا طاعتهم ومحبتهم وقبول تعاليمهم وهديهم، فإن طاعتهم من طاعة الله ﷻ، ومحبتهم من محبته، قال -تعالىٰ-: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

والإيمان بجميعهم علىٰ النحو المتقدم واجب، لا يصح إيمان المسلم بدونه، قال -تعالىٰ-: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾

[البقرة: ٢٨٥]. ومن فرق بينهم، فآمن ببعضهم وكفر ببعضهم، ولو بواحد منهم فهو كافر، قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠].

الإسلام دين الأنبياء جميعًا:

يجب الاعتقاد بأن دين الأنبياء جميعًا هو توحيد الله -تعالىٰ-، والدعوة إلىٰ عبادته، والاستسلام له، وهو معنىٰ ما جاء في القرآن أنهم جميعًا كانوا مسلمين، قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، فعلىٰ أهل الأديان أن يؤمنوا بالأنبياء جميعًا، وبما جاءوا به حتىٰ يكونوا مسلمين، وعدم الإيمان بواحد من الأنبياء هو كفر بجميعهم، فمن كفر بمحمد ﷺ وكذبه، فقد كفر بجميع الأنبياء، ولا يسمىٰ مسلمًا، ولو آمن بإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ -عليهم الصلاة والسلام-، ومن لم يؤمن بعيسىٰ أو موسىٰ -عليهما الصلاة والسلام-، فهو كافر بجميعهم أيضًا ولو ادعىٰ أنه يؤمن بمحمد ﷺ، ولا يكون مسلما، قال -تعالىٰ- عن الذين يفرقون بين رسل الله -تعالىٰ-، ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض: ﴿**أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا** وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥١]، وقد أخذ الله الميثاق علىٰ النبيين جميعًا أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وينصروه، قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]، وقال ﷺ لعمر: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَىٰ أَصْبَحَ فِيكُمْ موسىٰ ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الْأُمَمِ وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ**»[1]. ويسمي القرآن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ كفارًا، قال -تعالىٰ-: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ [البقرة: ١٣٧].

---

(١) مسند أحمد حديث رقم ١٥٤٣٧.

الرسول والنبي:

من أهل العلم من لا يرىٰ فرقًا بين الرسول والنبي، فكل منهما مرسل ليبلغ، ودليله قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥١]. ومنهم من يفرق بينهما، فالرسول: هو من أوحىٰ الله -تعالىٰ- إليه بشرع وأمره بتبليغه للناس. والنبي: هو من أوحىٰ الله -تعالىٰ- إليه بشرع، ولم يأمره بتبليغه للناس، بل ليتعبد به في خاصة نفسه، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسول، بينهما عموم وخصوص مطلق، فالنبي أعم، والرسول أخص.

قال القاضي عياض: وحجتهم من الآية السابقة نفسها، حيث فرقت بين الاسمين، ولو كانا شيئًا واحدًا لما حسن تكرارهما في الكلام البليغ، ومعنىٰ الآية علىٰ هذا: وما أرسلنا من قبلك من رسول إلىٰ أمة، أو نبي ليس مرسلًا إلىٰ أحد[١].

والنبوة نعمة يمن الله بها علىٰ من يشاء من عباده، ولا يبلغها أحد باجتهاده أو علمه أو استعداده العقلي، والوقوف في معرفتها إنما هو علىٰ إعلام الله ووحيه للنبي بأنه جعله نبيًا، لا بما دون ذلك، كمجرد إحساس الإنسان نفسه أو علمه بالنبوة.

وجميع رسل الله كلهم من الرجال، ولم يرسل الله -تعالىٰ- أنثىٰ قط، قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٣].

عدد الرسل وما يجب الإيمان به إجمالًا وتفصيلًا:

قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر: ٧٨].

وصحح ابن حبان حديث أبي ذر ﷺ أن عدد الأنبياء مائة وعشرون ألفًا، منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولًا[٢].

فيجب الإيمان إجمالًا بجميع أنبياء الله -تعالىٰ- ورسله الذين أوحىٰ الله -تعالىٰ- إليهم، بأن يؤمن المسلم بجميعهم، من عرف منهم ومن لم يعرف، ويجب الإيمان

---

(١) انظر الشفا ١/ ٢٣٢.

(٢) موارد الظمآن ص ٥٠٨.

تفصيلًا بمن قصهم الله علينا في القرآن، وهم خمسة وعشرون، منهم ثمانية عشر في قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦]. والباقون جاء ذكرهم في آيات أخرىٰ، قال -تعالىٰ-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٨٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾ [هود: ٦١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾ [هود: ٥٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ﴾ [الأعراف: ٨٥] فهذه جملة من ذكر الله -تعالىٰ- منهم في القرآن.

أولو العزم:

أولو العزم من الرسل هم الذين أوذوا إيذاء بليغًا من أقوامهم وصبروا علىٰ الابتلاء أكثر من غيرهم.

والعزم: قوة اليقين والصبر، قال -تعالىٰ-: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وأولو العزم خمسة، ذكرهم الله -تعالىٰ- في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

الصفات الواجبة للرسل:

يجب علىٰ المسلم أن يعتقد أن الرسل متصفون بالصدق والأمانة، والنصح وتبليغ الرسالة، والفطنة التي تؤهلهم لحمل الأمانة، وأن الله -تعالىٰ- اختارهم من أحسن الخلق خَلْقًا وهداية واستقامة وصلاحًا، وعصمهم ونزههم عن الخيانة والغدر والكذب وارتكاب الفواحش والكبائر من الذنوب، وكذلك الصغائر التي تخل بالمروءة. أما غيرها من الصغائر، فقد تقع منهم سهوًا أو اجتهادًا، ولكن لا يقرون

عليها[1]، قال -تعالىٰ-: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] ، وقال -تعالىٰ-: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقالت السيدة عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- عن رسول الله ﷺ: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**»[2]، وقال أنس: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا»[3].

ويجوز في حق الرسل كل الأعراض البشرية التي لا تخل بالمروءة، كالنوم والنسيان، والنكاح والجوع والعطش، ويتعرضون للأذىٰ والابتلاء من قومهم في سبيل دعوتهم إلىٰ الله -تعالىٰ-، وفي المعارك والحروب التي يخوضونها مع أعدائهم، قال -تعالىٰ-: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ﴾ [الرعد: ٣٨]، وتصيبهم الأمراض ويموتون، وقد يُقتلون بغير حق، قال -تعالىٰ- عن بني إسرائيل: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

فضْل نبينا محمد ﷺ:

فضّل الله -تعالىٰ- بعض الرسل علىٰ بعض، قال -تعالىٰ-: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وأفضلهم جميعًا

---

(١) هذا ما عليه مذهب الفقهاء والمتكلمين والمحدثين من السلف والخلف، قال القاضي عياض: وذهب جماعة من أهل التحقيق من الفقهاء من أئمتنا إلىٰ عصمتهم من الصغائر كلها، قال: وهذا المذهب هو الحق، انظر شرح مسلم ٣/ ٥٤.

(٢) مسند أحمد حديث رقم ٢٤٠٨٠.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم ٢٦٠٣.

نبينا محمد ﷺ، جاء في الصحيح، قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ القبر يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ**»[1]، وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**»[2].

وإخباره ﷺ عن نفسه بالسيادة من تمام التحدث بنعمة الله -تعالىٰ- عليه، وتمام نصحه للأمة، ليعرف الناس حقه وينزلوه منزلته، خصوصًا أنه لا نبي بعده يخبرنا بفضله كما أخبر هو بفضل الأنبياء قبله.

عموم رسالته ﷺ وأنه خاتم النبيين:

يجب الإيمان بأن نبينا محمدًا ﷺ آخر الأنبياء وأنه لا نبي بعده، ومن ادعىٰ النبوة بعده فقد كفر وكذب الوحي. قال -تعالىٰ-: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وفي الصحيح قال ﷺ: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجمَلَهُ، إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ به وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**»[3].

وفي الصحيح قال ﷺ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، الَّذِي يُمْحَىٰ بِيَ الْكُفْرُ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَىٰ عَقِبِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ**».

كما يجب الإيمان بأن نبينا محمدًا ﷺ مبعوث إلىٰ الناس كافة، عربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم وأصفرهم، وذلك من الأمور المعلومة في دين الإسلام بالضرورة، لا يسع المسلمَ إنكارُها، لشهرتها بين الناس، واتفاقهم عليها، قال -تعالىٰ-: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال -تعالىٰ- ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وفي الصحيح قال ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ**

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٢٧٨.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٢٧٦.

(٣) البخاري حديث رقم ٣٥٣٥.

يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عامّة»[1].

وفي الصحيح، قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[2]، وفي إرسال رسول الله ﷺ رسله وكتبه إلىٰ أنحاء الأرض، إلىٰ كسرىٰ وقيصر والنجاشي والمقوقس، وسائر ملوك الأرض يأمرهم باعتناق الإسلام والإيمان به، دليل علىٰ عموم رسالته ﷺ.

ويجب الإيمان بأنه مبعوث أيضًا إلىٰ الجن، قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١].

وجوب محبته وتقديمها علىٰ النفس والأهل:

من شروط صحة الإيمان أن يكون رسول الله ﷺ أحبّ إلىٰ المرء من نفسه ووالده وولده، وزوجه وماله وتجارته والناس أجمعين. قال -تعالىٰ-: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]. وفي الصحيح قال رسول الله ﷺ: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[3]. وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ**

---

(١) البخاري حديث رقم ٣٣٥.

(٢) مسلم حديث رقم ١٥٣.

(٣) البخاري حديث رقم ١٥.

إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ له عُمَرُ: فَإِنه الْآنَ وَاللهِ لأنت أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: النَّبِيُّ ﷺ: الْآنَ يَا عُمَرُ»[١].

وقد طبّق الصحابة هذه المحبة قولًا وعملًا، فكان أحدهم لا يخاطب رسول الله ﷺ إلا وفداه بنفسه وأبيه وأمه. ولم يعظم أحدا أصحابه كما عظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا. بعثت قريش عروة بن مسعود ليفاوض رسول الله ﷺ في صلح الحديبية فكان مما جاء في قوله لقريش بعد رجوعه إليهم: «أَي قَوْم، وَاللهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَىٰ الْمُلُوكِ، ووَفَدْتُ عَلَىٰ قَيْصَرَ، وَكِسْرَىٰ، وَالنَّجَاشِيِّ وَاللهِ، إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ ما يعظم أصحاب محمد مُحَمَّدا، وَاللهِ، إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً، إِلا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَىٰ وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّم خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عنده، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ»[٢].

وذكر عمرو بن العاص وهو علىٰ فراش الموت حاله في الدنيا وبكىٰ، وكان مما قاله لابنه يومئذٍ: «. . . وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ»[٣]. وكان الصحابة إذا حمي الوطيس، واشتد القتال يفدون رسول الله ﷺ بمهجهم وأرواحهم، ويجعلون أجسادهم دروعًا دونه، كان أبو طلحة بين يدي النبي ﷺ يوم أحد مجوبًا عليه بِحَجَفَة له، فإذا تطلع رسول الله ﷺ لينظر إلىٰ القوم قال له: . . . . . بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك[٤].

قال زيد بن ثابت: «بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع وقال لي: إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلىٰ، فأصبته، وهو في آخر رمق فقلت له: يا سعد، إن

---

(١) البخاري حديث رقم ٦٦٣٢.

(٢) البخاري حديث رقم ٢٧٣٤.

(٣) مسلم حديث رقم ١٢١.

(٤) البخاري حديث رقم ٣٨١١، والجَحَفة: الترس.

رسول الله ﷺ يقرئك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدُك؟ قال: علىٰ رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلىٰ رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه»[1].

المقياس الذي تعرف به محبة رسول الله ﷺ:

والمقياس الذي تعرف به محبة الإنسان لرسول الله ﷺ هو اتباع سنته وشريعته، وتقديمها علىٰ النفس ورغباتها، فإذا تعارضت رغبات النفس مع أمر من أمور الشريعة وهدي رسول الله ﷺ، وأعرض الإنسان عن هدي صاحب الشريعة، وتبع رغبات نفسه، فتلك علامة علىٰ أنه لم يكتمل إيمانه، ولم يقدم محبة رسول الله ﷺ علىٰ نفسه.

(١) دلائل النبوة ٣/٢٤٨، والحديث من مراسيل مالك في الموطأ، انظر التمهيد ٢٤/٩٤.

الإيمان بالكتب

يجب الإيمان إجمالًا بأن الله -تعالىٰ- أنزل علىٰ أنبيائه كتبًا تدعو إلىٰ التوحيد، وتهدي إلىٰ الحق والعدل والخير، قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ [الشورىٰ: ١٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

الكتب التي يجب الإيمان بها تفصيلًا:

١- القرآن الكريم الذي أنزله الله -تعالىٰ- علىٰ نبينا محمد ﷺ، قال -تعالىٰ-: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢].

٢- التوراة التي أنزلها الله -تعالىٰ- علىٰ سيدنا موسىٰ ﷺ، قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

٣- الإنجيل الذي أنزله الله -تعالىٰ- علىٰ سيدنا عيسىٰ -عليه الصلاة والسلام-، قال -تعالىٰ-: ﴿وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ﴾ [الحديد: ٢٧].

٤- الزبور الذي أنزله الله -تعالىٰ- علىٰ سيدنا داود -عليه الصلاة والسلام-، قال -تعالىٰ-: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء: ١٦٣].

٥- صحف سيدنا إبراهيم وصحف سيدنا موسىٰ -عليهما الصلاة والسلام-، قال -تعالىٰ-: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٦، ٣٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١٩، ٢٠].

القرآن الكريم مهيمن علىٰ ما قبله من الكتب:

ويجب الإيمان بأن القرآن الكريم هو آخر هذه الكتب وأنه مصدق للكتب التي جاءت قبله ومهيمن عليها، نسخت شريعته وأحكامه ما جاء قبله في تلك الكتب من الأحكام، فلا يعمل بما خالفه، ولو صحت نسبته إلىٰ تلك الكتب، قال -تعالىٰ-: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. وأن القرآن هو الكتاب الذي خصه الله -تعالىٰ- وميزه عن سائر الكتب الأخرىٰ بحفظه من التبديل والتحريف، قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، وذلك لأنه -سبحانه- تولىٰ حفظه بنفسه، علىٰ حين أوكل حفظ الكتب الأخرىٰ إلىٰ أصحابها، فقال -تعالىٰ- عن القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال -تعالىٰ- عن التوراة: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وليس حفظ الله -تعالىٰ- كحفظ البشر؛ لذا سلم القرآن، ووقع التحريف والنسيان فيما وصل إلينا من كتب اليهود والنصارىٰ. وقد أخبر الله عن تحريفهم لكتبهم وتزويرها، فقال -تعالىٰ-: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، ولذلك اشتملت كتب اليهود والنصارىٰ الموجودة الآن بين أيديهم علىٰ الشرك ونسبة الولد إلىٰ الله -تعالىٰ-، ووصف الأنبياء بما لا يليق بهم من الخيانة والغدر، وغير ذلك من الأمور الفاسدة، التي عصم الله -تعالىٰ- منها أنبياءه، ونسبوها هم إليهم زورًا وبهتانًا.

الإيمان بالقضاء والقدر

معنىٰ القضاء والقدر:

القضاء: من قولك: قضيتُ الشيء إذا حكمتَ به. والقدر: من قولك: قدرت الشيء أقدِره -بالكسر والفتح- قدْرا وقدَرا، إذا أحطت بمقداره.

والفرق بين القضاء والقدر، أن القضاء: هو الحكم الكلي الإجمالي الذي حكم الله -تعالىٰ- به في الأزل علىٰ جميع خلقه، والقدر: جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله. ومعنىٰ القضاء والقدر علىٰ وجه الإجمال: أن الله -تعالىٰ- علم مقادير الأشياء وأوقاتها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فما من شيء من أمور الدنيا والآخرة إلا هو صادر عن علمه وقدرته وإرادته[1].

وقضاء الله يتنوع إلىٰ نوعين: قضاء كوني، وقضاء شرعي، فالقضاء الكوني القدري يتعلق بما قدره الله -تعالىٰ-، سواء كان مما يرضاه ويحبه أو مما لا يرضاه، كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، فالله ﷻ لا يرضىٰ الفساد ولا يحبه. أما القضاء الشرعي فلا يتعلق إلا بما يحبه الله -تعالىٰ- ويرضاه، كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

الدليل علىٰ وجوب الإيمان بالقدر:

يجب علىٰ المسلم الإيمان بأن كل شيء يحدث في هذا الكون هو بتصريف الله وقضائه، وأنه مقدر ومراد منه ﷻ، فما من حركة ولا سكون في السماوات والأرض

---

(١) انظر فتح الباري ١٤/٢٧٧، ١/١٢٦.

إلا بمشيئة الله وقدرته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، قال -تعالىٰ-: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [القمر: ٤٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وفي الصحيح حديث جبريل في حقيقة الإيمان: «... **وَتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** ...»[١].

معنىٰ الإيمان بالقدر:

ومعنىٰ الإيمان بالقدر: التسليم بأن كل ما يحدث للإنسان في ذاته، وما يحدث في كون الله الواسع هو من الله -تعالىٰ-، أراده أن يكون كذلك، فلا يسع المسلم إزاءه إلا الرضا والقبول، فلا يسخط ولا يضجر، بل يصبر علىٰ ما يراه مكروها، ويفوض أمره إليه، كما كان رسول الله ﷺ يفعل إذا وقع المكروه، ويقول: «**قَدر اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**»[٢]، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فمن قهر نفسه بالتفويض والتسليم أول حصول المكروه، كان جديرًا بأن يعوضه الله -تعالىٰ- عن ذلك المكروه خيرًا تقر به نفسه، وينشرح له صدره.

ثمرة الإيمان بالقدر:

والإيمان بالقدر علىٰ النحو السابق يكسب الإنسان ثقة في نفسه، وعزيمة ماضية في الأمور، ويحميه من الخوف والتردد، ويجعل طريقه في الحياة واضحًا، لا يلتبس ولا يعوج، وذلك تنعكس آثاره -دون شك- علىٰ حياته انعكاسًا حسنًا بالقدرة علىٰ الاستفادة من وقته وإمكاناته علىٰ أحسن الوجوه، فالإيمان بالقدر يقضي علىٰ أحزان النفس وهمومها، وعلىٰ خوفها وجبنها، ويجعلها تقبل علىٰ المستقبل ومغيبات الأمور جريئة متفائلة، وذلك من أعظم مقومات النجاح والإحساس بالطمأنينة والسعادة.

فالمسلم إذا أيقن أن الفاعل الحقيقي والمدبر للأمور كلها هو الله -تعالىٰ-، وأنه لا حول ولا قوة إلا به، وأنه لن يصيبه من رزق وعلم وولد ونجاح وحظ وإخفاق.. الخ إلا ما كتب الله -تعالىٰ- له، كان ذلك رصيده من الثقة، التي تأخذ بيده إلىٰ كل

---

(١) مسلم حديث رقم ٨.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٦٦٤.

فلاح، قال -تعالىٰ-: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لابن عباس: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظْ اللَهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَت الْأَقْلَامُ، وَجَفَّت الصُّحُفُ**»[1].

فينبغي للمسلم حين يطلب أمرًا من أعمال الدنيا أو الآخرة أن يكون مستحضرًا أن الأمور كلها بيد الله، فهو الذي يقضي الحاجات، ويوفق للطاعات، ويفتح الرحمات ويمنع الرغبات، لا أحد غيره يعطي شيئًا أو يمنعه، قال -تعالىٰ-: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، فوسائل السعي والجد والأخذ بالأسباب كلها وسائط عادية، إذا أراد الله -تعالىٰ- أن تؤدي إلىٰ المطلوب أدت، وإذا لم يرد، حال بينها وبين ذلك بأسباب أخرىٰ هي مقضي بها في علم الله -تعالىٰ-، ومقدر وقوعها في الوقت الذي تحول فيه بين الإنسان وطلبه، وإذا علم الله -تعالىٰ- صدق توكل العبد عليه وتفويض كل أمره إليه، أعانه علىٰ أمره ووفقه في سعيه من حيث لم يحسب ولم يتوقع.

وهناك أمر آخر هو مدعاة لتوفيق الله للعبد وقضاء مطلوبه، عليه أن يحرص عليه. ذلك هو تقيّد الإنسان في سعيه الديني أو الدنيوي بأحكام الشريعة التي ارتضاها الله لعباده دينًا، فلا يسعىٰ في طلب منهي عنه، ولو كان ظاهر الأمر أن المصلحة فيه، أو أن تركه حرمان، فإنه إن ألزم نفسه بحدود الله وقهرها علىٰ الرضا بما أحلّه الله، وترك ما حرمه عليه ابتغاء مرضاته، عوضه الله من حيث لا يحتسب أجمل تعويض، عاجلًا أو آجلًا، فإن القدر غيب، والإنسان لا يعلم منه إلا أسبابًا ظاهرة، وتصريف ما غاب منه يصرفه الله -تعالىٰ- كيف يشاء، والله -تعالىٰ- لا يتخلىٰ عن المطيعين

---

(١) سنن الترمذي حديث رقم ٢٥١٦، وقال: حسن صحيح.

الذين يأتمرون بأوامره، ويقفون عند حدود شرعه، بل يهديهم إلىٰ ما ينفعهم، ويسوقهم إلىٰ ما فيه خيرهم وسعادتهم، قال -تعالىٰ-: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦]، وفي الصحيح قال ﷺ: «**عَجَبًا لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَه كُلَّهُ لهُ خَيرٌ وليسَ ذاكَ لأحَدٍ إلا للمُؤمنِ إنْ أصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكان خَيرًا لهُ، وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكان خَيرًا لهُ**»[١].

الرضا بالقدر لا ينافي الأخذ بالأسباب:

من عدل الله -تعالىٰ- وحكمته في هذا الكون أن وضع له قوانين ثابتة، يراها الناس بأبصارهم، ويقفون عليها بعقولهم، من هذه القوانين قانون الأسباب، فجعل -سبحانه- التقاء ماء الذكر مع الأنثىٰ سببًا في الخلق، وجعل الزرع سببًا في الإنبات، ووضع اليد في النار سببًا للاحتراق، والتردي من الطابق العلوي سببًا للهلاك، وجعل السعي والجد ثمرته النجاح، والعمل الصالح يؤدي إلىٰ مرضاة الله، والتداوي والرقَىٰ يؤدي إلىٰ الشفاء، إلىٰ غير ذلك. وهذه الأسباب هي من قدر الله أيضًا ففي الحديث: سئل النبي ﷺ: «**أَرَأَيْتَ رُقًىٰ نَسْتَرْقِيهَا وَدَوَاءً نَتَدَاوَىٰ بِهِ وَتُقَاةً نَتَّقِيهَا هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالَ هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ**»[٢]، والمسببات مرتبطة بأسبابها، ارتباطًا عاديًّا، ليس ارتباطًا عقليًّا، لا يتخلف البتة، بمعنىٰ أن الله -تعالىٰ- قدر لها هذا الارتباط المنطقي، الذي لا يتخلف في العادة، إلا إذا أراد الله -تعالىٰ- تخلّفه لحكمة، يكرم الله -تعالىٰ- بها بعض عباده، أو يقهرهم بها ويعذبهم، أو يؤيدهم وينصرهم، كما في معجزات الأنبياء التي أيّد الله -تعالىٰ- بها أنبياءه، وقهر بها أعداءه، وكما في الكرامات التي يظهرها الله -تعالىٰ- علىٰ أيدي الصالحين من عباده.

وبذلك يُعلم أن الأسباب لا تؤدي إلىٰ مسبباتها إلا بقضاء الله -تعالىٰ- وقدره، وليست بأنفسها، قال -تعالىٰ-: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٩٩٩.

(٢) سنن الترمذي حديث رقم ٢٠٦٥.

مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٦].

وقد أمر الله -تعالىٰ- الناس أن يأخذوا بقانون الأسباب بمفهومه السابق وأن يلتزموا به، ورتبت الشريعة علىٰ ذلك الثواب والعقاب ونتائج الأعمال، وبيّنت أن ذلك لا ينافي التوكل علىٰ الله -تعالىٰ-، ففي الصحيح قال ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِن الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ: قدر اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[1].

وقد أوجب الله -تعالىٰ- السعي، سواء فيما يتعلق بأمور الدنيا أو أمور الآخرة. قال -تعالىٰ-: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، وكان رسول الله ﷺ، وهو خير من توكل علىٰ الله -يخرج للجهاد، ويمشي في الأسواق للاكتساب.

وفي الصحيح قال ﷺ: «... **مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَىٰ كِتَابِنَا وَنَدَعُ العَمَلَ قَالَ اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ثُمَّ قَرَأَ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ. وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ**»[2].

واحترام قانون الأسباب والاعتداد به واضح في كل تكاليف الشريعة الإسلامية.

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٦٦٤.

(٢) البخاري حديث رقم ٤٩٤٩.

من ذلك أن الله -تعالىٰ- حرم الأسباب التي تؤدي إلىٰ الفساد، فحرم البغي والفتنة وسفك الدماء وكل ما يؤدي إلىٰ الهرج، وحرم الخمر والمخدر وكل ما يؤدي إلىٰ فساد العقل، وأمر بالطاعات والبر والمعروف والإحسان وإصلاح ذات البين؛ لأنها سبب لمرضاة الله -تعالىٰ-.

الإيمان بالقضاء لا ينافي الدعاء برفع البلاء:

الدعاء يرفع البلاء وسوء القضاء، لا يعارضه أن ما وقع به القضاء لا يرد، وأنه لا بد من نفاذه، لاحتمال أن يكون الله -تعالىٰ- قضىٰ بالبلاء والمصائب علىٰ العبد، وسبق في علمه أنه إذا دعا الله كشفها عنه، كما قال -تعالىٰ-: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وفي الصحيح: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ دَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ وَمِنْ جَهْدِ الْبَلاَءِ**»(١).

الاحتجاج بالقدر:

لا يجوز للإنسان أن يحتج علىٰ كفره أو معصيته أو عمله الفاسد بالقدر، ويقول: ما دام كل شيء في الوجود لا يكون إلا بإرادة الله وقدره فما ذنبي، والله هو الذي خلقني وخلق عملي، واختار لي ما أنه فاعله، هذه الدعوىٰ أخبر الله -تعالىٰ- أن الكافر يوم القيامة يقولها ليحتج بها علىٰ الله -تعالىٰ-، وأجاب الله -تعالىٰ- عنها -ولله الحجة البالغة: بأنها حجة باطلة، لا تغني عن صاحبها شيئًا، فالتمسك بها بعد التصريح في القرآن برد الله -تعالىٰ- إياها وإبطالها ضلال ومعصية، قال -تعالىٰ-: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، فالله ﷻ جعل المقدر للعبد من الشقاوة أو الهداية غيبا لم يطلعه عليه، وهو ما أشار إليه القرآن بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠] وركب فيه الاستعداد للطاعة والهداية، والاستعداد للمعصية والضلال، وأعطاه الحواس من السمع

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٧٠٧.

والبصر والعقل، وأنزل له الكتب، وأرسل له الرسل، كل هذه وسائل تدعوه إلىٰ الطاعة والهداية والخير، وركّب فيه شهوات حيوانية، وأطماعًا نفسية، ترتاح إلىٰ الغواية وتنكب طريق الحق، كما أشار إلىٰ ذلك القرآن: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨، ٩]، ولم يخبره عن الله أحد بأنه قدر عليه الضلال، أو اختار له الهداية، بل ترك اختيار أحد الطريقين إلىٰ رغبة الإنسان نفسه وإرادته الحرة التي خلقها الله -تعالىٰ- فيه، وزوده بها، كما خلق فيه قدرة الكلام فتكلم، وقدرة البصر فبصر، فكما أنه مسئول عن كلامه، وكلامه منسوب إليه مع أنه لولا قدرة الله -تعالىٰ- ما قدر عليه، هو مسئول عن إرادته واختياره وتصرفه، فهذا الاختيار وهذه الإرادة الحرة التي منحها الله -تعالىٰ- للإنسان، فكان بناء عليها يأتي ما يأتي ويترك ما يترك هي التي تحمّله مسئولية كل تصرفاته. والاختيار الممنوح للإنسان لا يستطيع عاقل أن يماري فيه، فهو ثابت شرعًا وعقلًا، أما شرعًا فإن الله -تعالىٰ- أثبت في القرآن للعبد مشيئة، ولم يجعله مسلوب الإرادة، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ إحالة، وقال -تعالىٰ-: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩].

وأما عقلًا، فلأن كل إنسان يدرك من نفسه بالضرورة الفرق بين من دخل الدار بإرادته، ومن أدخل السجن عقوبة له، وبين من لطم أحدًا علىٰ وجهه قاصدًا أذاه، وبين من سقط من الطابق العلوي فوقع علىٰ ظهر أحد فكسره. وكل إنسان يفرق بين حركة يد مشلولة، ترتعش دون إرادة، وحركة يد تتناول الخمر لتشربه، أو تأخذ المسدس لتقتل به، ومن لا يفرق بين ذلك لا يكون مع العقلاء.

ولا يمكن أن يكون الحكم علىٰ يد المرتعش ويد القاتل سواء، لا في شرع الله، ولا عند ذي عقل سوي. وما دامت للإنسان مشيئة فهو مسئول عن مشيئته؛ لأنه هو الذي عصىٰ الأمر وأكل الحرام وسفك الدماء وقطع الأرحام، وأفسد في الأرض، وهو مثاب عن عمله؛ لأنه هو الذي صلىٰ وزكىٰ وصام وحج وأمر بالمعروف، وأطاع ربه، قال -تعالىٰ-: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

ولو كان من يحتج بالقدر علىٰ معصيته صادقًا مع نفسه، وأن ذلك هو اعتقاده حقًّا لما غضب إذا ظلمه ظالم فسلب ماله وانتهك حرماته، إذ لو كان القدر عذرًا له يعفيه من المسئولية، لكان عذرًا لغيره أيضًا لا يستحق لوما عليه، وذلك في غاية الفساد؛ لأنه يؤدي إلىٰ رفع العقوبة علىٰ الجرائم، وإلىٰ ترك الناس فوضىٰ يفعلون ما يشاءون دون رادع، احتجاجًا بالقدر في زعمهم.

فالإنسان مسئول عن أعماله والاحتجاج بالقدر ضلال؛ لأن الله -تعالىٰ- كلفنا بالعمل ولم يحملنا مسئولية القدر لأنه غيْب عنا، وما ورد من محاجة آدم موسىٰ عليهما السلام وقوله له: «كيف تلومونى علىٰ أمر قدره الله علي قبل أن أخلق». وقول النبي ﷺ: «**فحج آدم موسىٰ**» فهذا لأن آدم عليه السلام علم أن الله غفر له وقبل توبته، قال -تعالىٰ-: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فمن علم أن الله غفر له وتاب عليه لا يترتب علىٰ احتجاجه بالقدر محذور؛ لأن اللوم علىٰ الذنب شرعي لا عقلي، فإذا علم ارتفاع الذنب بالشرع فليس هناك محذور يترتب علىٰ الاحتجاج بالقدر وهو ما فعله آدم عليه السلام، بخلاف غيره ممن لم يطلعه الله علىٰ ما يئول إليه أمره.

أفعال العباد والأخذ بالأسباب:

الأخذ بالأسباب واجب، ونصوص القرآن والسنة تطلب ذلك من الناس، وتكرر الطلب بما لا يسع المسلم إغفالُه ولا تجاهله، فمن قعد عن الأسباب جملة، أو سلك الأسباب التي تؤدي إلىٰ ما حرمه الله، فقد عصىٰ الله ورسوله من البداية، مهما كانت حجته علىٰ ذلك؛ لأن الله -تعالىٰ- أمره بأمر فعصاه، فلسان حاله يقول: لا أفعل ما أمرني الله -تعالىٰ- به، وذلك كاف لاستحقاقه عذاب الله وغضبه[1].

(١) هذا هو الصحيح في مسألة أفعال العباد وقد خالفوا في ذلك من أصحاب الفرق الأشاعرة والمعتزلة والجبرية: ١- الكسب عند الأشاعرة: عبر الأشاعرة عن أفعال العباد بالكسب، فقالوا: أفعال العباد هي كسب العبد لا فعله، وعرفوا الكسب بأنه مقارنة القدرة الحادثة للفعل من غير تأثير فيه، فقيدوها بقولهم من غير تأثير فيه فرارًا من قول المعتزلة بأن العبد خالق لأفعاله، وقالوا بأن للعبد كسبًا فرارًا من قول الجبرية بأن الإنسان مسلوب الإرادة بالكلية، لكن حقيقة الأمر أن فرارهم من قول المعتزلة أوقعهم في جبر مخفف، وهو ما عبروا عنه بقولهم الإنسان مضطر في صورة مختار. حتىٰ إن الرازي قال: عند التحقيق يظهر أن الكسب اسم بلا مسمىٰ فتفريقهم بين الفعل والكسب غامض غير واضح، حتىٰ إن منهم من يسمي الكسب فعلًا بين فاعلين فما يصدر من العباد ليس هو عندهم من فعل الله، ولا هو من فعل العبد، فلو كان من فعل الله للزم حسب =

من طلب الهداية هداه الله:

المتبع لآيات القرآن الكريم يجدها تؤكد علىٰ حقيقة ثابتة لا تتخلف، وهي أن الله ﷻ لا يخذل من بذل جهده، وأعطىٰ ما في وسعه، وسعىٰ إلىٰ الخير ما استطاع، وأن من اختار الطريق الأخرىٰ خذله وأضله وطبع علىٰ قلبه. فمن طلب الهداية هداه الله، ومن أعطىٰ وتصدق يسره لليسرىٰ، ومن جاهد في الله أنار له سبيله، ومن تكبر وتجبر طبع الله علىٰ قلبه، ومن ظلم أضله الله، ومن زاغ أزاغ الله قلبه. فتوفيق الله للعبد وهدايته إلىٰ الخير يكون لمن حرص علىٰ ذلك، وأخذ بأسباب الهداية وعزم علىٰ الطاعة، وخذلان العبد وإضلاله وسوقه إلىٰ الخيبة وسوء المصير يكون لمن فرط ونكص علىٰ عقبيه، وضل طريقه، قال -تعالىٰ-: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠]، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ

= قولهم أن يكون الله متصفًا بالظلم، وهذا باطل، ولو كان من فعل العبد لكان العبد مشاركًا لله في القدرة، لذا ففعل الإنسان ينسب إليه كسبًا لا خلقًا، وقد تبين ضعف هذا التفريق.

٢- العدل عند المعتزلة: يقول المعتزلة إن العبد يفعل الأشياء بقدرته ومشيئته هو، حتىٰ أنهم قالوا: المقتول لم يمت بأجله وإنما بفعل القاتل وإنما قطعه القاتل ولولاه لعاش، واستدلوا علىٰ ذلك بقوله -تعالىٰ-: وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب. والرد عليهم بأن هذه الآية وأمثالها مما يدل علىٰ زيادة العمر بالصدقة وصلة الرحم ونحو ذلك محمول علىٰ ما في اللوح المحفوظ، لا ما في علم الله الذي هو أم الكتاب، فإنه لا يتغير ولا يتبدل إلا أنهم قالوا: إن العبد يفعل بقدرة خلقها الله فيه، لأنه لو لم يكن العبد يفعل ما يشاء بقدرته لما صح أن يعاقب علىٰ أفعاله؛ لأن عقوبته علىٰ ما لم يفعله من الظلم، والله منزه علىٰ الظلم لذا جعلوا أصولهم الخمسة تقوم علىٰ العدل والوعد والوعيد والتوحيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف.

٣- القول بالجبر: ممن يقول بالجبر الجهمية فهم يقولون: الإنسان ليست له إرادة فهو كالريشة المعلقة في الهواء فلا يوجد تأثير للأسباب عندهم في مسبباتها، واستدلوا علىٰ ذلك بقول النبي ﷺ: «**فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ لا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا**» صحيح البخاري رقم ٧٤٥٤، وأجيب عن هذا بأن النبي ﷺ عندما ذكر ذلك: أفلا نتكل علىٰ كتابنا وندع العمل؟ قال ﷺ: لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له. صحيح البخاري رقم ٤٩٤٩.

ﭐللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥]، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وفي الصحيح قال ﷺ: «**فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[1].

الشر لا يُنسب إلىٰ الله -تعالىٰ-:

علىٰ المسلم أن يعتقد أن جميع ما في السماوات والأرض من الخير والشر، والحركات والسكنات، والأوامر والنواهي، وما كان وما هو كائن كله مخلوق لله -تعالىٰ-، مقضي به، وفق مشيئة الله -تعالىٰ- وإرادته وعلمه، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فكل ما يكون في الوجود هو بقضاء الله وقدره، قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، لكن الشر لا ينسب إلىٰ الله -تعالىٰ-، فلا يقال: الله خالق الشر، وذلك لما يأتي:

١- ما يقترفه العبد من الذنوب والشر والآثام، فهو -وإن قدره الله- فهو من كسب العبد وبسببه، ولذلك فهو منسوب إليه، ولا ينسب إلىٰ الله -تعالىٰ-؛ لأنه نهىٰ عنه وحذر منه، وأمر بضده. والعبد اختار من نفسه الشر وفعله فهو من عمله وكسبه، قال -تعالىٰ- عن المنافقين: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٨]. فالكل من عند الله إيجادًا وقدرًا، ثم رد الله -تعالىٰ- عليهم ووصفهم بأنهم لا يفقهون كلام الله ولا ينزلونه منازله، فإن الأشياء وإن كانت كلها من عند الله إيجادًا وقدرًا، فإن السيئات والبلايا إنما تنسب إلىٰ أصحابها الذين عملوا ما يستحقون به تلك البلايا، ولذلك قال -تعالىٰ-: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩، ٨٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

---

(١) البخاري حديث رقم ٧٥٥١.

٢- الله ﷻ لا يرضىٰ لعباده الكفر، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يحب الفساد، وكل أحكامه وأوامره حكمة وخير، فلا ينسب إليه فعل الشر؛ لأنه أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، الخير بيديه والشر ليس إليه، فلا يقال: الله خالق الشر؛ لأن ما قدره من الشر ليس شرًّا محضًا، بل فيه حكمة ومصلحة، وهو خير وإحسان مراعاة لهذه الحكمة. فما يصيب الإنسان من ألم ومرض وفقر وخوف كل ذلك فيه رحمة ومصلحة عرفنا بعضها، كالابتلاء والتمحيص، وتكفير الذنوب، ورفع الدرجات، وخفي علينا بعضها.

فالله -تعالىٰ- لم يخلق الشر لأنه شر، بل خلقه للحكمة المترتبة عليه. فلو نزل المطر مثلًا في ليلة شتاء باردة، فأصاب من كان يبيت في العراء وليس له مأوىٰ، فنزول المطر بالنسبة إليه سوء وأذىٰ، لكن الله -تعالىٰ- أنزله لمنافع تنفع البلاد والعباد، وهو يعلم أن أذاه يصيب فلانًا من الناس، وله في إصابته به حكمة، إما عقوبة له بعصيانه، وإما ابتلاء وتمحيصًا، لرفع منزلته، وإما غير ذلك.

ولذلك قال -تعالىٰ-: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ولما سألت الملائكة الباري ﷻ: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قد يقال إن من القضاء ما هو في نظر الناس شر محض، كالقضاء علىٰ الكافر بالكفر، فلا تظهر في ذلك وجه مصلحة له مع أن الله قدره، فالجواب: كون ذلك شرًّا هذا صحيح، ولكنه شر في حق المخلوقين، وأما في حق الخالق فإنه يفعل ما يشاء، والشر لا يعرف كونه شرًّا إلا لنهي الله -تعالىٰ- عنه، والباري ﷻ فوق ذلك كله، فليس أحد ينهاه عن شيء، فلا يصح الحكم عليه بقانون المخلوقين.

ولو أن الله -تعالىٰ- عذب أهل السماء وأهل الأرض لعذبهم، وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم كما جاء في الحديث[1].

---

(١) أبو داود حديث رقم ٤٦٩٩.

كراهية الخوض في القدر:

القدر من الغيب الذي ستره الله -تعالىٰ- عن العباد، فهو سر من أسراره، اختص به وحجبه عن عقول الخلق، لما علمه من الحكمة في ذلك. فلم يعلمه نبي مرسل ولا مَلك مقرب[1]، وكان السلف الصالح أصحاب رسول الله ﷺ، وكبار التابعين -خير القرون- وهم القدوة- يكتفون في مسألة القدر بالإيمان بأن الله -تعالىٰ- علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل أمر في الوجود هو صادر عن علمه وقدرته وإرادته، وأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ولا يزيدون علىٰ ذلك. فلا يكلفون أنفسهم البحث عن أسرار القدر، مثل: هل الإنسان مسير أو مُخير؟ وإذا كان مسيرًا فكيف يعذبه الله -تعالىٰ- عن فعله وهو مسلوب الإرادة؟، وإذا كان مخيرًا فأين قدرة الله التي يخضع لها كل شيء في الوجود؟. بل كانوا يحذرون من ذلك، ويفوضون أمور القدر كلها إلىٰ الله، قال -تعالىٰ-: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وفي حديث عمرو بن شعيب، قال: «خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: وكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب قال: فقال لهم: ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض، بهذا أهلك من كان قبلكم»[2]، وروي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: «**إذا ذُكر القدر فأمسكوا**»[3].

---

(١) انظر فتح الباري ١٤/٢٧٧.

(٢) المسند مع الفتح الرباني ١/١٤٢، وسنن ابن ماجه ١/٣٣، وقال البوصيري في زوائد ابن ماجه: إسناد صحيح ورجاله ثقات، وقوله: (وكأنما تفقأ في وجه حب الرومان) أي احمر من الغضب.

(٣) قال الحافظ في فتح الباري ١٤/ ٢٧٧: أخرجه الطبراني بسند حسن.

علامات الساعة

الساعة لا يعلم وقتها إلا الله:

يجب على المسلم أن يؤمن بأن الساعة حق وأنها آتية لا ريب فيها، قال -تعالىٰ-: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]، ويجب الإيمان أن وقت مجيئها لا يعلمه إلا الله -تعالىٰ-، فلا يجوز لأحد أن يدعي علم ذلك، ولا يُصدق من أخبر عنها رجمًا بالغيب، أو مدعيًا حسابًا وعلمًا يوصله إلىٰ ذلك، ومن ادعىٰ بأن الولي الفلاني قال بوقوعها في القرن الماضي، أو في عام كذا، فهو كذاب مفتر مكذب للقرآن، قال -تعالىٰ-: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وفي الصحيح من حديث جبريل حين سأل رسول الله ﷺ عن الساعة، قال له: «**مَا الْمَسْئولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ بِهَا مِنَ السَّائِلِ**»[1]، ثم ذكر له أنها في خمسة أشياء لا يعلمهن إلا الله -تعالىٰ-، وتلا قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقد ذكر لنا النبي ﷺ علامتها، ونوع العلماء هذه العلامات إلىٰ نوعين؛ علامات كبرىٰ ملاصقة للساعة، وعلامات صغرىٰ سابقة عن ذلك.

---

(١) البخاري حديث رقم ٥٠.

العلامات الصغرىٰ:

من العلامات الصغرىٰ التي ذكرها النبي ﷺ ما جاء في الصحيح من حديث جبريل المتقدم: «**وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ**»[1]، ومعنىٰ ولدَت الأمة ربتها: إذا ولدت المرأة من يربيها، أو من يسوء معاملتها ويعقها ويسبها ويضربها، كما يعامل السيد أمته. والمراد أن من علامات الساعة انعكاس الأمور، واختلال المقاييس، وانقلاب الموازين، بحيث يصير السافل عاليا، ومن يستحق التربية والتأديب يصير مؤدبًا مربيًا، وهو معنىٰ ما جاء في الحديث الآخر المُخرج في الصحيح عندما سئل النبي ﷺ: متىٰ الساعة؟، قال «**إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِر السَّاعَةَ**»[2]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «**مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَقِلَّ العِلْمُ، وَيَظْهَرَ الجَهْلُ وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، حَتَّىٰ يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ**»[3].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة، قال ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّىٰ يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ**»[4]، وقال ﷺ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ ويَقْرُنُ بين إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ والْوُسْطَىٰ**»[5].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة، قال -رسول الله ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ، يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ دَعْوَتُهُمَا وَاحِدَةٌ وَحَتَّىٰ يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ وَحَتَّىٰ يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ وَهُوَ الْقَتْلُ وَحَتَّىٰ يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ**

---

(١) البخاري حديث رقم ٥، والبُهم: السود، ويصح أن يكون صفة للرعاة، ويصح أن يكون صفة للإبل.

(٢) البخاري حديث رقم ٥٩، وُسِّد: أي أُسند.

(٣) البخاري حديث رقم ٨١، وكثرة النساء قد تكون بسبب كثرة الفتن والحروب، فيكثر القتل في الرجال فيقلون ويكثر النساء، وقد يكون أن الله ﷻ يقدر في آخر الزمان أن من يولد من الإناث أكثر ممن يولد من الذكور.

(٤) مسلم حديث رقم ٢٩٢٢، والغَرْقد: نوع من شجر الشوك، قيل: هو العوسجة العظيمة، وهو شجر معروف ببيت المقدس.

(٥) مسلم حديث رقم ٨٦٧.

حَتَّىٰ يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ وَحَتَّىٰ يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ لَا أَرَبَ لِي بِهِ وَحَتَّىٰ يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ وَحَتَّىٰ يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ وَحَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ يعني آمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَىٰ فِيهِ، فَلَا يَطْعَمُهَا»[1]. وفي حديث عبد الله بن عمرو: «لا تقوم الساعة حتىٰ تتسافدوا في الطريق تسافد الحمير»[2].

العلامات الكبرىٰ:

علامات الساعة الكبرىٰ التي تضمنها حديث حذيفة بن أسيد عند مسلم، هي: خروج الدجال، ونزول عيسىٰ ﷺ، وظهور يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة تكلِّم الناس، وطلوع الشمس من مغربها، وخسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، والدخان، والريح التي تقبض أرواح المؤمنين، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلىٰ محشرهم[3]، وفيما يلي بيان ما يحتاج إلىٰ تفصيل:

١- خروج الدجال:

ويسمىٰ المسيح الدجال -بالحاء والخاء- وهو رجل، ذكر رسول الله ﷺ من صفته أنه أعور العين اليمنىٰ[4]، كذاب، يدعي الألوهية، يمكث في الأرض أربعين يومًا، مكتوب علىٰ جبهته أنه كافر (ك ف ر)، يقرأ ذلك كل مؤمن كاتب وغير كاتب، يفتن الناس عن دينهم بما أعطي من خوارق العادات وغرائب الأمور، فيثبت من أراد الله تثبيته من المؤمنين، فيعلمون أنه الدجال ولا ينخدعون به، ويضل الله -تعالىٰ-

---

(١) البخاري حديث رقم ٧١٢١.

(٢) مختصر زوائد مسند البزار ٢/ ١٨٤، وقال: صحيح، والتسافد من السِّفاد: نزو الذكر علىٰ الأنثىٰ.

(٣) انظر شرح مسلم ١٨/ ٢٨.

(٤) جاء في الحديث المتفق عليه أنه أعور العين اليمنىٰ، وورد في صحيح مسلم من حديث حذيفة: (أعور العين اليسرىٰ)، قال القاضي عياض: المطموسة والممسوحة التي ذهب نورها هي اليمنىٰ، واليسرىٰ طافية (بارزة) والعور فيها بمعنىٰ العيب وليس ذهاب البصر)، انظر فتح الباري ١٦/ ٢١١، ومسلم حديث رقم ٢٩٣٤.

آخرين، ولا يتبعه إلا كافر أو منافق، ويظهر علىٰ الأرض كلها إلا مكة والمدينة فلا يدخلها، قال ﷺ: «**لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ**»[1].

وفي حديث النواس بن سمعان، قال: «**ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ**[2] **حَتَّىٰ ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْه عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ حَتَّىٰ ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ فَقَالَ: غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ**[3] **فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ**[4] **عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُه بِعَبْدِ الْعُزَّىٰ بْنِ قَطَنٍ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهف إِنَّه خَارج خَلَّةً**[5] **بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ فاثْبُتُوا. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا لُبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَذَلِك الْيَوْمَ الَّذِي كَسنَةٍ أتَكْفِينَا فِيهِ صَلاةُ يَوم؟ قَالَ: لَا اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ. قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ فَيَأْتِي عَلَىٰ الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ**[6]**. ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ**[7] **لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ**[8]**، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلا مُمْتَلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ**

---

(١) البخاري حديث رقم ١٨٨١.

(٢) خفَّض: أي حقر من شأنه، ورفَّع: أي فخَّم، ومن تفخيمه فتنته والمحنة به.

(٣) وهذا محمول علىٰ أن ذلك كان قبل أن يتبين للنبي ﷺ وقت خروجه، فجوز أن يخرج في حياته، ثم بين الله -تعالىٰ- له تأخر خروجه، انظر فتح الباري كتاب الفتن ١٦/ ٢٠٩.

(٤) القطط: شديد جعودة الشعر.

(٥) الخلة: المكان بين البلدين، مثل نقطة الحدود بين البلدين.

(٦) فتروح عليه سارحتهم ... إلخ: المعنىٰ أن الماشية التي تسرح أول النهار إلىٰ المرعىٰ ترجع آخر النهار ممتلئة شحمًا مرتفعة الأسنمة كبيرة الضروع لامتلائها باللبن.

(٧) ممحلين، المحل: يبْس الأرض من العشب من قلة المطر.

(٨) يعاسيب النحل: أي جماعة النحل.

بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ[1] ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ»[2].

وفي الصحيح من حديث أبي مسعود وحذيفة -رضي الله تعالىٰ عنهما-، عن النبي ﷺ: «**إِنَّ مَعَهُ نَهْرًا مِنْ مَاءٍ وَنَهْرًا مِنْ نَارٍ فَأَمَّا الَّذِي تَرَوْنَ أَنَّهُ نَارٌ مَاءٌ، وَأَمَّا الَّذِي تَرَوْنَ أَنَّهُ مَاءٌ نَارٌ. فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَأَرَادَ الْمَاءَ فَلْيَشْرَبْ مِنَ الَّذِي يَرَاهُ أَنَّهُ نَارٌ فَإِنَّهُ سَيَجِدُهُ مَاءً. قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ: هَكَذَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ»**[3].

وكان النبي ﷺ يستعيذ في صلاته من فتنة الدجال.

٢- نزول عيسىٰ عليه السلام:

يجب علىٰ المسلم أن يعتقد أن عيسىٰ -عليه الصلاة والسلام- لم يقتله اليهود -وإن شُبه لهم ذلك- بل رفعه الله -تعالىٰ- إليه، وأنه لا يزال في السماء، ينزل في آخر الزمان بأمر الله -تعالىٰ-، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية، وينصر الحق، ويقيم العدل في الأرض، ويحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ، ويقتل المسيح الدجال، ثم يبقىٰ ما شاء الله له في الأرض، ثم يموت ويُدفن. قال الله -تعالىٰ- مكذبًا لليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٨]، وقد وقعت الإشارة في القرآن إلىٰ نزوله، قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، قال الحسن في معنىٰ ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾: أي قبل موت عيسىٰ عليه السلام، والله إنه لحي الآن عند الله، ولكنه إذا نزل آمنوا به أجمعون[4].

وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ [الزخرف: ٥١][5]، وفي الصحيح من حديث النواس بن سمعان المتقدم: «**فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ[6] وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَىٰ**

---

(١) جزلتين: أي قطعتين، ورمية الغرض: أنه يكون بين القطعتين مسافة رمية السهم.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٩٣٧.

(٣) مسلم حديث رقم ٢٩٣٥.

(٤) انظر التمهيد ١٤/ ٢٠٤، وتفسير القرطبي ٦/ ١١.

(٥) وانظر تفسير القرطبي ١٦/ ١٠٤.

(٦) مهرودتين: أي لابس ثوبين مصبوغين.

أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ[1] فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ فَيَطْلُبُهُ حَتَّىٰ يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يَأْتِي عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ»[2].

٣- خروج يأجوج ومأجوج: جأجوح

يأجوج ومأجوج هم قوم من البشر مفسدون، عددهم كثير، لا يعلمه إلا الله -تعالىٰ-، يخرجون في أيام نزول عيسىٰ ﷺ بعد قتله الدجال، فيهلكهم الله جميعًا في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم[3].

وقد ذكر الله -تعالىٰ- يأجوج ومأجوج في القرآن وخروجهم، فقال -تعالىٰ-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٨٩-٩٨]، **«وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَىٰ بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ حَتَّىٰ يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَىٰ كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ فَلَا**

(١) والمعنىٰ: إن الماء يتحدر منه كاللؤلؤ في صفائه.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٩٣٧.

(٣) انظر العقيدة الطحاوية ص ٤٤٨.

يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ اللهِ فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ يَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّىٰ أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ»(1).

٤- طلوع الشمس من مغربها:

من علامات الساعة العظمىٰ خروج الشمس من جهة الغرب علىٰ خلاف العادة، وذلك عندما يريد الله -تعالىٰ- ذلك، إيذانًا ببداية التغيرات العظيمة في العالم العلوي المؤذنة بقيام الساعة، وحينئذ لا تقبل توبة من لم يتب، ولا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، ولا ينفع العمل الصالح من لم يعمل قبل ذلك، قال -تعالىٰ-: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فالمراد ببعض آيات ربك عند جمهور المفسرين طلوع الشمس من مغربها.

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة المتقدم: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**»(2)، والناس إذا شاهدوا ذلك حصل لهم الإيمان الضروري بالمعاينة، ولم يبق للإيمان بالغيب موضع، فهو إيمان المضطر، كالإيمان عند الغرغرة وخروج الروح، وهو إيمان فرعون الذي رده الله -تعالىٰ- عليه عند الغرق.

٥- خروج الدابة:

خروج دابة تكلم الناس من الآيات الكبرىٰ لقيام الساعة، وقد وقعت الإشارة إليه

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٩٣٧، ومعنىٰ فيرغب نبي الله عيسىٰ: أي يدعو الله، والنَّغَف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم، وفرسىٰ: قتلىٰ، وزهمهم: دسمهم، والبخت: نوع من الإبل، ولا يكُنّ: لا يمنع من نزول المطر، ومدر: الطين اليابس، وكالزلفة: كالمرآة في صفائها، والعصابة: الجماعة، وبقحفها: تدوير قشرتها، والرِّسْل: اللبن، واللقحة: الناقة القريبة العهد من الولادة، والفئام: الجماعة الكثيرة، انظر شرح مسلم ١٨/ ٦٨.

(٢) البخاري حديث رقم ٤٦٣٥.

في القرآن، قال -تعالىٰ-: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]، وهي من الآيات التي يقفل مع خروجها باب التوبة، فهي مصاحبة لطلوع الشمس من مغربها أو قريبة منها، ففي الصحيح قال ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ ضُحًىٰ وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالأُخْرَىٰ عَلَىٰ إِثْرِهَا قَرِيبًا**»(١).

وتخرج الدابة لتكلم الناس وتميز المؤمن من الكافر، تكميلًا للمقصود من إغلاق باب التوبة.

٦- الريح التي تقبض أرواح المؤمنين:

في حديث النوّاس بن سمعان المتقدم: «... **فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ**»(٢)، وفي الصحيح عن عائشة قالت: قال ﷺ: «... **ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَوَفَّىٰ كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَيَبْقَىٰ مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ دِينِ آبَائِهِمْ**»(٣)، وفي حديث عبد الله بن عمرو في الصحيح عن النبي ﷺ: «... **ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ فَلَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ حَتَّىٰ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبَدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ تَقْبِضَهُ. قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: فَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السِّبَاعِ لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا فَيَتَمَثَّلُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ**»(٤)، وفي رواية: «**وَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ**»(٥).

فالأحاديث الصحيحة تدل علىٰ أن الساعة لا تقوم إلا علىٰ شرار الخلق وأنه

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٩٤١.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٩٣٧.

(٣) مسلم حديث رقم ٢٩٠٧.

(٤) مسلم حديث رقم ٢٩٤٠.

(٥) مسلم حديث رقم ٢٩٣٧، ويتهارجون تهارج الحمر: أي يجامع الرجال النساء أمام الناس كما يفعل الحمير.

لا يبقىٰ إلا من لا خير فيه يومئذ فتأخذهم الساعة بغتة، ولا ينظرون، جاء في الصحيح قال ﷺ: «**تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلُ يَحْلُبُ اللِّقْحَةَ فَمَا يَصِلُ الإِنَاءُ إِلَىٰ فِيهِ حَتَّىٰ تَقُومَ، وَالرَّجُلاَنِ يَتَبَايَعَانِ الثَّوْبَ فَمَا يَتَبَايَعَانِهِ حَتَّىٰ تَقُومَ، وَالرَّجُلُ يَلِطُ فِي حَوْضِهِ فَمَا يَصْدُرُ حَتَّىٰ تَقُومَ**»[1]، وفي رواية: «... **وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلا يَتَبَايَعَانِهِ وَلا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ** أحدكم **أُكْلَتَهُ إِلَىٰ فِيهِ فَلا يَطْعَمُهَا**»[2].

(١) مسلم حديث رقم ٢٩٥٤.

(٢) البخاري حديث رقم ٥٦٠٦.

العالم الآخر

أحوال العالم الآخر لا تخضع للقياس:

يعاين الإنسان مشاهد العالم الآخر من حين الاحتضار ووقوفه علىٰ أعتاب الموت، ثم تتابع عليه المواقف بعد ذلك حتىٰ تنتهي به إما إلىٰ الجنة، وإما إلىٰ النار.

وعالم ما بعد الموت يجب علىٰ الإنسان أن يسلم فيه بما ثبتت صحته من نصوص الوحي، ولا يزيد ولا ينقص، فلا يقيس تلك الأمور الغيبية بعقله، ولا يزنها بميزان الدنيا، فإن لكل عالم مقاييسه وموازينه، فإذا استُعملت مقاييس عالم في عالم آخر اختلت المقاييس وتناقضت الموازين، وضل القائس الطريق، كمن يريد أن يقيس السماوات وبُعد ما بين الأفلاك والمجرات بالسنتيمترات، بدل السنين الضوئية، فإنه يُفني عمره ولن يظفر بطائل. فأحوال العالم الآخر كلها من أمور الغيب التي يجب التسليم والإيمان بها علىٰ النحو الذي جاء في القرآن وسنة النبي ﷺ، وهي أمور لا يعترض عليها بعقل ولا قياس، ومن توقف فيها أو اعترض، فقد خسر وحُرم الإيمان. وقد جاء في القرآن والسنة الصحيحة وصف لكثير من هذه المشاهد، وفائدة ذلك أن يتنبه الناس لما هم صائرون إليه، فيحملون أنفسهم علىٰ الأخذ بالأسباب التي تنجيهم من عذاب الله وأهوال ما بعد الموت، ويتضرعون إليه -تعالىٰ- أن يخفف عنهم شدة تلك المواقف[1].

وفيما يلي عرض هذه المشاهد التي يمر بها الإنسان من حين الاحتضار إلىٰ أن ينتهي به الأمر إما إلىٰ النعيم وإما إلىٰ الجحيم -أعاذنا الله تعالىٰ من النار بفضله وكرمه-.

---

(١) انظر فتح الباري ١٤/١٨٦.

أحوال الموت والبرزخ[1]

الموت:

الموت يكون عند انتهاء الأجل، بخروج النفس ومفارقتها للبدن، ويتولىٰ قبضها ملك الموت الذي وكل بقبض الأرواح، والموت له شدة وسكرات، قال -تعالىٰ-: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [سورة ق: ١٩]. وشدة الموت ومكابدته علىٰ المؤمن أثناء خروج الروح، أو سهولته ويسره لا تعني شقاء الإنسان أو سعادته، فقد يشتد الموت علىٰ السعيد لرفع درجته، وقد يسهل علىٰ العاصي لحكمة يعلمها الله -تعالىٰ-، ففي الصحيح عن عائشة قالت: «**إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ، فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّه إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ، ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَىٰ حَتَّىٰ قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ**»[2]. وكانت عائشة تقول: «**مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَإِنَّهُ لَبَيْنَ حَاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي، فَلا أَكْرَهُ شِدَّةَ الْمَوْتِ لأَحَدٍ أَبَدًا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ**»[3]، وفي الصحيح عنها قالت: «**مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشَدَّ عَلَيْهِ الوَجَعُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»[4]، وفي رواية عنها: «**ما أَغْبِطُ أَحَدًا بِهَوْنِ مَوْتٍ بَعْدَ الَّذِي رَأَيْتُ مِنْ شِدَّةِ مَوْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»[5].

---

(١) البرزخ: ما بعد الموت إلىٰ القيامة.

(٢) البخاري حديث رقم ٦٥١٠، وفي الرفيق الأعلىٰ: أي مع جماعة الملائكة والنبيين في أعلىٰ عليين، انظر فتح الباري شرح حديث رقم ٦٥١٠.

(٣) البخاري حديث رقم ٤٤٤٦، والمراد بـ (حاقنتي وذاقنتي): أنه ﷺ مات وهي مسندة له علىٰ صدرها، وهو معنىٰ الحديث الآخر (بين سحري ونحري).

(٤) البخاري حديث رقم ٥٦٤٦.

(٥) الترمذي حديث رقم ٩٧٩، وانظر عارضة الأحوذي ٤/٢٠١، والمعيار ١/٣٣٦.

والطيبون من المؤمنين تسلم عليهم الملائكة عند قبض أرواحهم، وتبشرهم بالجنة، قال -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. أما الظلمة فإن الملائكة تبشرهم عند قبض أرواحهم بالنار قال -تعالىٰ-: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩]

أما الكافر، فقد أخبر الله -تعالىٰ- أنه يذيقه العذاب عند خروج روحه، وأن الملائكة تضربه وتخزيه، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فقد جاء عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أن ذلك عند الموت: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣]، يعني يضربون وجوه الكفار وأدبارهم، كما قال -تعالىٰ-: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

وفي الجملة من مات علىٰ حسن الخاتمة -نسأل الله تعالىٰ حسنها- فقد نجا؛ لأن من مات علىٰ التوحيد لا يُخلد في الناء قطعًا مهما عظُم ذنبه، ففي الصحيح قال ﷺ: **«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يقولَ اللهُ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَردل من إيمان فَأَخْرِجُوهُ»**[1].

والاعتداد إنما هو بالخواتيم، ففي الصحيح، قال ﷺ: **«إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَىٰ النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ وَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَىٰ النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا»**[2].

والشيطان قد يعرض للإنسان عند الموت فيفتنه، ولذلك كان أخوف ما يخافه الصالحون سوء الخاتمة، والفتنة عند الموت.

---

(١) البخاري حديث رقم ٦٥٦٠.

(٢) البخاري حديث رقم ٦٤٩٣.

والخوف من سوء الخاتمة وقت الصحة والقدرة على العمل مطلوب؛ لأنه يدفع إلى مزيد من الطاعة والخوف من الله -تعالى-، أما عند الاحتضار وعدم القدرة على العمل، فقد حذر النبي ﷺ من القنوط واليأس من رحمة الله، وحضّ على الرجاء والثقة في الله بحسن الخاتمة. ففي الصحيح عن جابر قال: «**سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ ﷻ**»[1].

وعند الغرغرة والنزع حين لا تقبل توبة، يبشر كل إنسان بما هو صائر إليه من نعيم أو عذاب، فالسعيد حينئذ يحب الموت ولقاء الله -تعالى-، للخير الذي يراه، ويحب الله -تعالى- لقاءه، والشقي يكره الموت ولقاء الله -تعالى-، لما يراه من المكروه، والله -تعالى- يكره لقاءه. فقد جاء في الصحيح عن عائشة ﵂، قالت، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءهُ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: لَيْسَ كَذَلِكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ**»[2].

سؤال الملكين وعذاب القبر:

أضيف العذاب إلى القبر، لأن الغالب في الموتى أن يقبروا ويدفنوا، وليس لأن العذاب خاص بمن يقبر دون غيره. فمن احترق أو أكلته السباع فإن الله -تعالى- يعذبه إذا كان من أهل العذاب. وقد تضافرت الأدلة من القرآن والسنة الصحيحة على أن الإنسان يُسأل في قبره ويفتن، وينعم فيه أو يُعذب، والعقل كذلك لا يمنع أن يعيد الله -تعالى- الحياة إلى الجسد، فيقعد ويسأل، ويُعذب أو يُنعم، ولا يمنع من ذلك تفرق أجزائه، لأن الله -تعالى- قادر أن يعيد الحياة إلى جزء الجسد، أو إلى كله ليقع عليه السؤال أو العذاب، ولذلك يجب التصديق والإيمان بجميع ذلك، قال الله -تعالى-: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

قال أهل التفسير: العذاب الأول ما يصيب الكافر في الدنيا من عذاب، من مرض

(١) مسلم حديث رقم ٢٨٧٧.

(٢) مسلم حديث رقم ١٥٧.

أو فقر أو فضيحة.. الخ، والعذاب الثاني هو عذاب القبر[1]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٥-٤٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وجمهور العلماء علىٰ أن هذا العرض علىٰ النار يكون في البرزخ بعد الموت، وقبل أن يبعث الله -تعالىٰ- الخلائق للحساب، وقال -تعالىٰ- عن الشهداء: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، وهذا لا يكون إلا في الدنيا، لأن الذين لم يلحقوا بهم أحياء لم يموتوا بعد، فدل علىٰ أن في القبر نعيمًا وبشارة.

وسؤال القبر عام للمطيع والعاصي والكافر[2] والمنافق، لعموم الأدلة الدالة عليه، ففي الصحيح من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ -لِمُحَمَّدٍ ﷺ- فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ انْظُرْ إِلَىٰ مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا**، ..... **وَأَمَّا المُنَافِقُ وَالكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ**»[3].

وقد ثبتت أحاديث كثيرة صحيحة في عذاب القبر عن النبي ﷺ، كتعوذه في صلاته وغيرها من عذاب القبر، وكسماعه صوت من يعذب في قبره بسبب البول وغيره. وكلامه ﷺ لموتىٰ الكفار يوم بدر بعد أن رموا في القليب، وقوله: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا**»[4]، حين سأله عمر

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٨/٢٤١.

(٢) وذهب جماعة منهم ابن عبد البر إلىٰ أن سؤال القبر لا يكون للكافر، وإنما يكون لمن ظاهره الإيمان في الدنيا، مؤمن أو منافق، وأما الكافر الجاحد فليس ممن يسأل عن دينه. انظر التمهيد ٢٢/٢٥٢.

(٣) البخاري حديث رقم ١٣٧٤.

(٤) مسلم حديث رقم ٢٨٧٥.

-رضي الله تعالىٰ عنه-: «**كَيْفَ تُكَلِّمُ أَجْسَادًا لَا أَرْوَاحَ فِيهَا**»[1]. كل ذلك وغيره يفيد لكثرته اليقين بصحته، ووجوب الإيمان بوقوعه. قال النووي: «فإن قيل: فنحن نشاهد الميت علىٰ حاله في قبره، فكيف يُسأل ويقعد ويضرب بمطارق من حديد، ولا يظهر له أثر، فالجواب أن ذلك غير ممتنع، بل له نظير في العادة، وهو النائم، فإنه يجد لذة وآلامًا لا نحس نحن شيئًا منها، وكذا يجد اليقظان لذة وألما لما يسمعه أو يفكر فيه، ولا يشاهد ذلك جليسه، وكذا كان جبريل يأتي النبي ﷺ، فيخبره بالوحي الكريم، ولا يدركه الحاضرون . . . وأما ضربه بالمطارق، فلا يمتنع أن يوسع له في قبره، فيقعد ويضرب، والله أعلم»[2].

وفي حديث البراء بن عازب الآتي وصفٌ كاملٌ لحال الإنسان بداية من حالة الاحتضار وخروج الروح، إلىٰ استقرار روحه في البرزخ، علىٰ الحالة التي هي عليها، من نعيم أو عذاب، حتىٰ يأذن الله -تعالىٰ- بقيام الساعة.

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ، قَالَ: «**خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَىٰ الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ عَلَىٰ رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوان، قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِيّ السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُونَهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ -يَعْنِي بِهَا عَلَىٰ مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ- إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ يَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يَنْتَهُوا بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ**

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٨٧٣.

(٢) شرح مسلم ١٧/ ٣٠٢.

فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ. قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ يَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ الْجَنَّةِ قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا فَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ. قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ. فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ. فَيَقُولُ: رَبِّ، أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّىٰ أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي وَمَالِي».

قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَىٰ سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغضب. قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا وَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجَ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَىٰ مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ يَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يُنْتَهَىٰ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ له: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا له مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَىٰ النَّارِ فَيَأْتِيهِ من حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ

رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ، فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»[1].

ضغطة القبر:

لا ينجو من ضغطة القبر صالح ولا طالح إلا الأنبياء لعصمتهم، وقد استثنىٰ النبي ﷺ من ضغطة القبر فاطمة بنت أسد أم علي -كرم الله وجهه- لضمها المصطفىٰ ﷺ، قال ﷺ: «**إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ نَاجِيًا مِنْهَا نَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ**»[2]، والمراد بضغطة القبر: التقاء جانبيه علىٰ جسد الميت، والفرق بين المسلم والكافر هو دوام الضغط علىٰ الكافر، أما المؤمن فيضغط عليه القبر في أول نزوله، ثم ينفسح عنه، وحديث استثناء فاطمة بنت أسد من ضغطة القبر أشار إليه الحافظ ابن حجر في الإصابة بلفظ: «ما أعفي أحد من ضغطة القبر إلا فاطمة بنت أسد»، وعزاه بهذا اللفظ في سبل الهدىٰ والرشاد إلىٰ أبي عاصم وأبي نعيم[3].

مستقر الأرواح بعد الموت:

الأرواح في البرزخ متفاوتة نعيمًا وعذابًا، بقدر ما كانت عليه من تفاوت في الدنيا في طاعة الله، فأرواح الأنبياء في الرفيق الأعلىٰ مع الملائكة في أعلىٰ عليين، وقد حرم الله -تعالىٰ- علىٰ الأرض أن تأكل أبدانهم.

ففي الصحيح من حديث وفاة النبي ﷺ: «... **ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ**»[4]، وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ حَرَّمَ عَلَىٰ الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ**»[5].

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٢٨٧، واللفظ له، وخرجه الحاكم في المستدرك ١/٣٧، وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، وانظر صحيح مسلم حديث رقم ٢٨٧٢ في طيب روح المؤمن ونتن روح الكافر عند خروجها.

(٢) المسند مع الفتح الرباني ٨/١٣٤، وسند الحديث جيد، وانظر الفتح الرباني ٢١/٢٥٧.

(٣) الحديث من رواية سعدان بن الوليد عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس، وسعدان وإن لم يوثقه أحمد فهو لم يضعف، انظر الإصابة ٥/٥١٦، وسبل الهدىٰ والرشاد ١١/١٩.

(٤) البخاري حديث رقم ٦٥١٠.

(٥) أبو داود حديث رقم ١٠٤٧.

وأرواح الشهداء في حواصل طير خُضر تسرح في الجنة حيث تشاء، إلا مَن حبسه عن دخول الجنة دين عليه، أو شيء من الحقوق كما جاء في السنة[1]. جاء في الصحيح في تفسير قول الله -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٩٦] **«أن أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَىٰ تِلْكَ الْقَنَادِيلِ»**[2].

وأما أجساد الشهداء، فقد جاء في حديث جابر حين نقل أباه من قبره، قال: **«فَاسْتَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ فَإِذَا هُوَ كَيَوْمِ وَضَعْتُهُ هُنَيَّةً غَيْرَ أُذُنِهِ»**[3]، فيحتمل أن تبقىٰ أجساد الشهداء كذلك إلىٰ أن تبعث، لا تأكلها الأرض، ويحتمل أنها تبلىٰ مع طول المدة، والله أعلم. قال الطحاوي: «وكأنه -والله أعلم- كلما كانت الشهادة أكمل، والشهيد أفضل، كان بقاء جسده أطول»[4]. وأرواح عامة المؤمنين تتفاوت في أصناف النعيم وفي أصناف العذاب والألم، حسب مقامها وعملها في الدنيا، فمنها ما يكون طائرًا يرتع في شجر الجنة، ففي الموطأ من حديث كعب بن مالك، قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَىٰ جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»**[5].

ومنها ما يكون في الجنة، في مكان أو دار، قال رسول الله ﷺ: **«لم أر قط أحسن منها»**[6]، ومنها ما يكون محبوسًا علىٰ باب الجنة، كما دل عليه حديث: **«إِنَّ صَاحِبَكُمْ مُحْتَبَسٌ عَلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ فِي دَيْنٍ عَلَيْهِ»**[7].

ومنها ما يكون بفناء القبر، ويدل له حديث ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: **«ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا، فيسلم عليه، إلا عرفه**

(١) سنن النسائي حديث رقم ٤٦٨٤، والعقيدة الطحاوية، ص ٤٥٥.

(٢) مسلم حديث رقم ١٨٨٧.

(٣) البخاري حديث رقم ١٣٥١، والهنية: الشيء اليسير.

(٤) العقيدة الطحاوية ص ٤٥٦.

(٥) الموطأ حديث رقم ٥٦٦.

(٦) البخاري حديث رقم ٢٧٩١.

(٧) مسند أحمد حديث رقم ١٩٦١٦.

ورد عليه السلام»[1]، قال مالك: «بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت»[2].

ومنها أرواح تسبح في أنهار من الدم، كلما أرادت أن تخرج منه رميت بحجر، فردت حيث كانت، وهم آكلوا الربا، ومنها ما هو محبوس في تنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع، يتوقد تحته نارًا، وهم الزناة، ومنها من تُعذب بكَلّوب من حديد يدخل في شدق صاحبها حتىٰ يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك، فإذا التأم شدقة الأول صنع به مثله، وهكذا دواليك، وهؤلاء هم الكذابون يصنع بهم كذلك إلىٰ يوم القيامة، ومنها أرواح تشدخ رءوس أصحابها بصخرة عظيمة، ثم تلتئم وتعود كما كانت، فتضرب مرة أخرىٰ وهكذا، وصاحب هذه الحال هو من أعطاه الله -تعالىٰ- القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يفعل به كذلك إلىٰ يوم القيامة. كل ذلك دل عليه حديث البخاري في الرؤيا التي رآها النبي ﷺ[3]، وأما أرواح الكفار، فهي في سِجين في أسفل سافلين.

وأجساد عامة المؤمنين تفنىٰ وتأكلها الأرض، ما عدا عَجْب الذنَب، ثم ينشئها الله -تعالىٰ- عند البعث نشأة أخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧]، وفي الصحيح قال ﷺ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ**»[4].

---

(١) قال الحافظ العراقي: ذكره ابن عبد البر في التمهيد والاستذكار بإسناد صحيح من حديث ابن عباس، وصححه كذلك أبو محمد عبد الحق، التذكرة ١/ ١٤٥، وفيض القدير ٥/٤٨٧، وعون المعبود ٣/٢٦١.

(٢) العقيدة الطحاوية ص ٤٥٣.

(٣) البخاري حديث رقم ١٣٨٦.

(٤) مسلم حديث رقم ٢٩٥٥، والعجب: عُظيم لطيف في أصل الصلب، وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع.

النفخ في الصور

بداية القيامة تكون بالنفخ في الصور، والصور كهيئة البوق، وصاحب الصور الذي يتولىٰ نفخه بأمر الله -تعالىٰ- إسرافيل من الملائكة عند أكثر العلماء. والصور له نفختان، النفخة الأولىٰ: يُفني الله -تعالىٰ- بها جميع الخلائق، فيصعقون إلا من شاء الله أن يستثنيه، والنفخة الثانية: يحيي الله -تعالىٰ- بها الخلائق، وقد ذكر الله -تعالىٰ- النفخة الأولىٰ في أكثر من آية، قال -تعالىٰ-: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۞ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٨، ٩][١]. كما جاء ذكر النفخة الثانية في مواضع من القرآن، قال -تعالىٰ-: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات ١٩][٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤][٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧][٤].

وعقب النفخة الأولىٰ تحدث التغييرات في الكون التي أخبر عنها القرآن، فتندك الأرض والجبال وتنشق السماء، وتظلم الكواكب، قال -تعالىٰ-: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۞ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۞ وَانشَقَّتِ

---

(١) الناقور: الصور.

(٢) الزجرة: صيحة النفخ في الصور.

(٣) الساهر: وجه الأرض.

(٤) الراجفة: النفخة الأولىٰ، والرادفة: النفخة الثانية، كما روي عن ابن عباس ﷺ.

﴿ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ١-٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ١، ٢]، فتُطوىٰ السماء وتتكور شمسها ونجومها وكواكبها، وتصير محمرة متموجة كدُرْدي الزيت كما أخبر القرآن ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾.

وقد دل علىٰ أن للصور نفختين حديث عبد الله بن عمرو في صحيح مسلم، وفيه: **(ثُمَّ يُنْفَخ فِي الصُّور فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَد إِلَّا أَصْغَىٰ لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا**[١]، **قال: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إبله، قال: فَيُصْعقُ ويُصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ أَوْ قالَ: يُنْزِلُ اللَّه مَطَرًا كأَنَّهُ الطَّلُّ أو الظِّلُّ . . . . فَتَنْبُتُ مِنْهُ أجْسَادُ النَّاس ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُون)**[٢].

وجاء في اسم اليوم الذي تكون فيه الصعقة حديث أوس بن أوس الثقفي، عن النبي ﷺ: «**إنَّ مِنْ أفْضَلِ أيَّامِكُمْ يَومَ الجُمُعَةِ، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فَأكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاةِ فِيهِ، فَإنَّ صَلاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ**»[٣]، وفي الصحيح من حديث فضل يوم الجمعة: «. . . **وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إلاَّ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ**»[٤]. وروىٰ البيهقي بسند قوي عن ابن مسعود من قوله: «ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض فينفخ فيه، فلا يبقىٰ لله خلق في السموات ولا في الأرض إلا مات، إلا ما شاء ربك، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون»[٥]. ووردت

---

(١) الليت: صفحة العنق، وأصغىٰ: أمال.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٩٤٠.

(٣) أبو داود حديث رقم ١٠٤٧.

(٤) مسلم حديث رقم ٨٥٤.

(٥) انظر فتح الباري ١٤/١٥٧.

أقوال كثيرة في تحديد من يستثنيهم الله -تعالىٰ- فلا يموتون عند النفخة الأولىٰ، هل هم الملائكة أو بعض الملائكة أو غيرهم، والأحاديث في تعيينهم ضعيفة، فالله أعلم بذلك.

فإذا فنيت الخلائق ولم يبق إلا الله -تعالىٰ-، قال -سبحانه-: أنا الجبار، لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيقول: لله الواحد القهار. وفي الصحيح، قال ﷺ: **«يقبض الله -تبارك وتعالىٰ- الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»**[١].

وورد في بيان المدة التي تكون بين النفختين حديث أبي هريرة في الصحيح، قال: قال رسول الله ﷺ: **«حدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصٍ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ قال: سمعت أَبَا صَالِحٍ، قَالَ: سمعت أبا هريرة عن النبي ﷺ قَالَ: بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، وَيَبْلَىٰ كل شَيءٌ مِنَ الإِنْسَانِ إلا عَجْب ذَنَبِهِ فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ»**[٢]. والعلماء يقولون: أربعون سنة، وقد جاء ذلك في أحاديث من طرق ضعيفة[٣].

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٧٨٧.

(٢) مسلم حديث رقم ٤٨١٤، ومعنىٰ أبيت: امتنعت أن أبين لأني لا أعلمه، فلا أقول فيه بالرأي.

(٣) انظر فتح الباري ١٥٨/١٤.

الحياة الآخرة

- ١ -

البعث

معنىٰ البعث:

البعث هو: إثارة الشيء الساكن، والمراد بالبعث في يوم القيامة: إحياء الأموات لمساءلتهم في فصل القضاء، قال -تعالىٰ-: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففون: ٤، ٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤][١].

فيجب علىٰ المسلم أن يؤمن بأن الله -تعالىٰ- يحيي عباده بعد أن تفنىٰ الخلائق فينشئهم نشأة أخرىٰ، ويبعثهم من قبورهم ونحوها، ليجازيهم علىٰ أعمالهم، ففي الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو المتقدم: «**ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ أو قالَ: يُنْزِلُ اللهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أو الظِّلُّ . . . فَتَنْبُتُ مِنهُ أجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**»[٢].

الحكمة من البعث:

البعث من تمام عدل الله -تعالىٰ- وحكمته، فلو ترك الناس سُدًىٰ، لأفلت الفاجر من القصاص، ولاستوىٰ الظالم والمظلوم، والفاسق والصالح، والمسلم والكافر، قال -تعالىٰ-: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، **وقال -**

---

(١) الساهرة: أرض الموقف.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٩٤٠.

تعالىٰ-: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

فبَعْث الناس للحساب فيه تسلية للمسلم وطمأنينة لقلبه، فلا يصيبه يأس ولا قنوط مهما أوذي، أو ظُلم أو حرم، لأنه يحتسب ذلك كله ليوم يأخذ فيه حقه وافيًا عند أحكم الحاكمين، الذي لا تخفىٰ عنه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

إقامة الحجة علىٰ منكري البعث:

قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦]، وقد حج الله الكافرين الذين ينكرون البعث، وساق في القرآن عددًا من شبههم وأبطلها، وأقام البراهين القاطعة علىٰ فسادها، قال -تعالىٰ-: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، وقال -تعالىٰ- علىٰ لسان الكافرين: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٨]، فرد عليهم بقوله: ﴿۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١] وفي قوله -تعالىٰ-: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: أبلغ رد وأقطع حجة، فإن من قدر علىٰ الخلق أول مرة لا تعجزه الإعادة؛ لأن إعادة الخلق في قانون العقل أهون من الاختراع والبداية، قال -تعالىٰ-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، والله ﷻ يخلق الشيء بقوله كن فيكون، سواء في البداية أو في الإعادة، فالكل في حقه سواء، لا يكلفه الخلق جهدًا ولا أمرًا، لا في البداية ولا في الإعادة، ولكنه مثل ضربه لنا من أنفسنا، بمقتضىٰ قانون الفهم الذي تطيقه عقولنا، ولذا ختم الله الآية السابقة بقوله -تعالىٰ-: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾. وقال الله -تعالىٰ- في الآية الأخرىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٨- ٨٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿لَخَلْقُ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٦]. وإذا بعث الله -تعالىٰ- الخلائق قال الكافرون: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢]، فيرد المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]. وجاء في الصحيح أن نبينا محمد ﷺ هو أول من تنشق عنه الأرض، قال ﷺ: **«أَنَا سَيِّد وَلَد آدم يَوْم الْقِيَامَة وَأَوَّل مَنْ يَنْشَقّ عَنْهُ الْقَبْر وَأَوَّل شَافِع وَأَوَّل مُشَفَّع»**[1].

(١) مسلم حديث رقم ٢٢٧٨.

- ٢ -

الحشر

معنىٰ الحشر:

الحشر: سَوق الناس بعد بعثهم من القبور إلىٰ الموقف، ينتظرون الحساب وجزاء الأعمال. ويحشر الناس حفاة عراة غُرلا -أي غير مختونين-، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وأول من يُكسىٰ نبي الله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، ويصيب الناس من الهول وكرب الموقف وطوله ما يصيبهم، حتىٰ إنهم يتمنون الانصراف ولو إلىٰ النار. ويُستثنىٰ من ذلك الكرب الأنبياء والشهداء ومن يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، كما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله -تعالىٰ-. وليس الناس في المحشر كلهم سواء، فمنهم من يُكرَم تكريم الوفود علىٰ الملوك، وهم المتقون، ومنهم من يحشر علىٰ وجهه، وهم الكفار، قال -تعالىٰ-: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٣٤]، وقد جاء في الصحيح أن رَجُلا، قَالَ: **«يَا نَبِيَّ اللهِ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ أليس الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَىٰ الرِجْلَيْنِ في الدُّنْيَا قَادِرا علىٰ أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟، قَالَ قَتَادَةُ: بَلَىٰ وَعِزَّةِ رَبِّنَا»**[١]. وجاء في الصحيح من حديث ابن عباس

(١) البخاري حديث رقم ٤٧٦٠.

-رضي الله تعالىٰ عنهما-، قَالَ: «**خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَىٰ اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثُمَّ قَالَ: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ ثُمَّ قَالَ: ألا وإن أَوَّلَ الخلائِقِ يُكسَىٰ يومَ القيامة إبراهيمُ .....**»[1].

وفي الصحيح أن عائشة -رضي الله تعالىٰ عنها- قالت، قال رسول الله ﷺ: «**تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ! فَقَالَ: الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ**»[2]، فلكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه. وفي الصحيح قال ﷺ: «**إِنَّ الْعَرَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيَذْهَبُ فِي الْأَرْضِ سَبْعِينَ بَاعًا، وَإِنَّهُ لَيَبْلُغُ إِلَىٰ أَفْوَاهِ النَّاسِ أَوْ إِلَىٰ آذَانِهِمْ**»[3]، وقال ﷺ: «**تُدْنَىٰ الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّىٰ تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ، قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ؟ قَالَ: فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَىٰ كَعْبَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَىٰ حَقْوَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا. قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَىٰ فِيهِ**»[4].

وفي حديث ابن مسعود: «إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة حتىٰ يقول: يا رب ارحمني ولو إلىٰ النار»[5]، وحينئذ ينشغل كل أحد بنفسه ولا يغني مولىٰ عن مولىٰ شيئًا ولا ينصرون، فتذهب النصرة التي كانت في الدنيا والاحتماء بالجاه والسلطان، وتنقطع المواصلة التي كانت بين الناس والمودة، والخُلة والشفاعة، قال -تعالىٰ-: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]

(١) البخاري حديث رقم ٤٦٢٥.

(٢) البخاري حديث رقم ٦٥٢٧.

(٣) مسلم حديث رقم ٢٨٦٣.

(٤) مسلم حديث رقم ٢٨٦٤.

(٥) نسبه الحافظ في الفتح ١٤/١٨٥ إلىٰ أبي يعلىٰ، قال: وصححه ابن حبان.

- ٣ -

الشفاعة

الشفاعة:

الشفاعة: هي توجه نبينا محمد ﷺ إلىٰ ربه لرفع الكرب عن العباد في المحشر بعد أن يطول انتظارهم لفصل القضاء، وكذلك توجهه ﷺ ودعاؤه ربه ليخرج المذنبين من أمته من النار، أو ليرفع درجة المتقين في الجنة.

فيجب علىٰ المسلم أن يعتقد بثبوت الشفاعة لنبينا محمد ﷺ لوقوع الإذن بها في القرآن، والتصريح بها في السنة. قال -تعالىٰ-: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ٢٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وفي الصحيح قال ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الجَنَّةِ، وَأَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا**»(١)، وقال ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُوهَا، فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

قال العلماء: وقد بلغت الآثار الدالة علىٰ الشفاعة للمذنبين من هذه الأمة - بلغت في مجموعها حد التواتر، وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها، وأما قول الله -تعالىٰ-: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨](٣)، وقوله -تعالىٰ-:

---

(١) مسلم حديث رقم ١٩٦.

(٢) مسلم حديث رقم ١٩٨.

(٣) انظر مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٥٧٣.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨][١]، فهو في الكفار، وليس للمؤمنين كما هو السياق في الآيتين.

والشفاعة أنواع كما ذكرها العلماء[٢] ودلت عليها الأحاديث:

فأولها: شفاعة نبينا محمد ﷺ لتخليص العباد من هول الموقف وهم ينتظرون الحساب، حين تدنو منهم الشمس ويكونون في العرق علىٰ قدر أعمالهم، وهذه هي الشفاعة العظمىٰ والمقام المحمود الذي يحمده أهل الجمع كلهم كما جاء في الصحيح، قال ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَّ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ يوم القيامة الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ**[٣]**، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لا يُطِيقُونَ وَما لا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بعض النَّاسُ لبعض: أَلا تَرَوْنَ ما أنتم فيه؟ ألا ترون مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائتوا آدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ** . . . .»، ثم يأتون عددًا من الأنبياء بعده، وكل يقول: نَفْسِي نَفْسِي، إلىٰ أن يقولوا: «. . . **اذْهَبُوا إِلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ وغَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ أَلاَ تَرَىٰ إِلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ؟ ألا ترىٰ ما قد بلغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ ويُلهِمُني مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَىٰ أَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ**»[٤].

الشفاعة الثانية: إدخال قوم الجنة بغير حساب، ويدل عليها قول النبي ﷺ: «**أُعْطِيتُ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَاب وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَقُلُوبُهُمْ عَلَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي ﷻ، فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا**»[٥].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٣٩.

(٢) انظر شرح مسلم ٣/ ٣٥.

(٣) أي يحيط بهم الناظر لا يخفىٰ عليه منهم شيء لاستواء الأرض وعدم وجود ما يسترهم.

(٤) مسلم حديث رقم ١٩٤.

(٥) مسند أحمد حديث رقم ٢٣.

الثالثة: الشفاعة لقوم استوجبوا النار بذنوبهم، فلا يدخلونها بسبب شفاعة نبينا محمد ﷺ، وتكون هذه الشفاعة لغيره من الأنبياء، ولمن شاء الله من الملائكة أو غيرهم، ويدل عليها ما جاء في الصحيح: «**ونبيُّكم قائمٌ علىٰ الصراط يقول: رب سلِّمْ سلِّمْ**»(١)، وفي رواية: «**وَدَعْوَىٰ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللهُمَّ سلِّمْ سلِّمْ**»(٢)، وفي حديث جابر عن النبي ﷺ: «**ومن زادت سيئاته علىٰ حسناته فذاك الذي أوبق نفسه، وإنما الشفاعة في مثله**»(٣).

الرابعة: الشفاعة لقوم من العصاة دخلوا النار، فيخرون منها بشفاعة نبينا محمد ﷺ والملائكة وإخوانهم من المؤمنين، ففي الصحيح من حديث أنس في الشفاعة، قال ﷺ: «. . . **يُقَالُ لِي ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِي ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا ثُمَّ أُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ حَتَّىٰ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ، أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ**»(٤) وفي الصحيح قال ﷺ: «**يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ، يُسَمَّوْنَ الجَهَنَّمِيِّينَ**»(٥)، وأسعد الناس بهذه الشفاعة من كان أكمل إيمانًا من غيره.

ولا يفوت المسلم أن يدعو الله -تعالىٰ- سائلًا شفاعة النبي ﷺ، وأن يدخله الله -تعالىٰ- بها الجنة، مع السعي والعمل الصالح والاجتهاد في العبادة وطاعة الله ﷻ، حتىٰ يكون أهلا لهذه الشفاعة، ولا يجوز له التفريط والاتكال علىٰ الشفاعة، فإن ذلك من علامات الخذلان، ففي الصحيح قال ﷺ: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ خَالِصًا مِنْ قبل نَفْسِهِ**»(٦)، وقد قال ﷺ لابنته فاطمة أحب الناس إليه: «**لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**»(٧).

---

(١) مسلم حديث رقم ١٩٥.

(٢) البخاري حديث رقم ٧٤٣٨.

(٣) ذكره الحافظ في فتح الباري ١٤/ ١٩٤، وعزاه إلىٰ الحاكم.

(٤) البخاري حديث رقم ٦٥٦٥.

(٥) البخاري حديث قم ٦٥٦٦.

(٦) البخاري حديث رقم ٦٥٧٠.

(٧) البخاري حديث رقم ٢٧٥٣.

- ٤ -
العرض والحساب

الفرق بين العرض والحساب:

المراد بالعرض: عرض الأعمال علىٰ الله -تعالىٰ- عندما يقف الناس في ساحة القضاء يوم القيامة، ليعترف كل أحد بذنوبه مع المسامحة والإغضاء، وعدم التقصي.

والحساب: المحاسبة في ذلك الموقف بالصغير والكبير من الأمور، والتقصي فيها وترك المسامحة، قال -تعالىٰ-: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-١٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، قيل لعلي -رضي الله تعالىٰ عنه-: كيف يحاسب الله -تعالىٰ- جميع الناس في وقت واحد؟ فقال: كما يرزقهم في آن واحد يحاسبهم في آن واحد.

حساب الكافر:

يجاء بالكافر يوم القيامة، ويقال له: «**لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا**»[1]، وينادي منادٍ: «**مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ**

(١) البخاري حديث رقم ٣٣٤.

الطَّوَاغِيتَ»[1]، وفي رواية أبي سعيد الخدري لهذا الحديث: «**فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ وَأَصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ**»[2]، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١].

ويوقف الكافر للحساب فيعرض عليه ربُّه عمله فيجحد، ويقول: أي رب، وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا، في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك، أي رب ما عملته فإذا فعل ذلك وجادل وخاصم يختم الله -تعالىٰ- علىٰ فيه، ويقال لأركانه: انطقي بعمله، وذلك قول الله -تعالىٰ-: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وقوله -تعالىٰ-: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩-٢١]، وينشر له كتابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وينبأ بما قدم وأخر، قال -تعالىٰ-: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ويُعطىٰ الكفار كتب أعمالهم بشمالهم أو من وراء ظهورهم، ويساقون جميعًا وما يعبدون من دون الله إلىٰ النار، قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال -تعالىٰ- عن فرعون وقومه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

تمييز المؤمن من المنافق في المحشر:

فإذا ذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، ولم يبق إلا من يعبد الله من بر أو فاجر كما جاء في حديث أبي سعيد المتقدم: «**فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟ فَيَقُولُونَ: . . . وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا قَالَ: فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا**

(١) البخاري حديث رقم ٦٥٧٤.

(٢) البخاري حديث رقم ٧٤٤٠.

أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: الساق فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَيَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا»[1]، وفي ذلك يقول الله -تعالىٰ-: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]، وحينئذ يقع الكرب والشدة علىٰ المنافقين الذين عجزوا عن السجود فلا يستطيعونه، ويزول الخوف والهول الذي أخذ المؤمنين حتىٰ غابوا عن رؤية عوراتهم، وإنما امتحن الناس في هذا الموقف بالسجود ليتميز المؤمن من المنافق.

وفي هذا الموقف تبيض وجوه وتسود وجوه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، ويقال للمؤمنين الذين أخلصوا طاعتهم لله -تعالىٰ- في الدنيا، وأقدرهم الله علىٰ السجود في ذلك الموقف -يقال لهم: «ارفعوا رءوسكم إلىٰ نوركم بقدر أعمالكم، فيُعطَون نورهم بقدر أعمالهم، فمنهم من يعطىٰ نوره مثل الجبل، ودون ذلك، ومثل النخلة، ودون ذلك، حتىٰ يكون آخرهم من يعطىٰ نوره علىٰ قدر إبهام قدمه، ثم يطفأ نور المنافق»[2]، ثم ينتقلون إلىٰ منزل آخر وتغشىٰ الناس الظلمةُ، فيقول المنافقون للذين آمنوا: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، فيقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ فيرجعون إلىٰ المكان الذي قُسم فيه النور فلا يجدون شيئًا، ويجدون أنفسهم قد ضرب بينهم بسور، قال -تعالىٰ-: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

كيفية الحساب وإحصاء الأعمال:

عند إحصاء الأعمال تخرج للناس الكتب التي حفظت فيها الملائكة أعمال العباد، وسجلت فيها السيئات والحسنات، كما قال -تعالىٰ-: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ

---

(١) البخاري حديث رقم ٧٤٤٠، قال الحافظ في فتح الباري: وفي الحديث دليل علىٰ أن المؤمنين رأوا ربهم قبل ذلك أول ما حشروا، فتح الباري شرح حديث رقم ٧٤٤٠.

(٢) الحاكم في المستدرك ٢/٣٧٦، وهو حديث صحيح، وانظر صحيح مسلم ١/١٧٨.

عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: ١٨][(١)]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، ثم تُعطىٰ هذه الكتب إلىٰ أصحابها ليقرأ كل أحد كتابه، فمن الناس من يناول كتابه بيمينه، ويكون ذلك علامة علىٰ سعادته وخفة حسابه، ومنهم من يُناول كتابه بشماله من وراء ظهره، ويكون ذلك علامة علىٰ شقائه وعسر حسابه، قال -تعالىٰ-: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-١٢]، ولا شيء ينفع الإنسان في ذلك الوقت سوىٰ عمله وسجل حسناته، ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: ٤١]، ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وكل إنسان يسأل وحده من قبل ربه ليجيب عن نفسه بنفسه، بلا واسطة ولا ترجمان، ففي الصحيح قال ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ أَحَد إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ منه فلا يرىٰ إلا ما قدم، وينظر أشأم مِنْهُ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَىٰ إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»[(٢)]، وفي الصحيح من كلام رب العزة: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَٰلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[(٣)].

ومن رحمة الله -تعالىٰ- بعباده أنه يضاعف الحسنات، ولا يجزي بالسيئة إلا مثلها.

تفاوت المؤمنين عند الحساب:

تتفاوت درجات المؤمنين في الإحسان إليهم عند الحساب، ويؤخذ من مجموع الأحاديث أنها علىٰ النحو الآتي:

---

(١) ورقيب عتيد: معناه أن كل كلمة يقولها الإنسان هناك ملك معد لها يراقبها ويكتبها.

(٢) البخاري حديث رقم ٧٥١٢.

(٣) مسلم حديث رقم ٢٥٧٧.

١- قوم يدخلون الجنة بغير حساب كما جاء في الصحيح قال ﷺ: «**يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: هُم الَّذِين لاَ يسترقون ولا يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»[1]، ومنهم من يدخل الجنة بغير حساب بشفاعة النبي ﷺ كما تقدم في الشفاعة[2] -اللهم اجعلنا منهم-.

٢- قوم يحاسَبون حسابًا يسيرًا، وهم الذين يُعرضون علىٰ ربهم فيعرّفهم بذنوبهم فيعرفونها، فيتجاوز لهم عنها، وهؤلاء هم الذين يعطون كتابهم بيمينهم، ففي الصحيح قال ﷺ: «**يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّىٰ يَضَع كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَعَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ**»[3].

٣- من كثرت معاصيه وجاهر بها ولم يتب، وأوتي كتابه بشماله، فهو الذي يناقشه الباري الحساب، ومن نوقش الحساب عذب، ففي الصحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلا هَلَكَ**، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ -تعالىٰ-: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَاب يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ عُذِّبَ**»[4]، وفي حديث جابر عن النبي ﷺ: «**من زادت حسناته علىٰ سيئاته، فذاك الذي يدخل الجنة بغير حساب، ومن استوت حسناته وسيئاته، فذاك الذي يحاسب حسابًا يسيرًا، ثم يدخل الجنة، ومن زادت سيئاته علىٰ حسناته، فذاك الذي أوبق نفسه**»[5].

---

(١) مسلم حديث رقم ٢١٨.

(٢) صحيح البخاري ٧٥١٠.

(٣) البخاري حديث رقم ٧٥١٤، والكنف: الستر.

(٤) البخاري حديث رقم ٦٥٣٧.

(٥) نسبه الحافظ في فتح الباري ١٤/ ١٩٤ إلىٰ الحاكم.

- ٥ -

الميـزان

إتمامًا لما وعد الله -تعالىٰ- به من العدل وإحقاق الحق علىٰ أكمل الوجوه ينصب الميزان يوم القيامة لوزن الأعمال، إذ لا أحد أحبُ إليه العذر من الله، ولذلك أرسل الرسل كما جاء في الحديث[1]. وهو ميزان حقيقي، له كفتان كما دلت الأحاديث، حيث يحول الله -تعالىٰ- الأعمال إلىٰ شيء محسوس، له ثقل، وتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة أخرىٰ، فمن ثقلت كفة حسناته أفلح ونجا، ومن ثقلت كفة سيئاته خاب وخسر، قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[2] [الأنبياء: ٤٧].

وورد في الرفق بالمؤمن عند الميزان أحاديث، منها حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالىٰ عنهما-، أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلا مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًا، كُلُّ سِجِلٌ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِر مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولِ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَىٰ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ،**

---

(١) أي لا يؤاخذ إلا بعد إقامة الحجة، انظر فتح الباري ١٧١/١٧.

(٢) وأكثر العلماء علىٰ أنه ميزان واحد، وإنما جمع في الآية (موازين) لتعدد الأعمال الموزونة فيه.

فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّت فِي كَفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتْ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»[1].

(١) سنن الترمذي حديث رقم ٢٦٣٩.

- ٦ -

الحوض

قال القاضي عياض: «مما يجب علىٰ كل مكلف أن يعلمه ويصدق به، أن الله ﷻ قد خص نبينا محمدًا ﷺ بالحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة، التي يحصل بمجموعها العلم القطعي، إذ روىٰ ذلك عن النبي ﷺ من أصحابه أزيد من ثلاثين، منهم في الصحيحين ما ينيف علىٰ العشرين، وفي غيرهما بقية ذلك، مما صح نقله، واشتهرت روايته»[1]، فقد قال الله -تعالىٰ- لنبيه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، والكوثر نهر في الجنة، وماء الحوض ممتد منه، والظاهر أن الحوض في عرصات القيامة بعد الحساب، وقيل: بعد الصراط، فقد جاء في الحديث: «**لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونني ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَأَقُول: إِنَّهُمْ مِنِّي فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِيَ مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي**»[2]. وَفي رواية: «**فَيَقُولُ: إِنَّك لاَ عِلْمَ لَكَ بِمَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ**»[3]، قال

---

(١) أنكر الخوارج والمعتزلة الحوض، وتعسفوا في تأويل الأحاديث الصحيحة علىٰ غير ظاهرها، وهم محجوجون بالنقل المتواتر علىٰ إثبات الحوض وحمله علىٰ ظاهره، وذلك بإجماع السلف وأهل السنة من الخلف، وممن كان ينكره عبيد الله بن زياد، ولد زياد بن أبيه، أحد ولاة العراق، وقد دخل عليه أبو برزة الأسلمي فقال له: هل سمعت رسول الله ﷺ ذكر فيه شيئًا؟ يعني الحوض، فقال أبو برزة: نعم، لا مرة، ولا مرتين، ولا ثلاثًا، ولا أربعًا، ولا خمسًا، فمن كذب به فلا سقاه الله منه، من فتح الباري ١٤/٢٦٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ٦٥٨٥.

العلَماء: ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط، فدل علىٰ أن العرض علىٰ الحوض يكون قبل الصراط[1].

صفة الحوض:

ورد في الصحيح عن النبي ﷺ: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلاَ يَظْمَأُ أَبَدًا**»[2]، وماؤه يأتيه من نهر الكوثر في الجنة. جاء في الصحيح عن أنس بن مالك، قال: «بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَىٰ إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ فَقَرَأَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ فَقُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي ﷻ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ»[3].

ومن شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا، وأول من يرده نبينا محمد ﷺ كما جاء في الصحيح: «**إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَىٰ الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا**»[4].

ويُطرد عن الحوض العصاة وأهل الكبائر، ويناديهم رسول الله ﷺ، فيقال له: لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم بدلوا وغيروا فيتبرأ منهم، ويقول: ألا سحقًا سحقًا.

---

(١) انظر التذكرة ص ٣٠٢، والعقيدة الطحاوية ص ٢٥٢.

(٢) البخاري حديث رقم ٦٥٧٩.

(٣) مسلم حديث رقم ٤٠٠، ويختلج: أي تجذبه الملائكة وتمنعه من ورود الحوض.

(٤) البخاري حديث رقم ٦٥٨٥، والفرط: الذي يسبق.

- ٧ -

الصراط

الإيمان به وصفته:

الصراط: الجسر المنصوب علىٰ جهنم لعبور المسلمين منه إلىٰ الجنة، ومنه يسقط أهل النار في النار.

والصراط مما يجب الإيمان به، لما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة، قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، فالورود المذكور في الآية هو المرور علىٰ الصراط، كما يفهم من الحديث الوارد في الصحيح، قال ﷺ: **«لاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ الله من أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَد الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا. قَالَتْ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ قَالَ اللهُ ﷻ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا»**[١].

قال كثير من المفسرين: المراد بالورود مرور المسلمين علىٰ الجسر بين ظهرانَيها، وورود المشركين أن يدخلوها. وفي الصحيح قال ﷺ: **«لاَ يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلاَثَةٌ مِنْ الْوَلَدِ فَيَلِجَ النَّارَ إِلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ»**[٢]، يعني الورود. قال الزهري: كأنه يريد هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

وقد جاء في الصراط وصفته أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما، من ذلك

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٤٩٦.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٦٣٢، وانظر تفسير ابن كثير ٣/١٣٣.

حديث أبي سعيد المتقدم، وفيه: «. . . ثُمَّ يؤْتَىٰ بِالْجِسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّم. قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وكلاليب وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لها شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ»[1]. وفي رواية أبي هريرة: «. . . وَفِي جَهَنَّمَ كَلاَلِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَان، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَان؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلاَّ اللهُ تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ»[2]، «. . . الْمُؤمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّىٰ يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا»[3].

والمرور علىٰ الصراط عام لكل أحد حتىٰ الأنبياء، ففي الصحيح من حديث أبي هريرة المتقدم: «. . . وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جهَنَّم فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا وَلاَ يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ الرُّسُلُ وَدَعْوَىٰ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»[4].

القصاص من المظالم:

يُحبس الناس يوم القيامة عند قنطرة، قيل: هي الصراط، وقيل: قنطرة أخرىٰ بعد الصراط. لا يدخلون الجنة حتىٰ يتقاصُّوا المظالم فيما بينهم حتىٰ اللطمة، ففي الصحيح قال ﷺ: **«يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِن النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ أَهْدَىٰ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّة مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»**[5]. وفي رواية قال رسول الله ﷺ: **«أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِس فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَىٰ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»**[6]. وإذا مر الناس علىٰ الصراط، وسقط

---

(١) البخاري حديث رقم ٧٤٤٠.

(٢) البخاري حديث رقم ٦٥٧٤.

(٣) البخاري حديث رقم ٧٤٤٠.

(٤) البخاري حديث رقم ٧٤٣٨.

(٥) البخاري حديث رقم ٦٥٣٥.

(٦) مسلم حديث رقم ٢٥٨١.

في النار من سقط فيها من الكفار والعصاة، نجىٰ الله -تعالىٰ- بعد ذلك المؤمنين بعد أن يستوفوا الجزاء علىٰ حسب أعمالهم، أو يخرجون منها بشفاعة من يشفع فيهم من الملائكة والنبيين وإخوانهم المؤمنين[1].

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ١٣٤.

الجنة والنار

- ٨ -

النـار

جهنم -أعاذنا الله منها-:

جهنم مخلوقة موجودة، وهي اسم لجميع طباق النار، والنار دركات، أي طبقات ومنازل، قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1] [النساء: ١٤٥].

وقد ذكر الله -تعالىٰ- النار في كتابه، ووصفها علىٰ لسان نبيه ﷺ، وتنوعت أسماؤها في القرآن، قال العلماء: تبعًا لدركاتها وشدتها وظلمتها، قال -تعالىٰ-: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾[2] [المعارج: ١٥، ١٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[3] [المدثر: ٢٧-٣٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٤-٦] وقال -تعالىٰ- ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾[4] [التكوير: ١٢].

وقد حذر الله -تعالىٰ- من النار وتوعّد بها الكافرين، وخوّف بها العصاة والطغاة والمتمردين من المسلمين، فقال -تعالىٰ-: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾

---

(١) يقال لما هوىٰ وتسافل: درك، ولما ارتفع وعلا: درج، فالجنة درجات، والنار دركات.

(٢) والشوىٰ: جمع شواة، وهي جلدة الرأس.

(٣) ولواحة: أي مغيرة.

(٤) وسعرت: أي أوقدت وأضرمت.

[الزمر: ١٦]وقال -تعالىٰ- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وحر نار جهنم ليس مثل نار الدنيا، بل يزيد عليها أضعافًا كثيرة، ففي الصحيح قال ﷺ: **«نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قَالَ: فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا»**(١).

وكما أن في الجنة من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، فإن في النار من الأهوال وأصناف العذاب ما لا يعلمه إلا الله -تعالىٰ-، ففيها سلاسل وأغلال ومقامع من حديد وطعام من غسلين، وطعام ذو غصة، قال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢، ١٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ١٩-٢١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٢].

وفي الصحيح قال ﷺ: **«إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَىٰ أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ وَالْقُمْقُمُ»**(٢).

وفي الصحيح قال ﷺ: **«يَقُولُ اللهُ -تعالىٰ- لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلاَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي»**(٣).

النار لا تفنىٰ ولا ينقطع عذابها:

كما أن النعيم لا ينقطع، فكذلك عذاب النار لا ينقطع عمن جعل الله مصيره إلىٰ النار -نعوذ بالله منه-، قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، فإقامتهم فيها

---

(١) البخاري حديث رقم ٣٢٦٥.

(٢) البخاري حديث رقم ٦٥٦٢.

(٣) البخاري حديث رقم ٦٥٥٧.

علىٰ الدوام بلا موت، ولا حياة نافعة، ولا راحة، قال -تعالىٰ-: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢] وقال -تعالىٰ-: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

قال العلماء[١]، وهذا في أهل النار من الكفرة، أما العصاة فيُعذبون، وبعد ذلك يموتون، وقد تختلف أحوالهم في طول العذاب بحسب آثامهم ومعاصيهم، ويدل لذلك ما جاء في الصحيح، قال ﷺ: **«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ يَقُولُ اللهُ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيَخْرُجُونَ قَدْ امْتُحِشُوا وَعَادُوا حُمَمًا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ كما تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»**[٢].

صفة أهل الجنة وأهل النار:

ثبت في الكتاب والسنة علىٰ وجه اليقين، أن الأعمال الصالحة والإخلاص فيها مع الموافاة علىٰ الإيمان موصّل إلىٰ الجنة، وأن الكفر والمعاصي واتباع الهوىٰ والضلال، موصّل إلىٰ عذاب الله -تعالىٰ- في النار.

قال الله -تعالىٰ-: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٦-٩].

وفي الصحيح قال ﷺ: **«أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبَرَّهُ أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ»**[٣]، وفي رواية: **«كُلُّ جَوَّاظٍ زَنِيمٍ مُتَكَبِّرٍ»**[٤].

---

(١) انظر التذكرة ص ٤١٥

(٢) البخاري حديث رقم ٦٥٦٠، وامتحشوا: احترقوا وصاروا فحمًا.

(٣) البخاري ٤٩١٨.

(٤) مسلم حديث رقم ٢٨٥٣، والعتل: الجافي الفظّ الشديد في الخصومة بالباطل، والجوّاظ: الجموح المنوع المختال، والزنيم: الدَّعِيُّ في النسب الملصق بالقوم وليس منهم.

والمراد بالضعف ليس ضعف العزيمة أو القوة البدنية، فإن المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله -تعالىٰ- من المؤمن الضعيف كما جاء في الحديث[1]، وإنما المراد رقة القلب ولينه، وإخباته وخشوعه لله ﷻ. وفي الصحيح قال ﷺ: **«رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لأَبَرَّهُ»**[2].

وفي الصحيح قال ﷺ: **«صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ رُءوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»**[3].

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٦٦٤.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٦٢٢، ومعنىٰ: (لو أقسم علىٰ الله لأبره): لو حلف يمينًا طمعًا في كرم الله -تعالىٰ- بإبراره لأبره، و(مدفوع بالأبواب): أي لا يؤذن له إذا أراد الدخول لعدم وجاهته عند الناس، انظر شرح صحيح مسلم ١٧/١٨٧.

(٣) مسلم حديث رقم ٢١٢٨، و(كاسيات عاريات): تستر بعض بدنها وتكشف بعضه، أو تستره بلباس رقيق يصف ما تحته، إظهارًا للفتنة والجمال، فهي كاسية عارية، و(رءوسهن كأسنمة البخت): تعظيم شعورهن وتكويمه حتىٰ يشبه في ارتفاعه سنام البعير، يلفتن بذلك الانتباه.

- ٩ -

الجنـة

الجنة موجودة الآن خلقها -الله تعالىٰ- وأعدها للمتقين، يدل علىٰ ذلك نصوص القرآن والأحاديث الصحيحة، قال الله -تعالىٰ-: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣-١٥]. وقد رأىٰ النبي ﷺ سدرة المنتهىٰ ورأىٰ عندها جنة المأوىٰ ليلة المعراج، ففي الصحيح من حديث أنس قال: قال ﷺ: «... **ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّىٰ نَأْتِيَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَىٰ فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لاَ أَدْرِي مَا هِيَ قَالَ ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤَ وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ**»(١). وفي الصحيح، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢)، وفي الصحيح من حديث الكسوف «... **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ أَوْ أُرِيتُ الْجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ**»(٣).

---

(١) مسلم ١٦٣.

(٢) البخاري حديث رقم ٣٢٤٠.

(٣) البخاري حديث رقم ٥١٩٧.

وفي الموطأ من حديث كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ يُرْجِعَهُ اللهُ إِلَىٰ جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»**[1].

فهذا قليل من كثير من النصوص التي تدل علىٰ أن الجنة مخلوقة الآن أعدها الله -تعالىٰ- لعباده المتقين.

الجنة لا تفنىٰ ولا ينقطع نعيمها:

ومن أنعم الله -تعالىٰ- عليه بدخول الجنة فقد فاز، فهو في نعيم مقيم لا ينقطع ولا يفنىٰ، قال -تعالىٰ-: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [سورة ص: ٥٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وجاء في الصحيح من حديث ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِذَا صَارَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ إِلَىٰ النَّارِ جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّىٰ يُجْعَلَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ثُمَّ يُذْبَحُ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، لاَ مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ لاَ مَوْتَ فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَىٰ فَرَحِهِمْ وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَىٰ حُزْنِهِمْ»**[2].

وفي الجنة من أصناف النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، قال الله -تعالىٰ-: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وفي الصحيح قال ﷺ: **«أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلاَ يَمْتَخِطُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَب أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَمَجَامِرُهُمْ الأَلُوَّةُ وَرَشْحُهُمْ الْمِسْكُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ»**[3].

وفي الصحيح قال ﷺ: **«إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا**

---

(١) الموطأ حديث رقم ٥٦٦، هذا وقد أنكر بعض المعتزلة وجود الجنة الآن، وقالوا: لا تُخلق إلا يوم القيامة، لأنه - في زعمهم - لا فائدة من وجودها الآن، وأنها لو كانت موجودة لترتب علىٰ ذلك أن تفنىٰ مع فناء الدنيا، لقول الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، انظر العقيدة الطحاوية ص ٤٧٦، وفتح الباري، باب ما جاء في صفة الجنة.

(٢) البخاري حديث رقم ٦٥٤٨

(٣) البخاري حديث رقم ٣٢٤٥، والألوّة: العود الذي يتبخر به.

سِتُّونَ مِيلًا لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ الْمُؤْمِنُ فَلاَ يَرَىٰ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[1]، قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢٠، ٢١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝٣٧ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٨].

وما أعطيه أهل الجنة من النعيم والطعام والشراب والذهب والحرير وأنواع الفاكهة والفُرش، ليس شيء منه يشبه ما في الدنيا، والتشابه ليس إلا في الأسماء فقط، تقريبًا للأفهام وضربًا للأمثال، وتوصيلًا للمعاني بما يعقل الناس ودرجوا عليه من الألفاظ، وإلا فليس بين فاكهة الجنة وفاكهة الدنيا من شَبه في اللذة والتنعم، ولا بين لبنها وعسلها وخمرها، وعسل الدنيا ولبنها وخمرها مقارنة أو شبه.

وفي الجنة شيء آخر أحب إلىٰ أهل الجنة من نعيم الجنة، وهو رضوان ربهم عنهم، ونظرهم إلىٰ وجهه الكريم، ففي الصحيح من حديث صهيب، قال: قال ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنْ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﷻ**»[2]، ثم تلا قوله -تعالىٰ-: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالىٰ عنه-، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»[3]، جعلنا الله من أهل الجنة والرضوان بمنه وكرمه، وأعاذنا من سخطه والنار.

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٨٣٨.

(٢) مسلم حديث رقم ١٨١.

(٣) البخاري حديث رقم ٦٥٤٩.

أولاد المسلمين وأولاد المشركين

ذكر غير واحد من العلماء الإجماع علىٰ أن من مات من أولاد المسلمين قبل البلوغ فهو في الجنة[1]؛ لأنه غير مكلّف، ولما جاء في الصحيح من حديث سمرة في الرؤيا: «... وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ وَأَمَّا الْوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ»[2].

واختلفت أقوال العلماء في ما يكون عليه حال أولاد المشركين[3]، فمنهم من قال: إنهم في مشيئة الله -تعالىٰ-، لا يعرف مصيرهم، لما جاء في الصحيح: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَوْلَادِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: اللهُ إِذْ خَلَقَهُمْ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»[4].

والصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة، لقوله -تعالىٰ-: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [الإسراء: ١٥]، قال الحافظ في فتح الباري: «وإذا كان لا يعذب العاقل لكونه لم تبلغه الدعوة، فلأن لا يعذب غير العاقل من باب أولىٰ»[5]، ولحديث سمرة المتقدم، فقد جاء فيه: «... فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ»[6]، أي مع الولدان الذين هم حول سيدنا إبراهيم ﷺ.

---

(١) انظر شرح مسلم ١٦/ ٢٠٧.

(٢) البخاري حديث رقم ٧٠٤٧.

(٣) انظر فتح الباري ٣/ ٤٨٩.

(٤) البخاري حديث رقم ١٣٨٣.

(٥) فتح الباري ٣/ ٤٩٠.

(٦) حديث رقم ٧٠٤٧.

أهل الفترة:

المراد بهم من عاشوا في المدة الواقعة بين بعثة نَبِيَّيْن من أنبياء الله -تعالىٰ-، فكانوا علىٰ فترة من الرسل، ويدخل فيهم عرب الجاهلية في الجزيرة العربية قبل أن يُبعث إليهم نبينا محمد ﷺ، وكان منهم حنفاء علىٰ دين إبراهيم ﷺ، كوَرقة بن نوفل، وعمرو بن عبْسة، وزيد بن عمرو بن نُفيل.

وأهل الفترة في جملتهم -إلا من عصمه الله- كانوا في ضلال بعيد في العقيدة، وضلال في الأعمال والسلوك، الشرك بالله وعبادة الأوثان، وشرب الخمر، ووأد البنات والصعلكة والارتزاق من الغارات، وكان في كل أمة منهم بالإضافة إلىٰ الشرك بالله خسيسة في السلوك اشتهروا بها، أراد الله ﷻ إصلاحها وتخليصهم منها بمن بعثه إليهم من الرسل، كإتيان الفاحشة في قوم لوط، وتطفيف المكيال والميزان في آل مدين، ووأد البنات عند العرب. لكن من كمال عدل الله ورحمته بعباده أنه لا يحاسب عباده قبل إقامة الحجة عليهم، ولا يعذبهم قبل أن ينذرهم ويحذّرهم، ويسنّ لهم الشرائع، ويرسل إليهم الرسل، وإن كان فعلهم قبل ذلك يوصف بالقبح، وبالفاحشة، وبالمنكر، شرعًا وعقلًا، ولكن لا لوم عليهم، ولا عقاب علىٰ ما فعلوه قبل أن يبعث إليهم الرسول، فإن العقل يدرك في كل فعل حُسنًا وقبحًا ضرورة، لكن لا عقاب عليه إلا بالشرع وإرسال الرسل، قال الله -تعالىٰ-: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾ [القصص: ٥٩].

فمن كان في بادية من الأرض لم تبلغه دعوة الإسلام، أو كان حديث عهد به، لم يصله منه ما يصحح الإيمان، فهو معذور حتىٰ يبلغه الأمر، وتقام عليه الحجة.

الباب الثاني

في السلوك

الإيمان والمفاهيم الخاطئة

عزل الإيمان عن السلوك

من المفاهيم الخاطئة التي أُحدثت في علم الكلام، ولم يكن لسلفنا الصالح بها عهد، فصل العمل عن الإيمان، كانوا لا يعرفون الإيمان إلا بالعمل، ومن قصر عندهم في العمل قصر في الإيمان، فكانوا يخشون من نقص العمل نقص الإيمان، وكان لهذا الفهم الصحيح تأثير إيجابي علىٰ حياتهم في العهد الأول؛ لأن من خاف نقص الإيمان بنقص العمل شمر علىٰ العمل، ولم يتهاون في الطلب، لأن النقص بعد النقص يذهب بالإيمان كله، فلا يبقىٰ له أصل ولا فرع، لذا كانت همتهم معالي الأمور وتحصيل الأعمال النافعة في كل وجوه الحياة، فملكوا الدنيا شرقًا وغربًا، وأسسوا دولة التوحيد وأقاموا العدل، ومكن الله لدينهم في الأرض، وأبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، فصلحت بهم الدنيا وصلح بهم الدين.

كتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ عدي بن عدي عامله علىٰ الجزيرة: «**إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ وَشَرَائِعَ وَحُدُودًا وَسُنَنًا، فَمَنْ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الْإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حَتَّىٰ تَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنْ أَمُتْ فَمَا أَنَا عَلَىٰ صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ**»[(١)].

ثم اتكل المسلمون في القرون المتأخرة -عصور التخلف- إلىٰ ما أُحدث من الفهم الخاطئ في الفصل بين الإيمان والعمل الصالح، الذي هو أشبه بدعوة فصل الدين عن الحياة، وذلك علىٰ خلاف ما تضافرت عليه آيات القرآن ونطقت به، من اقتران الإيمان بالعمل، وصورت كتب الكلام أن الخلاف في هذه المسألة -وهي هل العمل

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب بني الإسلام علىٰ خمس.

الصالح من الإيمان؟- من قبيل الخلاف اللفظي[1]، فرجعوا علىٰ أعقابهم القهقري، فقهرتهم الأمم، ولم تستقم لهم الدنيا، ولم يستقم لهم الدين.

أخلد عامة المسلمين اليوم إلىٰ الاعتقاد السائد أن المكلف لا يزال مؤمنًا، مهما عمل من معاص، وأظهر من فساد، ومهما فرط في حق الله وحق العباد، حتىٰ صار المسلم بذلك لا يختلف عن غير المسلم في ارتكاب الموبقات والمحرمات، وفي الإعراض عما كلفه به ربه من العبادات. يترك الفرائض، ويرتكب المعاصي والمخالفات، يأكل الربا ويأتي الزنا، ويتعدىٰ ويظلم، ويكذب ويغش، ويتكلم بالكلمة الكبيرة في الدين لا يدري ما هي دون حسيب من نفسه أو رقيب.

قصر عامة الناس دور الإيمان في النفوس علىٰ المساجد، وأخرجوه من سائر مرافق الحياة الأخرىٰ في السلوك والتعامل، وما أكثر ما فيها من فرائض، فليس للإيمان أثر يذكر في التجارة والأسواق، ولا في السفر والرحلات، ولا في السياحة والفنادق، ولا في الطب والعلاج والمستشفيات، ولا في الجامعات ومعاهد العلم، ولا في الإدارات والأعمال والوظائف، ولا في الحركة اليومية من حياة الناس.

التجارة والمكاسب:

ففي التجارات صفقات محرمة، وعقود فاسدة، وقروض ربوية يسمونها (تسهيلات) من تسمية الشيء بضده، وذلك من تلاعب الشيطان، قليل يتورع، وغالب الناس لا يسأل أبدا، أو يسأل بعد إتمام الصفقة، ونسبة كبيرة من الناس تقف أمام العقود المشبوهة شرعًا، المغرية بعروضها طبعًا، في مفترق طرق، القلب غير مطمئن والإغراء يُلح، والفتاوي متضاربة، وسهولة بذلها من أهل العلم علىٰ الهواء في المتناول، وذلك من علامات الساعة وقلة العلم، والسائل يسأل عن المتشابه، لا ليكف ويتورّع، كما نصح رسول الله ﷺ الأمة «**فَمَنِ اتَّقَىٰ الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**»[2]، و «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يَرِيبُكَ**»[3]، وإنما ليحط عن كاهله المسئولية، ويضعها علىٰ كاهل العالم، فيتخذه جسرًا.

---

(١) انظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١/١٠٨.

(٢) البخاري حديث رقم ٥٢.

(٣) الترمذي حديث رقم ٢٥١٨.

المال والتعامل

إذا أردت أن تعلم محل الإيمان في قلوب الناس، فلا تنظر إلىٰ زحامهم علىٰ أبواب المساجد، وأماكن المناسك، حجاجًا وعمارًا، وبكائهم وضجيجهم، ولكن انظر إلىٰ تعاملهم بالمال، وإنصافهم غيرهم من أنفسهم إذا زاحموهم أو جاوروهم، أو شاركوهم، أو باعوهم. التعامل محك يختبر به إيمان المسلم وورعه، ووقوفه عند حدود الله -تعالىٰ-، وأقوىٰ أنواع التعامل في اختبار معادن الناس وديانتهم التعامل بالمال، فالمال شقيق الروح، وفيه إغراء وإغواء، يصعب معه علىٰ ضعيف الدين النَّصَفةُ، وتركُ ما ليس له، ما دام يقدر عليه ولو بالاحتيال والغش، أو القهر والغلبة، فالدينار والدرهم يَقِفك علىٰ حقيقة الرجال، ولذلك كانوا يقولون: اختبروهم بالمفروش والمنقوش، فقد تجد الرجل يصلي ويصوم ويحج، ويعجبك مظهره وسمته، فإذا ما خالطته في المال رأيت عجبًا، فكأنه إنسان آخر، يخاصم بهتانًا، ويأكل المال بالباطل، ويخاصم في المحاكم فجورًا، يبحث عن ثغرة في القوانين، ويستعدي علىٰ خصمه بالمحامين؛ ليستولي علىٰ ما ليس له إذا وجد في القوانين ثغرة، وذلك من قلة الفقه وقسوة القلب، فإن ترك الحرام أفضل من العبادة.

فشا سوء المعاملة بين المسلمين، ووصل إلىٰ حد صار الناس يمدحون به الكفار ويذمون المسلمين، فظَلَم بذلك المسلمون دينهم الذي يقوم علىٰ الحق والعدل، وبجلوا أهل الكفر وقوانينهم التي تقوم علىٰ الجور والظلم. فما يتعاقد اثنان علىٰ عمل في الغالب والكثير أو يتشاركان -حتىٰ من أولئك الذين يدل مظهرهم علىٰ المحافظة علىٰ دين الله -تعالىٰ- وشرعه، والوقوف عند حدوده أمرًا ونهيًا - إلا وتسمع عن تعاملهما بعد حين ما يسوء ويخيب الآمال؛ مماطلة في دفع الحقوق والديون، خلف في العهود والمواثيق، تحايل علىٰ التنصل من الالتزامات، كثير منهم لا يراجع عمله منذ بدايته، ليعرف ما إذا كان يتفق مع شرع الله أو يخالفه، فيكون بناء العمل من أساسه علىٰ باطل، وما كان أساسه باطلا لا يصير بعد ذلك صالحًا. وبعضهم يراجع عمله علىٰ الشرع، ولكن يأخذ منه ويترك؛ لأنه يريد كسبًا سريعًا، ويرىٰ أن بعض القيود تعوقه عن الصفقات المغرية، والكسب السريع، فيأخذ من الشرع ما يناسبه،

وما لا يناسبه من الأقوال المعروفة المشهورة في الدين إذا كان محتاجًا إليها يبحث له عن (محلل) عن طريق القنوات الفضائية أو مواقع الحاسوب، والمهم فتوىٰ (ومن قلد عالمًا لقىٰ الله سالمًا)، فصار كل شيء احترافًا، حتىٰ الاستفتاء، أما فتوىٰ رسول الله ﷺ للأمة في كل عصر ومِصْر: «**دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَىٰ مَا لاَ يَرِيْبُكَ**»[1]، فليس لها بيننا مكان إلا من رحم ربك.

عدم الانضباط:

جارىٰ المسلمون الكفار في كثير من منكراتهم التي يحرمها الإسلام، وزاد العامة من المسلمين علىٰ غير المسلمين بسيئة أخرىٰ، وهي عدم الانضباط في حياتهم، وفي تصريف معاشهم ومعاملاتهم، فكثر فيهم الغش والكذب، والإخلاف والرشوة، والاحتيال علىٰ أكل المال بالباطل، واستحلال المال العام، والمغالبة علىٰ الحقوق، والتهرب من الواجبات، والتنصل من الالتزامات والعهود، والأنانية، واستغلال المراكز والوظائف، والامتيازات والعقود، لصالح النفس، والقريب والصديق، والذي يدفع أكثر، إلىٰ غير ذلك من الأمراض الاجتماعية الشائعة في بلاد المسلمين، وليس لها حصر ولا عد.

انضبطت حياة غير المسلمين مع تضييعهم للدين، لما وجدوا من فوائد في الانضباط فعوّدوا أنفسهم علىٰ ذلك، ونشئوا أولادهم عليه، وأشربوا محبته في قلوبهم، ثم سنوا من القوانين ما يحفظ هذا الانضباط، وطبقوا القوانين بصرامة علىٰ الرئيس والمرءوس، فاستقام لهم بذلك ما أرادوا من الدنيا، وازدهرت لهم الحياة، وتقدمت العلوم، وصدروا للعالم حضارتهم واختراعاتهم وثقافاتهم، واستولوا بذلك علىٰ ثروات المسلمين وعلىٰ عقولهم، وزهد المسلمون في العمل الذي هو جزء الإيمان فتخلفوا.

ولعدم الانضباط في حياة المسلمين اليوم مظاهر سلبية أكثر من أن تحصىٰ، هي سبب تخلفهم وذلهم، وشقاء حياتهم وانتكاساتهم، لنأخذ منها مثالين يشترك فيهما في الغالب والكثير عامة الناس، يدلان علىٰ باقيها:

---

(١) المصدر السابق.

١- **الاستهتار بالوقت:**

الوقت أغلىٰ شيء عند العاقل، وأرخص شيء عند الجاهل، العاقل يزن كل ذرة منه بموازين الذهب، والجاهل يبذله برخص التراب، العاقل يحرص علىٰ الانتفاع به في كل نفس من أنفاسه، ويحسبه بأجزاء الثواني.

لم تعرف البشرية وصفًا يعبر عن نفاسة الوقت واغتنامه في الخير أبلغ من قول رسول الله ﷺ: «**إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَفي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّىٰ يَغْرِسَهَا؛ فَلْيَفْعَلْ**»[1]، وقد بلغ علماء المسلمين في حساب الوقت مبلغًا لا يوجد له نظير، قال رجل لعامر بن عبد الله بن عبد قيس أحد العباد: كلمني، فقال له عامر: أمسك الشمس.

يقول أبو الوفاء بن عقيل عن نفسه: لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، إن تعطَل لساني عن مذاكرة أو مناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وقد ألف ابن عقيل كتاب (الفنون)، قال عنه الذهبي: لم يصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب، يقال: بلغ ثمانمائة مجلد.

وكان يقول: كنت أختار سف الكعك وتحسيه بالماء علىٰ مضغ الخبز؛ لأجل ما بينهما من التفاوت في الوقت، حتىٰ تتوفر له ثوان يغتنمها في شيء ينفعه[2].

والخطيب البغدادي إذا احتاج إلىٰ المشي في الطريق لا يضيع وقته في المشي دون أن يعود عليه منه شيء، بل كان يمشي وفي يده جزء يطالعه، وكان ابن الجوزي يجعل أوقات الزيارات التي لا يقدر علىٰ دفعها لبري الأقلام، وإعداد الورق، وحزم الكراريس، لأنها أعمال لابد له منها، ولا تحتاج إلىٰ فكر وحضور قلب، حتىٰ لا يضيع شيئًا من وقته دون نفع[3].

هذا المقياس الذي يقيس به عامر بن عبد القيس وابن عقيل الوقت، دونه المقاييس اليوم في الدول الصناعية المتقدمة، فلم يصلوا بعد إلىٰ اختصار أوقات أكلهم بما

---

(١) المسند حديث رقم ١٢٥٦٩.

(٢) المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ٢/٢٤٧، وانظر حاشية الشيخ عبد الفتاح أبي غدة علىٰ رسالة المسترشدين للمحاسبي ص١٤٧.

(٣) المصدر السابق ص١٤٧، عن صيد الخاطر لابن الجوزي.

اختصره ابن عقيل. إنها الحضارة النابعة من الإيمان، التي لا ترقىٰ إليها الحضارات المادية المجردة، فلما خرج السلوك من دائرة الإيمان، ولم يكن هناك قانون رادع، ولا عقاب صارم، ضيع الناس كل شيء، ضيعوا أعمارهم وأعمالهم، بالتجمع في المكاتب وأماكن العمل بتمضية الأوقات، وبالجلوس في الأسواق والطرقات، ومراقبة الناس، وبما اعتادوه من كثرة الزيارات، ويسمون ذلك مواصلة، يمضون فيها أكثر أوقات أعمارهم، في أحاديث لا تعود بطائل، بل إلىٰ الغيبة والمخالفات أقرب.

فإن لم يكن شيء من ذلك، فبالجلوس الساعات الطويلة للشاشات الصغيرة، التي لا يكاد يخلو منها بيت، أو بلعب الورق والشطرنج وما استحدث من ذلك في مجالات اللهو واللعب، وهذا هو الغبن الذي حذر منه النبي ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»[1].

الوقت هو الكلمة السحرية التي إذا أُحسن استعمالها، وغلا ثمنها، وحسبت بالثواني والدقائق، عبد المسلم ربه، وأنتج الفرد، وتقدمت الأمم، وبنيت الحضارات، وإذا أسيء استعمالها واستوت فيها الدقائق والأيام مع السنين والأعمار، وصارت بسعر التراب، تعطلت الحياة، واضمحلت الأمم، وخربت البلاد.

في الأمم المتقدمة، تقلع الحافلة والقطار في الموعد، ويصل البريد في الوقت المحدد، ويبدأ العامل في الزمن المقرر، وإتقانه للعمل ومستوىٰ أدائه في الخدمة من الناحية العضلية والعقلية هو في الساعة الأخيرة من الدوام كالساعة الأولىٰ حين يبدأ، وكأنه آلة، لا تكلّ ولا تملّ، وفي الأمم التي لا تحسب للوقت حسابًا، تختفي الحافلات من الشوارع، ويصل البريد المحظوظ بعد شهر، والموظف الأمين من يزور المكتب كل يوم!!.

لرخص الوقت عند المسلمين صار المسلم لا يحس بالحرج إن تأخر عن عمله، أو تخلف عن عهده، خصوصًا إذا قال عند العهد: إن شاء الله، فوضعت هذه الكلمة (إن شاء الله) التي تعني العزم والتصميم، وطلب العون من الله علىٰ التنفيذ، وضعت لتلمح إلىٰ الإنكاث، وأصبحت تعني عند ضعاف الإيمان تبييت النية مسبقًا علىٰ الإخلاف، حتىٰ صار أعداء المسلمين، يتندرون بها علىٰ المسلمين.

---

(١) البخاري حديث رقم ٦٤١٢.

٢- المغالبة علىٰ الحقوق:

من مظاهر عدم الانضباط المنافية لسلوك المسلم الإيماني، المغالبة علىٰ الحقوق، لا أقصد الحقوق المادية العينية، كالأملاك والعقارات، فتلك لها شأن آخر، وإنما الحقوق التي يغفل عنها الناس، حتىٰ إنهم قد لا يعدونها حقوقًا، الحقوق المعنوية المتمثلة في المنافع العامة، التي يكتسبها الإنسان بصفة أسبقيته إلىٰ الشيء، أو بصفته مواطنًا، أو بصفته إنسانًا، أو بما وضعته الدولة لرعاياها من نظم وقوانين لتحقيق الصالح العام، مما لا يخالف الشرع، أصبحت هذه الحقوق غير معترف بها غالبًا بين عامة المسلمين، وسلبها والاستيلاء عليها أمر لا يثير الاستنكار ولا الاستغراب، فمن يقدر علىٰ شيء بالمزاحمة والمغالبة، أخذه دون استحياء ولا تردد.

الازدحام غير المنظم شعار الناس حتىٰ في المقابر للعزاء، مع أن الحادث حادث موت، والموت اعتبار، ولكن لا تأثير له علىٰ النظام، فالطبع يغلب التطبُّعَ لم يعتد الناس في حياتهم نظام (الطوابير) واحترام الحقوق، لا في المقابر، ولا في الأسواق، ولا في الحج وأماكن العبادة، ولا في ركوب الطائرات والحافلات، ولا في العيادات والمستشفيات، ولا وهم يقودون المركبات في الطرقات.

ففي الطرقات المبدأ السائد هو المغالبة، والاستيلاء علىٰ ما للغير، العاجز والضعيف هو الذي يلتزم نظام السير، والباقي يسطو علىٰ الطريق من أي جهة كانت، فإذا ما كلمته، أو لم تسمح له بالتعدي سمعت من الكلام ما لا يمكن الصبر عليه، فإن سكت سكتّ عن ظلم وذل، وإن تكلمت أوقف سيارته وأخرج السلاح ليقاتل، وتسائل نفسك: أين أنت؟ لا تصدق ما ترىٰ!! ما حولك من الظواهر والمركبات وهيئات الأشخاص، كلها ظواهر مدنية، أهلها مسلمون، والأخلاق؟! الله المستعان، لا إيمان في القلب يردع، ولا قانون له سلطان علىٰ الجميع ينفذ.

المغالبة بالاحتيال والسطو علىٰ أوقات الناس وعلىٰ حقوقهم بالتزوير والرشاوي، أو بالمعارف والوجاهات والوسائط، أصبحت اليوم في الأعراف السائدة مشروعة، من يقدر علىٰ شيء من جهد غيره أو وقته أو ماله أو حقه أخذه ولا يبالي.

السلوك الإيماني في الحفاظ علىٰ النظام والآداب العامة وحقوق الآخرين معطل،

يقف السائق بسيارته وسط الطريق ليتحدث مع صديقه، ويتوقف بوقوفه الجميع حتىٰ ينتهي من حديثه ولا يحس بالحرج.

من احتاج إلىٰ الطريق العام لأي ظرف من الظروف ركَب خيمة وسط الطريق، وأغلقه علىٰ الناس أيامًا عديدة، لا يستأذن أحدًا، ولا يرىٰ أنه اعتدىٰ علىٰ أحد، فالجميع يجب أن يعذروه، وكأن الطريق ميراث أبيه، رحم الله مالكًا، أوقفه حمال علىٰ ظهره الماء في الطريق لمسألة، فلم يجبه حتىٰ نحاه عن الطريق، وقال له: الطريق ملك المسلمين جميعًا، ليست ملك أبي ولا أبيك.

وإذا كان السبب الذي أغلقت الطريق من أجلها تعديًا حفل زواج، أضاف المعتدي إلىٰ منع الطريق منع راحة الجيران، بمكبرات الصوت التي تبث كلامًا ساقطًا صاخبًا، يسمونه غناء، وتمتد هذه الأصوات المنكرة إلىٰ فروع الفجر، فإذا ما حان وقت الآذان هدأت الأصوات، وخمدت الشياطين، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

كل حقوق الفرد سواء كانت مادية أو معنوية، سواء كفلها له الشرع، أو كفلتها له القوانين الموضوعة للصالح العام بما لا يخالف الشرع، كقوانين السير في الطرقات والمرور، وتنظيم الأسواق وتنظيم الأعمال والإدارات وغيرها، مما يحقق المصلحة العامة - كلها يجب طاعتها واحترامها، وعدم الاعتداء عليها، فلا يجوز المساس بها شرعًا، ومخالفتها تعد عصيانًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورىٰ: ٤٢].

والحقوق بأنواعها مادية أو معنوية لا توبة لمن يتعدىٰ عليها إلا باستحلال أصحابها، قال ﷺ: **«مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَلَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»**[1].

(١) البخاري حديث رقم ٢٤٤٩.

استحلال المال العام:

استحلت القاعدة العريضة من الناس المال العام، فمن قدر علىٰ شيء منه وأَمن المساءلة تعدّىٰ عليه ولم يبال، ولا يرون للمال العام حرمة ولا ضوابط.

المال العام فيه حق لكل الأمة، والمعتدي عليه من غير وجه حق متعد علىٰ كل الأمة التي لها حق في ذلك المال، والضرر المترتب علىٰ كل الأمة أشد من الضرر المترتب علىٰ التعدي علىٰ فرد واحد، فمن امتدت يده مثلًا إلىٰ آلة أو جهاز، أو سيارة في (مصنع) أو مؤسسة، أو مستشفىٰ، أو مرفق يقدم خدمات عامة، فقد عطل تلك الخدمة، وشلّ حركة ذلك المرفق، وأوقع ضررًا بالغًا بعامة الناس، يؤدي إلىٰ تعطيل مصالحهم، وتضييع حقوقهم، وقد يؤدي إلىٰ إتلاف حياتهم.

النقص في الأجهزة، وفي المواد والإمداد، وفي كل السلع التي لا تأتي إلا عن طريق المال العام، وما يؤدي إليه هذا النقص من إضرار بالمحتاجين إليها ـ من أهم أسبابه امتداد الأيدي إليها من (الأمناء) عليها في مصدرها الأول، الذين يستحلون المال العام، فلا يصرف منها إلىٰ الجهات التي تستحقها إلا القليل، وهذا القليل أيضًا لا يسلم كله، بل يناله ما يطوله من الأيدي التي هي الأخرىٰ تستحل المال العام بعد تسليمه إليها، والجميع يبيعون هذا المال العام بأغلىٰ الأثمان إلىٰ تجار القطاع الخاص.

هذا التعدي يُعد من أهم أسباب النقص في السلع والمواد والخدمات في مصدرها الأول، الذي يقدمها مجانًا كالمستشفيات، أو بسعر في المتناول الميسور، كالمصانع والمؤسسات، وتوفرها خارجها بأضعاف ثمنها، مما لا يقدر عليه عامة الناس. فالعامة من عباد الله لا يقدرون علىٰ إيواء مرضاهم في المصحات الخاصة، ولا يقدرون علىٰ شراء السلع والمواد الأولية اللازمة لبناء بيت مثلًا، أو تكوين أسرة - من المحلات التي تبيعها بأضعاف ثمنها، ويكون مصيرهم -بسبب سرقة من تمتد أيديهم إلىٰ المال العام- إما إلىٰ اليأس المؤدي إلىٰ هلاك المريض، أو الحرمان المستمر للمحتاجين، وإما اقتحام الحرام بأكل الربا والرشاوىٰ وانتهاب المال العام كما ينتهب غيرهم، وتتولد علىٰ هذا الانحراف سلسلة من المفاسد، تنمو وتكبر وتتنوع أساليبها في الاحتيال والفساد والإفساد.

وكل ذلك يتحمل تبعته وأوزاره من تاجر في حقوق العباد وخدماتهم المجانية، ونمىٰ ماله من السلع المخفضة بشتىٰ الطرق والوسائل غير المشروعة، كافتعال الرسائل المزورة باسم الإدارات والمؤسسات، واستغلال الوجاهات والمناصب والنفوذ، وهو مطلوب عند الحساب بالحقوق من كل من تضرر منه من عباد الله.

هذا لون من التعدي علىٰ المال العام علىٰ المستوىٰ الأدنىٰ، من أصحاب الوظائف الصغيرة، أما علىٰ مستوىٰ المؤسسات ومجالس الإدارات، فالمبدأ السائد بينها -إلا من رحم ربك- أن المؤسسة وما تنتجه ملك من أملاك رئيس المؤسسة، ينميه ويأخذ عمولاته، ويستثمره ويستغله ماديًا ومعنويًا للرفع من مستواه، وخدمة أملاكه ومشاريعه ومزارعه، وشغله الشاغل الحرص علىٰ المنصب، وبذل النفيس والرخيص في الحفاظ عليه، لأن بفقده يفقد كل شيء، عدا سلوك المؤمن، فإنه غير موجود أصلًا، فلا يصاب فيه.

وقد توعد النبي ﷺ من كتم مخيطًا من المال العام، فكيف بما فوقه، فقال: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَىٰ عَمَلٍ، فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا، فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(١)]، وأشار النبي ﷺ وهو يمر بالبقيع إلىٰ قبر، وقال: «**هَذَا فُلَانٌ بَعَثْتُهُ سَاعِيًا عَلَىٰ بَنِي فُلَانٍ، فَغَلَّ نَمِرَةً، فَدُرِّعَ الآنَ مِثْلَهَا مِنْ نَارٍ**»[(٢)]، ودُرِع معناه: ألبس عوضها درعا، وهو الثياب السابغة الكاملة أي ألبسها في النار. وقال ﷺ: «**مَا بَالُ الْعَامِلِ نَسْتَعْمِلُهُ فَيَأْتِينَا فَيَقُولُ: هَذَا مِنْ عَمَلِكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، أَفَلا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَنَظَرَ هَلْ يُهْدَىٰ لَهُ أَمْ لَا؟ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَغُلُّ أَحَدُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا، إِلَّا جَاءَ به يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ عُنُقِهِ: إِنْ كَانَ بَعِيرًا، جَاءَ بِهِ لَهُ رُغَاءٌ، وَإِنْ كَانَتْ بَقَرَةً، جَاءَ بِهَا لَهَا خُوَارٌ، وَإِنْ كَانَتْ شَاةً، جَاءَ بِهَا تَيْعَرُ، فَقَدْ بَلَّغْتُ**»[(٣)].

---

(١) مسلم حديث رقم ١٨٣٣. وحديث: «**من ولىٰ لنا عملًا وليس له منزل فليتخذ منزلًا، أو ليس له زوجة فليتزوج، أو ليس له خادم فليتخذ خادمًا**» خرجه أحمد وأبو داود واللفظ له وسكت عنه هو والمنذري، قال الخطابي: هو محمول علىٰ أحد وجهين: أحدهما أن ذلك يكون من عمالته التي هي أجرة مثله، وليس له أن يرتفق بشيء سواها، الثاني أن للعامل السكنىٰ والخدمة، فإن لم يكن له مسكن ولا خادم استؤجر له من يخدمه، فيكفيه مهنة مثله، ويكتري له مسكن يسكنه مدة مقامه في عمله، الفتح الرباني علىٰ المسند ٩/ ٥٦.

(٢) سنن النسائي حديث رقم ٨٦٢.

(٣) البخاري حديث رقم ٦٦٣٦.

وتوعد الله ﷻ الغال، فقال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، وأخبر النبي ﷺ أنه يتبرأ من الغال من أمته يوم القيامة فقال: «**يقول: أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا**»[1]، وأخبر عمن أخذ شملة من المغنم قبل القسم أنها تشتعل عليه نارًا[2].

ولا خلاف بين الفقهاء أن من أخذ شيئًا من المال العام من غير وجه حق، أو أتلفه، لزمه رده، أو رد مثله أو قيمته، علىٰ القاعدة في ضمان التعدي، وإنما الخلاف بينهم في قطع يده، فمنهم من أوجب فيه القطع، وهم المالكية تمسكا بالعموم في آية السرقة، ومنهم من منع القطع وهم الجمهور، للشبهة، فإن لكل الأمة حقًا في بيت المال، والحدود تدرأ بالشبهات[3].

السفر والسياحة:

السفر والرحلات، والفنادق والسياحة، ليس هناك فارق يذكر بين ما هي عليه في بلاد المسلمين، وبلاد الغرب، ابتداء من اللغة، فليست اللغة العربية لغة سياحة، الكلام بلغة الغرب، ولباس النساء -عاملات أو نزيلات- لباس الغرب، ضجيج الموسيقىٰ والأشرطة والمسلسلات لا يفارق المسافر، لا في الحافلة، ولا في الطائرة، ولا في الباخرة، ولا في صالات الفنادق التي تعمر ليلها بالخمور والقمار، والغناء والنساء، وما إلىٰ ذلك من حبائل الشيطان، لا تسمع من يقول بسم الله، ولا توكلت علىٰ الله، ولا من يكبر الله ويوحده، لا هو راكب ولا هو نازل، بل استبدلوا بالذكر والتكبير عند نزول الطائرات التصفيق والتهريج، كما كانت تفعل الجاهلية عند البيت بدل الذكر والصلاة، ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]. أي صفيرًا وتصفيقًا.

وليس في جدول السياحة ومواعيدها مكان للصلاة، فلا إقلاع الطائرات منظور في حسابه إلىٰ صلاة المسلمين التي ربطها الله -تعالىٰ- بأوقات محددة، ولا في جدول الحافلات مكان للوقوف للصلوات، إلا إذا وافق وقت أكل، أو راحة للسائق

(١) انظر البخاري حديث رقم ٣٠٧٣.

(٢) البخاري حديث رقم ٤٢٣٤.

(٣) انظر موسوعة الفقه الكويتية، مادة: (بيت المال) فقرة ٢٦.

والراكب، فعلىٰ من يريد الصلاة أن يتحين تلك الأوقات ويبادر، فإنه إن انتظر ليأكل، فلا ينتظر ليصلي إلا علىٰ مضض وكره، ولو قلت لسائق الحافلة قف لي قليلًا لأشتري شيئًا رأيته في الطريق لاستجاب لك، ولوجدت من الركاب قبولًا ورضا، لكن إن حان وقت الصلاة وطلب الراكب من السائق أن يقف ليصلي خوف خروج الوقت -مع ندرة من يفعل ذلك- لما وجد استجابة إلا علىٰ مضض وكره، واستخفاف واستهجان، ولرموه بالشذوذ وقلة الفهم في الدين، لأنه (عطل المسلمين)، فهل هذه أخلاق المؤمنين؟!!.

الطب والمستشفيات:

الطب والعلاج والمستشفيات، لا يختلف حاله وحال العاملين فيه عن العاملين في السياحة والفنادق والمستشفيات الأوروبية، فلا الطبيب ولا من يساعده من العاملين والعاملات -حتىٰ المصلين منهم- يتقيد بتعاليم الشرع والدين، إلا من رحم ربك، وهم من الندرة بمكان. لهم في الاستهتار وعدم المبالاة في كشف عورات المرضىٰ، والخلوة والاختلاط المحرم ما يندىٰ له الجبين، يطبقون في ذلك ما تعلمونه في مستشفيات أوروبا مع المريض، والأوروبيون يبيحون اختلاء الرجل بالمرأة، ويكشفون العورات دون غضاضة ولا حياء، حتىٰ في الطرقات والأسواق، والحمامات، فليس في ذلك عندهم حرج ولا بأس!!.

إذا دخلت صالة الولادة في مستشفىٰ من المستشفيات رأيت العجب، مناظر لا يقبلها صاحب نفس كريمة، ناهيك بمن له من دين المسلمين نصيب، أجساد نساء شبه عارية تتوجع، هنا وهناك، والداخلون والخارجون من الطلبة والمتدربين والعاملين المتطفلين، والمراجعين، أطباء وغيرهم، أكثر من القابلات والمداوين.

تعاليم الإسلام تقول: المرأة للرجل كلها عورة ما عدا وجهها وكفيها، ولا يجوز له أن يلمس بشرتها إلا للضرورة، والمرأة يجوز لها أن ترىٰ من المرأة أعلىٰ بدنها وأسفله، ما عدا ما بين السرة والركبة، فهو عورة، لا يجوز للمرأة أن تراه من المرأة إلا للضرورة.

وعليه فالرجل لا يكشف علىٰ المرأة ولا يباشرها بيده ما دامت هناك طبيبة يمكنها أن تعالج المريضة؛ لأن الطبيبة يجوز لها أن تباشر المريضة بيدها، ويجوز لها أن ترىٰ

منها ما عدا ما بين السرة والركبة. فإن كان العلاج يستدعي كشف العورة، ففي حالة الضرورة، الرجل يعالج الرجل، والمرأة تعالج المرأة، فإن تعذرت هذه الموافقة، فلم يجد الرجل طبيبًا رجلًا يعالجه، ولم تجد المرأة طبيبة تعالجها ووجدت ضرورة، جاز للرجل أن يكشف عن المرأة، وللمرأة أن تكشف عن الرجل.

أما حديث الربيع بنت معوذ التي قالت: «كنا مع النبي ﷺ نَسْقِي ونداوي الجرحىٰ، ونرد القتلىٰ إلىٰ المدينة»[1]. فمحمول عند العلماء علىٰ أنهن يداوين الأزواج والمحارم، أو علىٰ أنه كان من غير مباشرة ولا مس للبدن، قالوا: ويدل لذلك اتفاق العلماء علىٰ أن المرأة إذا ماتت، ولم توجد امرأة تغسلها أن الرجل لا يباشر غسلها بمس بدنها، بل يغسلها من وراء حائل عند بعض العلماء، وعند أكثرهم ييممها، ويسقط عنها فرض الغسل[2].

والضرورة التي تستدعي كشف العورة للعلاج يجب أن تقدرها بقدرها، دون توسع أو تساهل وعدم مبالاة، كما هو الحال في المستشفيات التي يستهان فيها في العادة بكشف عورة المريض، وحرمة العورات في تقاليد المستشفىٰ ثانوية.

فمثلًا إذا كان يكفي في علاج الجرح مثلًا كشف الفخذ، فلا يجوز للطبيب أن يكشف ما زاد عليه، وإذا كانت الطبيبة أو الممرضة يمكن لها أن تقوم بالعمل وحدها، فلا يجوز لها أن تعرض المريض أو المريضة مكشوف العورة أمام جماعة من رفاق المهنة، الذين ليس لحضورهم حاجة في العلاج.

وإذا انتهىٰ الطبيب أو المعالج من الدواء أو الكشف، أول شيء يجب أن يقوم به بنفسه، هو ستر عورة المريض، قبل القيام بأي عمل آخر؛ لأنه المسئول عن ذلك، ولأن المريض لا يعلم متىٰ ينهي الطبيب عمله، لا أن يترك الطبيب المريض، ويذهب لغسل يديه، وأحيانًا حتىٰ لكتابة الوصفة، والمريض علىٰ حاله.

فعلىٰ العاملين في المستشفيات، الخاصة منها والعامة أن يتقوا الله -تعالىٰ- في عورات المسلمين والمسلمات، وأن يعملوا علىٰ أن يسود فيها احترام قانون الشرع في الحفاظ علىٰ العورات، التي فرض الله -تعالىٰ- علىٰ المسلمين سترها، قال -تعالىٰ-:

---

(١) البخاري حديث رقم ٢٨٨٢، وفتح الباري ٦/ ٤٢٠.

(٢) انظر فتح الباري ٦/ ٤٢٠.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]، وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَنْظُر الرَّجُلُ إِلَىٰ عَوْرَةِ الرَّجُلِ وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَىٰ عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ**»[١]، وقال ﷺ: «... **والعينان زناهمَا النظر**»[٢].

ولا يتم ذلك إلا بتوفير الخدمات النسائية للنساء، بأن تخصص للنساء في العيادة طبيبة، وفي التوليد (قابلة)، وفي معمل التحليل أو غرفة الأشعة امرأة تقوم لهن بالخدمة والتحضير، حيث تحتاج المريضة لكشف صدرها أو عنقها، وكشف ذلك للمرأة غير ممنوع، لكنه للرجل ممنوع، وبذلك يتخلص من محذور آخر ليس له حساب في عرف المستشفيات، وهو الخلوة بين الرجل والمرأة في غرفة ليس معهما أحد.

الطبيبة المسلمة تحس بالحرج من عدم مراعاة تجنب الخلوة في المستشفيات حتىٰ إن منهن من تركن المهنة من أجله، وكذلك بعض الأطباء يعانون من هذه المشكلة مرارة، فإن المؤمن لا يطيق التمادي علىٰ انتهاك حدود الله والإصرار علىٰ ذلك كل يوم، وليس حل هذه المشكلة من الأمر العسير إذا خلصت نية من يديرون المستشفيات، فإن تخصيص خدمات الرجال للرجال، وخدمات النساء للنساء كفيل بوجود مخرج للمسلم من هذا الأمر.

وقد حرم النبي ﷺ الخلوة وحذر منها أشد التحذير، قال ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَىٰ النِّسَاءِ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَرَأَيْتَ الْحَمو؟**، **أي هل يجوز له أن يختلي بزوجة أخيه؟ قال ﷺ: الحَمو المَوْتُ**»[٣]، محذرًا من ذلك، ومؤكدًا عليه، وقال ﷺ «**لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ**»[٤].

وكما أن الخلوة ترتفع بوجود محرم للمرأة، ترتفع أيضًا بوجود طرف ثالث ثقة، رجل أو امرأة، ولو غير محرم عند كثير من العلماء، لقول رسول الله ﷺ: «**لا يَدْخُلَنَّ**

---

(١) مسلم حديث رقم ٣٣٨.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٦٥٧.

(٣) البخاري حديث رقم ٥٢٣٢.

(٤) البخاري حديث رقم ٥٢٣٣.

رَجُلٌ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا عَلَىٰ مُغْيِبَةٍ إِلَّا وَمَعَهُ رَجُلٌ أَو اثنان»[1]، وعليه فبقاء المريضة في الغرفة مع الطبيب بحضور الممرضة مثلًا ترتفع معه الخلوة، ولا يكون ممنوعًا[2].

والذي يحل المسألة برمتها أن تترك خدمات النساء -طبيبات وغير طبيبات- للنساء ويستبعد منها الرجال، ولا شك أن في ذلك فائدة علاجية أيضًا علاوة علىٰ الفائدة الأخلاقية الدينية، فإن استجابة المريضة إلىٰ امرأة مثلها أيسر عليها وأرفع للكلفة، حيث تستطيع أن تبوح لها بكل ما في نفسها، الأمر الذي قد يساعد علىٰ تشخيص الداء ومعرفة الدواء.

وبسبب البعد عن هذا المسار الصحيح في إدارة وحدات العلاج والمستشفيات، ووجود الرجال في أماكن خدمات النساء، وأحيانًا يكون هؤلاء الرجال المهنيون في الأشعة أوغيرها من غير المسلمين، كالنصارىٰ والهندوس، فيزداد الأمر بذلك سوءًا. بسبب ذلك صارت المرأة المحافظة علىٰ حياتها تحسب لدخول المستشفىٰ ألف حساب، وقد تتأخر وتتباطأ كارهة، حتىٰ يفوت الأوان ولا ينفع العلاج.

فرائض الإسلام وسننه تعيش غربة داخل المستشفيات، حيث يتوقع الحفاظ عليها والتقيد بها، لما يشاهد فيها من الاتعاظ اليومي المتواصل بالموت والأوجاع والأسقام والآلام. هل رأيت طبيبًا، أو ممرضًا واقفًا إلىٰ جنب محتضر يلقنه لا إله إلا الله؟! وقد خاطب النبي ﷺ جميع المسلمين بذلك فقال: **«لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لا إله إلا اللهُ»**[3]، ثم يغمض له عينيه، ويشد له لحييه، كما هي السنة في العمل بمن حضر أجله.

أخبرني طبيب أنه حاول أن يشيع ذلك بين زملائه، فوجد نفسه كأنه يخاطب أبا جهل، ولا يخاطب مؤمنين، والأسوأ في هذا أن المريض إن حضر أجله فيما يسمىٰ بغرفة العناية، تحضره في الغالب ممرضة بوذية، أو نصرانية، لأنه لم يعمل حساب لما ينبغي من حقوق المسلم عند الموت.

يترك الطبيب غرفة عمله، ويُطلب لإسعاف مريض، فلا يُعثر له علىٰ أثر، وتُربط

---

(١) مسلم حديث رقم ٢١٧٣، والمغيبة: المرأة التي غاب زوجها.

(٢) انظر فتح الباري ٤/ ٤٤٨، ومواهب الجليل ٢/ ٥٢٥.

(٣) مسلم حديث رقم ٩١٧.

أيدي المريض علىٰ السرية بحبل شديد، قد يؤثر فيه ويسبب له عاهة مستديمة لا يبرأ منها، ويترك أحيانًا مربوط اليدين موثقًا وهو في الرمق الأخير محتاج إلىٰ أن يبل شفتيه بالماء، فلا يجد من يحل وثاقه، ولا من يناوله الماء، أوثقته الممرضة بأمر الطبيب، وذهب كل إلىٰ حاله، والصباح رباح! أوثقوه حتىٰ لا تمتد يده (الآثمة) إلىٰ أنبوب الدواء، المركب في يده فآلمه . . . ، ولكن ما الحيلة، فالمريض أشبه بالأسير!!.

هناك ممارسات متخلفة وسط العاملين في المستشفيات العامة يجرمها القانون، ويحرمها الشرع وكل عرف ودين، وهي تدخل تحت خيانة الأمانة، ومنها ما يدخل تحت السرقة والاستيلاء علىٰ المال العام دون وجه حق، أو الإهمال أو التسيب، ويترتب علىٰ ذلك ضرر بالغ بعامة الناس وعجزعن علاج ما كان يمكن علاجه، وقد يكون سببًا في إتلاف الأرواح.

من هذه الممارسات:

١-اختفاء الأجهزة والمواد من المستشفيات، نقص حتىٰ في المواد الأولية، كمواد التعقيم، وتضميد الجروح، والمواد اللازمة للتحاليل الطبية، ويتوفر ما اختفىٰ من ذلك في المصحات الخاصة والعيادات.

٢- إذا كان عدم إتقان العامل لعمله وتأديته علىٰ الوجه الأكمل في سائر المرافق من الإخلال بالعقود التي أمر الله -تعالىٰ- بالوفاء بها، في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]، ومن خيانة الأمانة في التكاليف المتوعد عليها شرعًا، كما قال ﷺ في الحديث القدسي: «**ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ رَجُلٌ أَعْطَىٰ بِي ثُمَّ غَدَرَ** . . .»[1]، أي عاهد عهد المسلمين ثم نكث، والتكاليف كلها أمانة، فالصلاة أمانة، والصيام أمانة، وأداء الواجب أمانة، كل ذلك أمانات -فكيف إذا كان هذا التهاون في مرفق يمس حياة الناس وأرواحهم، ويعرضهم للموت.

٣- الطبيب المتخصص يترك مرضاه في المستشفىٰ العام إلىٰ من هو أقل كفاية، فلا يراهم حتىٰ يخرجوا، أو يفوت الأوان، ويعتني بهم في المصحات الخاصة، ولو حاولت أيها المريض أن تكلم هذا الطبيب المتخصص في المستشفىٰ -بعد أن

---

(١) البخاري حديث رقم ٢٢٢٧.

يئست من إتيانه إليك- لا يقف لك، ولا يلتفت إليك، ولا يرد حتىٰ السلام، و«**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**»(١).

٤- المتخصص في التحاليل الطبية أو الأشعة التشخيصية لا يدقق عمله، ولا يتقنه، ولا يعطيه من جهده ووقته ما يضمن صحة النتائج ووضوحها التي علىٰ أساسها يتقرر مصير المريض، حتىٰ صار الأطباء لا يطمئنون إلىٰ النتائج التي تعطيها لغرابتها، ويطلبون من المريض إعادتها في مكان آخر.

٥- المهنيون في الخدمات، كالأشعة والتمريض وغيرها، غير مؤهلين إنسانيًا -قبل التأهيل مهنيًّا- للتعامل مع المريض، لا يرفقون بعاجز ولا متوجع، لا في نقله ولا في تحريكه، ولا يسمعون حتىٰ إلىٰ كلامه وشكواه إذا طلب منهم عمل ما يريحه، أو يعينهم علىٰ أداء عملهم علىٰ وجه أفضل، لأن جميع المرضىٰ في نظرهم جهال ومتطفلون بالكلام، فعليهم أن يسكتوا ويسمعوا ويطيعوا، حتىٰ ينتهي الواحد منهم من عمله بالطريقة التي يريدها، وهم أدرىٰ بمصلحة المريض!!

٦- الكثير من الأطباء والمساعدين والمداوين لا يحسون بالمسئولية الطبية عن التقصير، وقد ينشأ عن إهمال الطبيب أو الممرض وتقصيره جناية، يترتب عليها ذهاب نفس، أو إصابة بعاهة مستديمة للمريض لا يقوم بعدها، ويخفي الطبيب أو المعالج تقصيره حتىٰ لا تلحقه مساءلة القانون، وأحيانًا يشعر بخطئه الذي لا يكون ظاهرًا يجرمه القانون، فيخفيه عن المريض وذويه، ويحسب أنه كسب القضية، والله -تعالىٰ- عليم منه ما أخفاه، وهو عليه رقيب. ولا شك أن كل مظلوم سيقف مع من ظلمه حين توضع الموازين القسط ليوم القيامة: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، والخطأ يرفع الإثم عن المخطئ لقول الله -تعالىٰ-: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٥]، ولكن لا يعفيه من دفع الدية إن كان فيما أتلفه الطبيب دية مقدرة، كالنفس والأعضاء، وإن لم يكن في الجزء المتلف دية مقدرة، فالواجب الأرش أو الحكومة، وهو التعويض المناسب للضرر الواقع علىٰ المتضرر، يحكم به أهل العدل والخبرة.

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٥٦٤.

المصحات الخاصة:

هذا بعض ما في المستشفيات العامة، أما المصحات الخاصة، فأمورها المالية تمرض الصحيح، بعض المصحات لا يقبل إيواء المريض إلا أن يدفع مقدمًا مبلغًا محترمًا، حتىٰ لو كان المريض حالته لا تحتمل الانتظار، أو يتألم ويصرخ، عليك أن تتركه في الاستقبال حتىٰ تحضر المطلوب، لأن تعليمات الإدارة هكذا، ولو رجعت فوجدت المريض قضىٰ نحبه، تكون محظوظًا إذا سلمت من أجرة الكشف.

لا أريد أن أذكر أصحاب هذه المصحات بمعاملات الكفار في البلاد الأوروبية الذين لا تزيد إجراءاتهم عن إيواء المريض ـ أو حتىٰ عند خروجه وتركه المصحة -عن أخذ عنوانه ورقم هاتفه- لا أريد أن أذكرهم بذلك فأصحاب المصحات أكثرهم -ما شاء الله- درسوا في تلك البلاد، وتخرجوا في جامعاتها، واشتغلوا مع أهلها، وعلموا سيرتهم في هذا الباب تمام العلم. وقد يعتذرون لأنفسهم بأن الناس هناك غير الناس هنا ـ لكن أريد أن أذكرهم بما يجري حولهم في بلدان العالم الثالث، الذين هم من جلدتنا ولساننا ويسلكون سلوكنا، لم يعرف عنهم اشتراط الدفع قبل إدخال المريض ولا سمعنا بمن طلبه، لأنه لا معنىٰ لهذا الشرط والمريض داخل لا خارج، فهو رهينة في ثمن علاجه آخر الأمر، إذ لم يحدث أن أحدًا هرّب مريضه ليلًا حتىٰ يكون مبررًا لهذا الشرط، ولو وُجد فهو من النُدرة بحيث لا يستدعي تشريعًا من أصحاب المصحات يتأذىٰ منه الكافة، ويعرِّض الملتجئين إلىٰ المصحة إلىٰ الخطر ومعاناة الألم بتعطيل إيوائهم وإسعافهم، والمتوقع من هذه المؤسسات الإنسانية أن مصلحة المريض فوق كل اعتبار، ولتشترط المصحة بعد إيواء المريض من الضمانات ما تشاء، فذلك من حقها.

تسويق السلعة للمريض دون أن يستشار:

لبعض المصحات والعيادات من الوسائل القانونية وغير القانونية ما لا يخطر علىٰ البال، المبدأ السائد بينها فرض تسويق سلعتها علىٰ المرضىٰ من غير تمييز، من يحتاج منهم إليها ومن لا يحتاج، لها أدوية وأجهزة ومعامل لابد من تسويقها وتشغيلها بأعلىٰ الأسعار، فكل مريض عليه من الناحية (الإنسانية) أن يسهم في دعمها.

من المصحات ما له تقليد (معتبر) صممته الإدارة، تحصيلًا للمصلحة العليا! وهو

أن كل من يتخطىٰ عتبتها للإيواء، لابد أن يمر بعدد من التحاليل والتشخيصات، لا يعفىٰ منها بحال من الأحوال، سواء كانت لها صلة بشكواه التي أدخلته المصحة، أو لم تكن، لأن الاحتياط واجب!

يخرج المريض بعد الإيواء بقائمة حساب طويلة مملوءة بخدمات طبية وفحوصات وأدوية، بعضها تسلمه وبعضها لم يتسلمه، أو علىٰ الأقل لم يعلم به إلا عند دفع الحساب.

وما استلمه المريض من الخدمات لم يستشر فيه، وهذا هو السبب أنه لم يعلم به إلا عند دفع الحساب، وكأن المريض من حين سلم نفسه إلىٰ المصحة، سلم معها رشده وأهليته في التصرف، وحقه فيما يريد وما لا يريد، وأعطىٰ للمصحة الوصاية المطلقة عليه في أن تفعل به ما تريد. الشرع والعرف والقوانين المتحضرة في الشرق وفي الغرب، تحرم أن يأخذ أحد مالًا من غيره علىٰ خدمة أو عمل لم يُعلمه به، ولم يؤخذ إذنه فيه مسبقًا، ولا يعرف هذا في الشرائع المتمدنة، فضلًا عن الإسلام، وأي مال يؤخذ من الإنسان علىٰ عمل دون إعلامه به، وأخذ رضاه مسبقًا، هو من أكل المال بالباطل في دين المسلمين، حرام، لا توبة لصاحبه إلا برده، قال -تعالىٰ- مشيرًا إلىٰ وجوب التراضي في تبادل المنافع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢٨]، وقال ﷺ: «**إِنَّهُ لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ**»[١]، وقال ﷺ: «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَام دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**»[٢].

الواجب علىٰ المصحة أن تكتب الدواء للمريض، والمريض هو الذي يشتريه، إن شاء منها وإن شاء من غيرها، فقد تكون له مصادر للدواء أقل تكلفة، خصوصًا أن تسعيرة المصحات كلها توضع في قائمة الحساب علىٰ سعر السوق السوداء، حتىٰ لو كان مصدر الدواء مخازن الصحة، وعلىٰ المصحة أن تخبر المريض أنه يحتاج إلىٰ التحليل الفلاني والتصوير الفلاني، وأنه يكلف كذا وكذا، فما وافق عليه عمل له،

---

(١) مسند أحمد حديث رقم ٢٠١٧٢.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٥٦٤.

وما لم يوافق عليه لا يعمل، لأنه هو الذي سيدفع الثمن، وهو أحرص علىٰ مصلحة نفسه من غيره.

والواجب أن تُبين الأجرة علىٰ ما يقدم له من خدمات ببنود واضحة، يخبر بها مسبقًا، بحيث لا يفاجأ عند الحساب بشيء لم يعلمه، فإذا قيل له مثلًا: أجرة غرفة العمليات كذا، فمعناه أن كل ما يقدم له داخل غرفة العمليات داخل فيما ذكر، إلا إذا استثنىٰ شيء بعينه وأخبر به، لأن أي عقد لا يكون بهذا الوضوح، واكتنفه جهالة أو غموض، فهو باطل شرعًا وقانونًا. والعقود الباطلة بسبب الجهالة محرمة في الشريعة لنهي النبي ﷺ عن عقود الغرر[1].

هذا قليل من كثير مما يجري في المستشفيات والمصحات الخاصة، لو جمع لخرجت منه كراريس، يمر علينا مر الكرام علىٰ مرأىٰ ومسمع ولا يلقىٰ له بال.

ولا نعمم الحكم علىٰ الجميع، فما قلناه هو الشائع والكثير والغالب، ولكن من الأطباء والعاملين من له من دينه وكريم خلقه ما يحرص معه علىٰ مصلحة المريض العلاجية والمالية حرصه علىٰ أمر نفسه، ويجنبه من النفقات والمصاريف غير اللازمة ما وجد إلىٰ ذلك سبيلًا ولا يألوا. وقد رأيت نماذج من ذلك أجلهم وأحترمهم وأكبر فيهم هذا الخلق، ولهم في نفسي منزلة لما يقدمونه من خدمات في المستشفيات المجانية علىٰ مستوىٰ من الكفاية العالية للعامة من عباد الله دون تمييز، فأجر هؤلاء عند الله عظيم وثوابهم جزيل، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

معالج المريض -طبيب، أو مساعد في علاج، أو مالك مصحة- لو أخلص لله عمله، وأتقنه بالرحمة المطلوبة والشفقة المعهودة، لكان في رحمة الله -تعالىٰ- ورضوانه، ولفرج الله عنه كرب القيامة، التي لا يقدر علىٰ دفعها أحد غير الله ﷻ، فإن من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة كما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ، فكيف بمن عمله كله تفريج كرب عن مرضىٰ المسلمين؟ لكن إن فرط وأهمل، أو استغل المضطرين من المرضىٰ والمحتاجين، علىٰ نحو غير مشروع، فما أكثر خصومه بين يدي الله -تعالىٰ-.

---

(١) مسلم حديث رقم ١٥١٣.

الجامعات والمعاهد:

الجامعات والمعاهد والمدارس، خلت من التذكير بالله -تعالىٰ-، وتعليم ما يجب من أحكام الدين، الطلبة والأساتذة والإدارة، يفكرون في القبول والرسوم، وساعات العمل والعلاوات والتسجيل والنجاح والامتحان، لكن لا يفكرون في التحصيل العلمي المتدني، ولا في الفضيلة المتردية، ولا فيما يرونه من التهاون في فرائض الله -تعالىٰ- والتفريط في إقامة شعائره، ثم لا يحركون ساكنًا للإصلاح، ولا لانتهاك حدود الله -تعالىٰ- وحرماته.

فلو دخلت ساحة من ساحات الجامعات، لأنكرت نفسك، هل أنت في معهد علمي، أم ملهىٰ ليلي؟ لما تسمع من الأنغام الراقصة والصخب والضجيج، والكلام البذيء أثناء المحاضرات، ولما ترىٰ من أشكال وجوه السوء، لا تقيم وزنًا لأستاذ ولا حرمة لعفيفة تحتشم وتراعي الآداب، ليسوا من الجامعة ولا من طلابها، جاءوا خصيصًا للمتعة وقضاء الأوقات، واستدراج من كن علىٰ نمطهم في الهيئة واللباس، والتهور وعدم المبالاة.

لا تسمع في الجامعة آذانًا ولا ترىٰ صلاة جماعة، بل الأستاذ لا يأذن للطالب بالصلاة حتىٰ لو كان وقت المحاضرة يستغرق وقت الصلاة كلها، فالمحاضرة في نظره أفيد من الصلاة!!

معظم الأساتذة والطلبة علىٰ جهل كامل بكثير من الأساسيات في الدين، وفروض الأعيان، ويزيد الأمر سواء، جهلهم بأنهم يجهلون. فلو سألت أحدهم عن وقت من أوقات الصلاة متىٰ يبدأ ومتىٰ ينتهي؟ وما الوقت الذي يجوز تأخير الصلاة إليه من غير عذر؟ ومتىٰ يحرم التأخير؟ لما وجدت عند أكثرهم جوابًا، ولا يرون في جهلهم بهذه الفروض تقصيرًا، ولا نقصانًا، فسواء عليهم علموها أو جهلوها، فهي في نظرهم لا تقدم ولا تؤخر؛ لأنها ليست شهادة علمية يترقون بها، أو يتوظفون، وليست علمًا من علوم الدنيا تبني المناصب الرفيعة والأماكن المرموقة، ولو اقترحت تدريس هذه الأساسيات في مقررات الجامعة، ليكون شأنها شأن أي علم من العلوم الأخرىٰ التي يحتاج إليها الطالب، لوجدت منهم معارضة شديدة، لأنها ليست من علوم العصر، التي يحتاجون إليها في نظرهم.

تعقد دورات التقوية للإداريين والمدرسين والطلبة، في مجالات مختلفة من المعرفة، في التربية، في المحاسبة، في الإدارة، في اللغة العربية، لكن ما سمعنا بعد بدورة تقوية في هذا المجال، لم لا تعقد حلقات لأساتذة الجامعة في تعليم ما فاتهم من أساسيات الدين؟!

الجامعات الخاصة:

وزادت حالة التعليم سوءًا بالتسابق علىٰ فتح الجامعات والمعاهد العليا الخاصة، في كل قرية وكل واد، دون إعداد ولا دراسة، ولا (كوادر) علمية مؤهلة، فمن أراد أن ينشئ جامعة أو معهدًا أنشأ، فاستوىٰ فتح الجامعة مع فتح الدكان، والورشة، ومحل تأجير الكراسي في المؤهلات والمتطلبات والشروط. جامعات لا تدعو إليها حاجة من الناحية التعليمية، بل قد تفسد أكثر مما تصلح، فالذين يلتحقون بهذه الجامعات التجارية هم ضعاف الطلبة، وغير المؤهلين لدخول الجامعات، ليؤمنوا نجاحهم الذي يتعذر عليهم في غيرها، ذلك أن المؤسسة التجارية مدرسة أو معهدًا أو جامعة هي من خلال التجربة ملزمة بتنجيح طلابها، وإلا قل الإقبال عليها، وعُدَّ المشروع فاشلًا!!

الموظفون والإداريون:

إننا نعاني بصفة عامة من أزمة في الإدارة، علىٰ مستوىٰ العالم الثالث الذي منه معظم بلاد المسلمين إن لم تكن كلها، في الدوائر والمصانع والمرافق المختلفة، تسيب وإهمال، وتضييع للأوقات، وخيانة للأمانة، ورشوة، وفساد للذمم وعدم انضباط، سببها خروج السلوك من دائرة الإيمان، مع غياب القانون الرادع.

غربة الدين بين الموظفين والإداريين ما أشدها، الوظيفة في بلاد الروتين، التي منها بلاد المسلمين ـ في الغالب ـ واحد من اثنين: إما وسيلة من وسائل التسلية، أو وسيلة للاحتيال والسحت والرشوة، والاستيلاء علىٰ المال العام، فإن كان العامل من أصحاب المناصب الذين اؤتمنوا علىٰ المال العام، فأول ما يفكر فيه أن يكون أكثر المال له، والقليل منه لغيره، ويعتبر المؤسسة التي يرأسها من ملكه الخاص، ينميها لنفسه ما دام فيها، حتىٰ إذا ما أحس بإخراجه منها أفرغ خزينتها، وأعلن إفلاسها، وذهب إلىٰ حاله.

إن كان مكلفًا بإدارة عطاءات أو مقاولات أصبحت الـ ٢٠٪ الخاصة به إن كان متواضعًا لا تقبل النقاش. وإن كان في مرفق يحتاج الناس إليه في استخراج شهادات أو توقيعات غالية الثمن، أو دفع مستخلصات مالية، يماطل ويسوف، ويؤجل ويتهرب، إلىٰ أن يضطر صاحب الحق إلىٰ واحد من اثنين: إما أن يترك حقه، فيكون الموظف المتسبب له في تركه كالغاصب الذي لم ينتفع بغصبه، لا هو حصل منه علىٰ شيء، ولا سلم من وزره، وإما أن يضطره إلىٰ دفع الرشوة، التي لعن رسول الله ﷺ آخذها ومعطيها، والواسطة فيها، وهي السحت الذي يسميه الناس عمولة.

والرشوة أنواعها وطرقها تعددت هذه الأيام، فقد تدفع بواسطة العملاء، وقد تدفع مباشرة، وقد تدفع عرضًا من المتجردين والمتجردات من الدين والخلق، فتُقضىٰ الحاجات ولو كانت محظورة بقضاء الشهوات. وقد تدفع مقايضة بالمصالح والخدمات، فقد صار الناس في المقايضة بالخدمات لا يتسترون ولا يتحرجون، وأول شيء ينوه به عند التعارف، موقع العمل، والخدمات التي يمكن أن يقدمها من يعرّف بنفسه، فإن كان في موقع له أهمية في الخدمات الحياتية، وجد لقوله استحسانًا عند سامعه، وحفظ السامع اسمه وعنوانه وهاتفه، وإن كان غير ذلك، كأن يكون طالبًا أو مدرسًا، صرف عنه النظر وترك لشأنه. وصار الناس بسبب ذلك ينصرفون عن الالتحاق بالأعمال النافعة، التي لا ترجىٰ منها مقايضة عاجلة، ويتقاتلون علىٰ الوظائف الأخرىٰ التي تصلح للمقايضة، ليصل إليها من يصلح لها ومن لا يصلح، وبذلك أقفرت معاهد التعليم ومدارسه من المعلمين النابهين.

والمقايضة بالخدمات تجرؤ علىٰ طلب ما لا تحله لوائح ولا قوانين لأغرائها، فهي سلف بمنفعة، وكل سلف مردود! وتكون النتيجة ضياع الضمير، وخيانة المسئولية، بمنع المغلوبين علىٰ أمرهم حقوقهم، والتجاوز بإعطاء من تُرجىٰ المقايضة معه ما يمنعه القانون.

أما الموظف الذي لا يملك توقيعًا غالي الثمن، فالوظيفة له تسلية، يحضر متىٰ شاء، ويغيب متىٰ شاء، ويوكل من يوقع عنه دفاتر الحضور والانصراف، مُثبتة بالساعة والدقيقة زورًا، ثم يبحث عن فتوىٰ لتحليل المرتب إن كان من أنصاف المتدينين، وإلا فهو في غنىٰ عن الحلال، لأنه لم يعد يفكر فيه. وإذا حضر بعد الغياب والتأخر

الطويل تجمع مع زملائه، أو زميلاته في غرفة، وقضىٰ الساعات الممتعة في التسلية، والمؤانسة والحكايات، اختلاط مشبوه، وخلوة محرمة، وغزل مبطن، ومكالمات في الهاتف في المكاتب مع البنات والنساء لمواعيد اللقاء، من الكبار والشباب علىٰ السواء، بحضور الناس دون استحياء. ولشيوع هذا الخلق الذميم، وشيوع المعاصي صار العرف لا يستنكر ذلك، ويقف صاحب الحاجة -وربما كان الوقوف يؤلمه لسنه أو مرضه- علىٰ الموظف الزمن الطويل، وهو في مكالمة من هذه المكالمات، لا يلتفت إليه، ولا يرفع إليه رأسًا، بل يعد حضوره في ذلك الوقت مصيبة نزلت به!!

فقد الإحساس بالمسئولية، وفساد الضمير والتسيب، وتعطيل مصالح الناس، وعدم إتقان العمل، وتراكمه، وإهماله حتىٰ تضيع الأوراق والمستندات، ويضيع معها الحق. صار مظهرًا من مظاهر الوظيفة بين المسلمين. يأتي صاحب الحاجة الذي لا حول له ولا طول من مكان قريب أو بعيد، ليراجع الموظف الذي وضعت له (لافتة) عند رأسه تُذكره بحديث النبي ﷺ: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه** . . .»[١]، فيجد المراجع اللافتة، ولا يجد الموظف، وإذا وجده يجده جسدًا بلا روح، عابسًا قانطًا، لم يسمع بعد بأن الكلمة الطيبة صدقة[٢]، مع أنها في حقه واجبة وليست صدقة، فهي جزء من عمله الواجب عليه، ولم يعرف أن «تبسمك في وجه أخيك، لك صدقة»[٣]، ولا أن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه[٤]، أين الأوراق؟ اختفت الأوراق، أين الملف؟ ضاع الملف، وإذا احتج صاحب الشأن أو أظهر عدم رضاه، وعرف من حاله أنه ممن لا نفع يرتجىٰ منه في مكان آخر، سمع ما يسوءه، وصك أذنه ما يثير ويغيظ، ولو اشتكىٰ الموظف الذي عطل له عمله بعد المراجعات المتكررة إلىٰ رئيسه لينصفه منه، ازداد المكر به، وكان كالمستجير من الرمضاء بالنار، وعليه أن ييأس من الوصول إلىٰ حاجته بعد الشكوىٰ حتىٰ لو أظهر له المدير التعاطف في ظاهر الحال؛ لأن رئيس الإدارة في بلاد الروتين يعد الشكوىٰ في

---

(١) رواه أبو يعلي وفيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، مجمع الزوائد ٤/ ٩٨.

(٢) حديث خرجه البخاري، انظر البخاري مع فتح الباري ١٣/ ٥٦.

(٣) الترمذي حديث رقم ١٩٥٦، وقال: حسن غريب.

(٤) مسلم حديث رقم ٢٦٩٩.

أحد موظفيه طعنًا فيه شخصيًا! ودليلًا علىٰ عدم كفايته، وضعف قدراته علىٰ تسيير العمل ونجاحه، فالمسألة مسألة اعتبار!

عمر ﷺ وهو خليفة المسلمين يقف له بلال أو سلمان فيقول له: «**لَوْ رَأَيْنَا فِيكَ اعْوِجَاجًا لَقَوَّمْنَاهُ بِسُيُوفِنَا**، **فيقول: الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من إذا رأى فيّ اعوجاجًا قومني بسيفه**»[1]. وكان من خطبة أبي بكر ﷺ عندما تولىٰ أمر المسلمين: «... إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني». والمدير في أيامنا لا يسمح أن يتهم مرءوسه بتقصير، ناهيك أن يتهم هو ذاته!! والسبب أن الموظف لم يؤمن بعد أن الوظيفة تكليف ومسئولية، كما فهمها أبو بكر ﷺ والمؤمنون، يوم كان الإيمان جزءًا من سلوكهم، وليست مزايا ومنافع ذاتية، ولم يؤمن بعد بأن وقته خلال ساعات عمله ملك وظيفته، وليس له منه شيء لنفسه، وأن أجره ومرتبه لا يحل له منه إلا بقدر ما أعطىٰ من عمل حقيقي لوظيفته، وأنه يحرم عليه منه إلا بقدر ما أعطي من عمل حقيقي لوظيفته، وأنه يحرم عليه منه بقدر تفريطه وتقصيره، فهو علىٰ ذلك تعاقد وأجر نفسه، والوفاء بالعقود واجب، قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

لابد للوصول إلىٰ الخدمات اليومية المعتادة في الإدارات من شفاعات ووجاهات ووسائط ومعارف، ومن لا يقدم بين يدي طلبه شيئًا من ذلك لا يلتفت إليه، ولا يؤبه به، وهكذا يفعل التخلف، وضعف الإيمان، وعزله عن السلوك، وغياب القانون الرادع، والشعور بالنقص -فعله في إفساد أخلاق الناس ومصالحهم، ونظام حياتهم، والزج بهم في معاناة يومية، تأكل طاقاتهم وأموالهم وأوقاتهم وحسناتهم، وتشدّهم إلىٰ تخلف بغيض، في الوقت الذي اختفت فيه هذه المفردات: الوساطة! والتشفيع! والمحسوبية! من قواميس الإدارة في البلاد المتحضرة، ليس اختفاؤها ديانة، ولكن لاحترام القانون، فضمن الجميع الوصول إلىٰ الخدمات والحقوق دون عناء، ومن أقصر طريق، ووجهوا طاقاتهم وأوقاتهم وجهودهم الضائعة عند غيرهم إلىٰ عمل ما ينفعهم وينفع الناس، فمتىٰ يفيق المسلمون، ويدركون أن في إيمانهم حلقة مفقودة هي السلوك؟!!.

---

(١) حاشية العدوي ١/ ١٢٢.

فتن كقطع الليل:

جاء في الصحيح عن النبي ﷺ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»[1]، وقال ﷺ: «**يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أثر الْوَكْتِ ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَىٰ رِجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ فَلا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ فَيُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ وماأظرفه وماأجلده وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**»[2].

الفتن جمع فتنة، وهي ما يبتلىٰ به الإنسان ويختبر به في دينه، وقد شبهها النبي ﷺ لكثرتها وتداخلها وتعاقبها بقطع الليل المظلم، وبأنها تموج كموج البحر، وأنها تُعرض علىٰ القلوب كالحصير عودًا عودًا، فهي ملحة متكررة متعاقبة، تسد الأفق كالظلام الدامس وتغمر الناس كما يغمرهم البحر لا ينجو قلب من العرض عليها، والناجي من طوارقها قليل، من الناس من تأخذه أخذة واحدة، ومنهم من تنكت في قلبه نكتة صغيرة، ثم لا تزال تكبر وتفسد، وتعفن حتىٰ يصير القلب أسود مربدًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، ومن عصمه الله -تعالىٰ- منها أنكرها، فخرج علىٰ قلب أبيض مثل الصفا، كما أخبر النبي ﷺ. وفيما يلي نماذج من هذه الفتن الملحة المتكررة في أيامنا التي لا يُتغلب عليها إلا بسلاح الإيمان.

فتنة الاعتقاد:

فتنة العقيدة هي أشد الفتن، وإن كان في غيرها ما يؤدي إليها، وهي أنواع، وغالبًا ما تكون باتباع فرق وطوائف وأحزاب تنكبت سواء السبيل، وهي كثيرة تزايد أمهاتها علىٰ السبعين، كما أخبر النبي ﷺ، الناجي منها واحدة، وهم من كان علىٰ مثل ما عليه النبي ﷺ وأصحابه، وسلف الأمة، إذ لا يشك أحد في أنهم من الطائفة الناجية، المرحومة، المرضي عنها من ربها، ومن كان علىٰ طريقهم كان ناجيًا مثلهم. وما عدا سبيلهم من السبل، مما تسمىٰ باسم آخر اقترب منهم أو تباعد، فاتباعه هو من الفتنة

---

(١) مسلم حديث رقم ١١٨.

(٢) البخاري حديث رقم ٦٤٩٧.

في العقيدة، وقربه من رحمة ربه يكون بقدر قربه مما كان عليه سلف الأمة، وبعده عنها بقدر بعده عنهم، فمن شاء أن يسدد ويقارب فليسدد، ومن شاء أن يباعد فليبعد، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. والناس عن عقائدهم لا يتزحزحون، وهم بها فرحون، مهما كانت باطلة أو ناقصة، كما أخبر القرآن: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢].

منهم العلماني الذي يأخذ من الدين ويترك، ويرىٰ في تحكيم شرع الله وحكمه تخلفًا ورجوعًا إلىٰ الورىٰ، ومنهم المفرط المحرف للكلم عن مواضعه، المؤول لواضح دلالات القرآن، المنكر لبيان السنة وتشريعها للأحكام، ومنهم المتشدد المكفر لعامة المسلمين، أو المفسق لهم والمبدع، كما كان حال الخوارج، ومن نهج نهجهم، وقاربهم، ومنهم المتشيع المبغض للصحابة، الذين زكاهم القرآن، المدعي حب آل البيت، أو المتعلق بالتفسيرات الباطنة للشريعة، المعرض عن ظواهرها التي بينها النبي ﷺ بأفعاله وأقواله وتقريراته، ومنهم من يجعل للدين باطنًا وظاهرًا ويجعل لنفسه الحق في تقسيم أمر الدين إلىٰ حقيقة وشريعة.

وبالجملة فكل الفرق والاتجاهات الفكرية والعقائدية في العصر الحاضر هي فروع ضربت بصلة ممتدة ونمت من أصول أسلافها القديمة؛ (سبأية، أو خارجية، أو معتزلة، أو جهمية، أو شيعة رافضة، أو باطنية، أو إباضية إلىٰ غير ذلك، وإن لم تتسم بتلك الأسماء). وسبيل الله -تعالىٰ- واحدة، وما عداها فهو من السبل التي أخبر القرآن أنها تفرق عن سبيل الله، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «**قَالَ: خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: » هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا ، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ السُّبُلُ، وَلَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»**، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الافتتان بالأضرحة:

ومن فتنة العقيدة المنتشرة في بلاد المسلمين شرقها وغربها، الفتنة بالأضرحة وكراماتها، والأكل باسمها والتعيش عليها، وجعل أعياد سنوية لها تشد إليها الرحال، وتذبح عندها القرابين، وتلتمس عندها الحوائج، مع الزعم أن من حضرها غفرت ذنوبه، وأعطي سؤله، وقضيت حاجته، وشفي مريضه، وفُرجت كربته، وحُلت

ضائقته، إلىٰ آخر مما لا يقدر عليه إلا الرب -تبارك وتعالىٰ-، ولم يعط قط لمخلوق، بل زادوا علىٰ ذلك عجبًا، فجعلوا لها تخصصات كتخصص العيادات الطبية، القبر الفلاني لمرض الرأس والصداع، و(الشقيقة)، وآخر لمرض العين، وآخر (للريشة) وآخر تذهب إليه إن كنت تريد العمرة أو الحج، إلىٰ غير ذلك من الخرافات والكذب الذي لا يصدقه شرع ولا عقل. قال -تعالىٰ- في حق رسوله ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وما لا يملكه الرسول ﷺ لنفسه لا يملكه لغيره، فقد قال ﷺ لأهل بيته: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمْدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُم**»[1]، وإذا كان هذا في حق رسول الله ﷺ في حياته فكيف بمن دونه من الأموات؟! هذا من جهة الشرع، أما من جهة العقل، فإنه إذا كان هذا أو ذاك من الأموات قادرًا علىٰ شفاء مريض، فلم لم يشف نفسه من المرض، وهو حي، فدفع عن نفسه الموت؟!.

فتنة اللسان:

من فتنة القول أن الناس لا يؤاخذون أنفسهم بما تنطق ألسنتهم ولا يحاسبونها، وقد تكون الكلمة كبيرة من موبقات الذنوب، أو تستلزم الشرك، يكررها الناس ويألفونها في حياتهم، وتعيش معهم، «**فَيُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»[2]، كما أخبر النبي ﷺ، وفي قوله: يبيع دينه بعرض من الدنيا إشارة إلىٰ أن من هذه الفتن ما يؤدي إليه الطمع والتملق لمن عنده الدنيا، فيرضيه بكلمة تأخذ منه دينه، مقابل عرض من الدنيا.

يجلس الرجل عند من له إليه حاجة، فيجده يتكلم بما لا يجوز؛ يبيح الحرام، ويمدح الباطل، أو يخوض في آيات الله بغير حق، أو يطعن في الشرع باختراعات من عنده، فيجامله عليها لأجل حاجته عنده، فيبيع عرضًا من الدنيا بدينه، قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٦٨]، ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ

(١) مسلم حديث رقم ٢٠٥.

(٢) مسلم حديث رقم ١١٨.

بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، وقال ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَنْزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**»[1]، قال -تعالىٰ-: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، «**وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِيْ النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»[2]، فهذا بعض من فتنة القول.

فتنة الانقياد للشهوات:

أما فتنة الانقياد إلىٰ الشهوات ومد العينين إلىٰ زهرة الحياة، فكلما فتح علىٰ الناس من الدنيا وزخرفها، فتح عليهم منها باب جديد، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، فتنة جمع المال، وكسبه وتصريفه، فتنة النساء وما أكثرها، إغراء بتقليد ما ينفع وما يضر، إغراء في اللباس والزينة، والتبرج، والاختلاط، والخروج لحاجة ولغير حاجة، والمرأة زوجة، وأخت وأم، فما يقع للأباعد منهن يقع للجيران، وما يقع للجيران يقع للأخت وللزوجة، فإما أن يطيع الرجل زوجه وأهله في رغباتهم، وهي لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، وإما أن يكون غريبًا منبوذًا شاذًّا معزولًا، وما عساه أن يقاوم التيار، وهذا من الفتنة في الأهل ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

البيوت ألفت سماع الغناء، وتضييع الساعات الطويلة أمام الشاشات الصغيرة، والمسلسلات التي لا يرىٰ فيها مهما اختلفت أسماؤها إلا مضمون واحد، تشترك فيه علىٰ تباين أهدافها وتخصصاتها ـ هو استهلاك الوقت والافتتان بالدنيا، وماديات الحياة وشهواتها، وإشرابها في القلب، حتىٰ تملك علىٰ المرء نفسه، فيصبح وينام عليها، ولا يفكر في غيرها، ولا في الحصول إلا عليها، ليبذل بعد ذلك الغالي والنفيس في اقتناء تلك الماديات، والحصول علىٰ تلك الشهوات، والتخلق بأخلاق أهلها، والتشبه بهم في لباسهم، وفي كلامهم، وفي سلوكهم، وفي اهتماماتهم السيئة، فيبذل أثمن ما عنده للحصول علىٰ أحط ما عندهم.

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٩٨٨.

(٢) سنن الترمذي حديث رقم ٢٦١٦.

يبذل العرض والشرف، ويبذل الدين والمروءة، كل ذلك للوصول إلىٰ بعض ما أشربته نفسه من الفتن، التي يمسي ويصبح عليها، والحصيلة كلها آثار سيئة، أهونها ما تورثه من قسوة القلب وبلادة الحس عند المسلم، والتعلق بسلبيات الحضارة الغربية، بتقليد أهلها في كل ما يفسد الأخلاق ويعلم الجريمة ويرفع الحياء. الأم والبنات يلبسن القصير والعاري، الذي يكشف الصدور والأكتاف، والأبناء داخل البيت مع الأخوات عُري الأفخاذ، في لباس قصير محدد، تبرز منه العورة المغلظة، بل يخرجون بذلك اللباس إلىٰ الطرقات مع القبعة علىٰ الرأس، تطبيقًا لما ألفوا رؤياه من خلال الشاشات علىٰ واقع حياتهن، ومن لم يصل إلىٰ هذا المستوىٰ في اللباس العاري، فهو لا يزال متخلفًا!!

الكيِّس لا يعطي الفرصة لهذه الشاشات الصغيرة في البيوت لتسرق وقته ووقت أسرته وأطفاله، وتفسد أخلاقهم وسلوكهم، بل يراقبها بحذر، فلا يأخذ منها إلا ما كان محقق النفع، وهو قليلٌ قليل.

لون آخر من الفتن، حفلات النساء في الأفراح وأسبوع المواليد في الصالات، وفي الفنادق بالفرق الغنائية بآلاف الجنيهات. يحضرها النساء كاسيات عاريات، يخدمهن ولدان وشباب من مختلف الجنسيات، والمتدينات يشترطن عند إقامة هذه الحفلات أن يقوم بالخدمة فتيات، وينسين الإسراف والتباهي والتجسس والتلصص (بالكمرات) الخفية السرية، والظاهرة العلنية، الذي لا تأمنه المرأة في مثل هذه الأماكن!!

رب البيت الذي جعله الله -تعالىٰ- راعيًا في أهل بيته ومسئولًا عن رعيته، إن سلس له قيادهم، واتقوا الله -تعالىٰ- وأطاعوه، وميزوا بين ما ينفعهم وما يضرهم، فليحمد الله، وهذا هو النادر المستثنىٰ من القاعدة. ومن كان علىٰ القاعدة والأصل الذي عليه عامة الناس، فإنه إن أراد السلامة ونصح لأهل بيته كما أمره ربه، ففرض عليهم آداب الإسلام وشرائعه، ومنع عنهم غوائل الشيطان ومضلاته، في مأكلهم وملبسهم، ومدخلهم ومخرجهم، وتعليمهم، وحلهم وترحالهم، وترويحهم علىٰ أنفسهم وقضاء أوقاتهم. عاش غربة بينهم، واحتاج في مجاهدتهم علىٰ الحق إلىٰ مجاهدة العدو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ

﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وإن تركهم علىٰ ما يهوون هلك وهلكوا، فإن الله -تعالىٰ- سائله عن رعيته.

ومعنىٰ كونه مسئولًا: أن الله سيوقفه للحساب ويسأله عن أهل بيته، هل بذل لهم من الرعاية والوقت والنصح والتربية منذ أن ولاه الله -تعالىٰ- عليهم ما يعلمهم الفضائل، وشرائع الدين وسنن المسلمين، أم تهاون وفرط، وترك الحبل علىٰ الغارب، وقضىٰ معظم وقته خارج البيت، في الزيارات والحكايات، ومؤانسة الأصحاب، واللهو واللعب، حتىٰ استفحل الداء، وكبر الأبناء علىٰ سرقة الجيران، وتعاطي المخدرات، وترك الدراسة، ومصاحبة أهل السوء، واتسع الخرق علىٰ الراقع، ووجد نفسه عاجزًا أمام طوفان جارف، وانحراف واضح، وفتن متلاحقة أضلته كما أضلت غيره.

تربية أهل البيت ورعايتهم، وتفقدهم المتواصل الدائم عبادة، يؤجر عليها ولي أمرهم، وأي عبادة! يطاع الله -تعالىٰ- بها، وتكون سببًا في دخول الجنة، وتنال بها أعلىٰ الدرجات، لأنها من العمل الصالح الذي لا ينقطع إن أحسنها وأعطاها حقها، وهي مقدمة علىٰ السنن والفضائل، ولو كانت عبادات محضة، كالأذكار والمناسك المندوبة؛ لأنها حق واجب عليه، ولا يفرط في الواجب، ليأتي بالسنن والمندوبات إلا الباطل العاطل، ومن بعد عن الفلاح. جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاثُ بَنَاتٍ، فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ، وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[1]، وقال ﷺ: **«.. فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا»**[2]، وفي حديث سلمان: **«... إِنَّ لرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَ لنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ولأهلِك عَلَيْكَ حَقًّا فأعط لكل ذي حق حقه»**[3].

غربة الحق:

معنىٰ ما جاء عن النبي ﷺ في الفتن: أن الساعة لا تقوم حتىٰ يأتي علىٰ الناس

(١) سنن ابن ماجه حديث رقم ٣٦٦٩.

(٢) البخاري حديث رقم ١٩٧٥.

(٣) البخاري حديث رقم ١٩٦٨.

زمان لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا[1]، وأنه ترجع للدين غربته كما بدأ، ويصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر. يستهجن الناس عمله، وينكر تمسكه كل من حوله، حتى أهله وجيرانه وذويه، فإن صعوبة أن يحمل الإنسان على الحق أهل بيته وجيرانه وذويه، أتت من جهة أنهم لا ينكرون ما أنكره، ولا يستحسنون ما استحسنه . . . انقلبت الموازين واختلت المعايير، صار المنكر معروفًا، والغريب مألوفًا، والحياء والفضيلة عجزًا وجمودًا، والانحلال تحررًا ورقيًا، والصدق والأمانة غفلة وبلاهة، والكذب والخلف ذكاء وفطنة. يقولون عن أنفسهم: أليسوا هم مثل الناس؟! فلم التقيد والانضباط، والتحفظ والحزم وحياة الجد؟ على حين أن حياة الجيران، والأقارب والأصحاب لهو ولعب، وانحلال وانطلاق بلا قيود، ما قدروا عليه بإمكاناتهم قدروا، وما لم يقدروا عليه وصلوا إليه بإمكاناتهم الآنفة الذكر، بثلم الدين، وبذل العرض، واستعمال مهارات العصر، فما المانع أن نكون مثلهم؟!.

التقليد الأعمى (زيّ الناس)!!:

كلمة شاعت على الأفواه، ليس مثلها في اقتحام الشر وتبريره لفظًا، سلاح فتاك يبرر به المخطئون أخطاءهم، فإذا قيل لأحدهم: كيف تفعل هذا؟ مما لا يشك هو نفسه في فساده وإفساده، قال: (زي) الناس! ليس أضل ممن عمى الله قلبه، وأضل سعيه، فأعرض عن قول ربه، وهدي نبيه ﷺ، واحتج على إعراضه عن ربه بعمل الناس الباطل، وضلالهم الفاسد، قال -تعالى-: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، وقال -تعالى-: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقال -سبحانه-: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال ﷺ: «**لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا**»[2].

---

(١) معنى حديث رواه أحمد في مسنده حديث رقم ٦٩٢٥.

(٢) سنن الترمذي حديث رقم ٢٠٠٧.

فرائض وسنن مضيّعة:

عامة الناس تعرف من الإيمان كلمة التوحيد، والقيام ببعض الفرائض كالصلاة والصيام والحج، ويجعلون ذلك هو الإيمان والدين الكامل! كم في الدين من فرائض غير هذه الأركان مضيّعة، يغفل عنها المسلمون! وكم فيه من سنن وآداب هي من العمل الصالح، يزهد فيها الزاهدون!.

لا يجوز الإقدام علىٰ عمل حتىٰ يعلم حكم الله فيه:

من الفرائض المضيعة، التي تبنىٰ عليها صحة كثير من الأعمال أو فسادها في حياة الناس، مع الغفلة عنها، أنه لا يجوز الإقدام علىٰ أمر حتىٰ يعلم حكم الله فيه. الشائع في الناس اليوم أنهم يقدمون علىٰ الأمر الذي لا يعرفون حكمه في الشرع، ما دام معلوم الكسب، رابح الصفقة، ما دامت ترتاح إليه النفس ويشتهيه الطبع، أو تحبه النساء، ويرغبه الأهل، ويوافق الأعراف والعادات، ولا يخطر العمل بهذه القاعدة علىٰ البال.

الإقدام علىٰ العمل قبل معرفة حكمه يترتب عليه مفاسد لا تحصىٰ، يترتب عليه أن الإنسان قد يمضي أعوامًا وأعوامًا من عمره يُحلُّ الحرام، أو يحرم الحلال، أو يبدع ما ليس بدعة، وينكر ما هو سنة، قد يعقد العقود الفاسدة، ويأكل أموال الناس بالإثم والباطل، أو ينكر ما لا يجوز إنكاره، أو ينفق ماله وجهده في معصية، يظنها قربة وجهادًا وطاعة، يعتقد أنه يحسن بذلك صنعًا، وهو من الأخسرين أعمالًا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وقد يعرض نفسه للمحنة فيما يحسبه سنة، علىٰ حين أن

المحنة أصابته من جهله بالسنة. تمضي السنون وهو علىٰ ذلك يضرب في عمايات وأخطاء، عقائد باطلة، أو معاملات فاسدة، أو عبادات مختلة، حتىٰ ألف ما هو عليه، فإذا حاولت منه تصحيحًا لبعض ما ألفه، ورافق سني عمره هذا الأمد الطويل، سمعت عجبًا، كأنك تأتيه بدين جديد: ولسان حاله يقول: ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، وهنا تكمن الخطورة، فالبدعة عنده أصبحت دينًا، وفطم الناس عما يألفونه دونه الصعاب والشدائد، ونحت الجبال بالأظافير أهون من تحويل صاحب بدعة عن معتقده كما يقولون.

النصح في الدين من الإيمان:

النصح في الدين من الأمور التي كان رسول الله ﷺ يأخذ عليها البيعة، كما يأخذها علىٰ عقد الإيمان، ففي الصحيح من حديث جرير بن عبد الله البجلي، قال: «بايعت رسول الله ﷺ علىٰ إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»(١)، والنصح ضد الغش، ومعناه: توخي ما ينفع الغير، وينصلح به أمره في دينه ودنياه، من قول أو عمل، في الأمور الباطنة، والظاهرة، فالباطنة كحب الخير والمودة للمؤمنين، ونفي الحسد والبغض والكراهية والتكبر عليهم، والظاهرة، بتحذيرهم مما يضرهم وإرشادهم إلىٰ ما ينفعهم، وكف الأذىٰ عنهم باليد واللسان.

هذا هو معنىٰ النصح لعباد الله الواجب علىٰ عامة الناس، الذي كان جزءًا من بيعة الإيمان، ولا إخالك واجدًا في قانون البشر قاعدة في التعامل أشمل للخير، ولا أسعد للغير، من هذا المعنىٰ الذي دلت عليه كلمة النصيحة؛ فهي تفي بما يجب للمسلم علىٰ المسلم من حقوق وما يرغب فيه من آداب وسلوك، وتعد كل تقصير في حق الغير، من قريب ذي رحم، أو جار أو أخ في الإسلام غشًا، ونقضًا لجزء من البيعة علىٰ الإيمان. والنصح المخاطب به كل مسلم هو النصح لله ولرسوله ولكتابه ولدينه ولعامة المسلمين.

النصح لله:

فالنصح لله، يكون بتوحيده، وتنزيهه، والاستسلام إليه، والانقياد له، والإيمان

---

(١) البخاري حديث رقم ٥٧.

والخضوع لأمره، والتحاكم إليه، وإخلاصه وحده بالعبادة دون سواه، وعبادته بما شرع من الدين، لا بما تحبه النفوس وتهواه، ومحبته وتقديمها علىٰ النفس والأهل والمال، وتطبيق ذلك كله قولًا وعملًا واعتقادًا، بحيث إذا حكم الله بحكم وقف المسلم عنده، وامتثله وطبقه علىٰ نفسه، وألزم به أهله وبيته، ولا يتعداه إلىٰ غيره، فالنصح لله ثمرته: الإيمان والعمل الصالح اللذان هما الطريق إلىٰ رضوان الله والسعادة في الأولىٰ والآخرة.

النصح لرسول الله ﷺ:

والنصح لرسوله ﷺ يكون بالإيمان بنبوته، وتصديقه في كل ما جاء به عن ربه، والشهادة له بالرسالة، وأنه أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، وأنه أكرم الخلق علىٰ الله، وسيد الأولين والآخرين من عباد الله، في الدنيا والآخرة، والتزام طاعته فيما أمر به ونهي عنه، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه، وتوقيره وتعزيزه ومحبته وتقديمها علىٰ النفس والمال والأهل، ومحبة آل بيته، وتعظيم سنته وإحيائها بعد موته بالتفقة فيها، والذب عنها، والعمل بها، ونشرها، والدعوة إليها، والتخلق بأخلاقه الكريمة، واعتقاد أن كل حسنة وخير وفلاح يفعله أحد من هذه الأمة، هو سببه ومصدره والداعي إليه، فله من الخير مثله من غير أن ينقص من أجور العاملين من أمته شيء.

والنصح لأئمة المسلمين بطاعتهم في الحق، ومعونتهم عليه، وتذكيرهم به.

النصح لكتاب الله:

والنصح لكتاب الله، يكون بالإيمان به، وتحسين تلاوته، وتدبر آياته، وتوقيره وتعظيمه، والتحاكم إليه عند التنازع، وحمل نصوصه علىٰ الدلالة الواضحة الصحيحة، التي تحمل عليها ألفاظ الشارع دون تمحل وتكلف، أو تأويل فاسد. وعند اختلاف الدلالة وقابلية الاجتهاد، يقدم الفهم الذي عليه خير القرون، الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالفضل والخير.

وأهل العلم في هذا أعظم شأنًا من غيرهم، فإنهم المعنيون بهذا الأمر، كما قال -تعالىٰ-: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وأشد من كتمان العلم، تحريف الوحي وتأويله علىٰ غير وجهه، فمن حرف كلمًا عن مواضعه، أو أوله علىٰ غير وجهه لدنيا، أو هوىٰ في نفسه، كان ممن لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلمهم

الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.

النصيحة الملقاة علىٰ كاهل العلماء:

من الإيمان أن ينصح أهل العلم لدين الله، وينزهوه عن الأقوال الباطلة المناقضة لما بعث الله به رسوله من البينات والهدىٰ، وأن يفتوا الناس بالصحيح من الأقوال، ويحملوهم علىٰ الحق، ولا يوافقوهم علىٰ جهالاتهم وأخطائهم وأهوائهم، فيكسبوهم بموافقتهم إياهم علىٰ باطلهم -بحضوره معهم، وإقرارهم عليه، أو الدعوة إليه- مشروعية في أعين الناس، يضلون بها كثيرا منهم، وبذلك يحملون أثقالهم وأثقالًا مع أثقالهم، قال تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة، وكل من هو منسوب إلىٰ أهل العلم ويقتدي به الناس معنٌّ أن يصون نفسه عن حضور الشبهات، بَلْهَ المخالفات والمحرمات، ولا يتأول له من المخارج ما يتأول لغيره من العامة؛ لأنه يمثل الشرع الشريف، وهو قدوة المسلمين، فإنه أحق من يتنزه وينأي بنفسه عن بذلها في كل موطن، لأن الله ﷻ اختاره واصطفاه لحمل شريعته، وتبليغ دينه، فليتحر الصواب والأحوط في أقواله وأفعاله، فإنها عند الناس القدوة والشرع.

لا ينبغي لمن علمهم الله علمًا أن يجاملوا العامة في أعمالهم الخاطئة، ومعتقداتهم الفاسدة فيقروهم عليها، ولا أن يبرروا للمجتمعات، متمدنة كانت أو متخلفة، خروجها عن أحكام الشريعة، تحت ضغط تغيرات العصر، ومتطلبات المدنية، أو دفعا لتهمة التخلف، التي لا ينفك أعداء الإسلام عن رمي المسلمين بها، ليستحثوهم علىٰ الاقتراب من مفاهيمهم المنحلة، وشعاراتهم غير الدينية، تحت مبدأ التيسير ورفع الحرج، أو التأويل للنصوص بما يلائم العصر، أو استنادًا إلىٰ آراء في الفقه متأخرة، خلطت العقائد والتعبدات بكثير من الخرافات، في كتب تحتاج هي ذاتها إلىٰ تمحيص وتحقيق، لغرابة ما جاء فيها، ومخالفته لما تضافرت عليه النصوص، وما فهمه منها الأولون، وما دونوه في الكتب المتقدمة، خصوصًا أن كثيرًا من هذه الآراء المتأخرة صدرت من أصحابها في عصور اتسمت بالركود العلمي، ونشطت فيها الخرافات في المعتقدات، وابتعد الناس فيها عن منابع التشريع، وما

كان عليه الأئمة المتقدمون الأعلام، فلا يجوز التعلق بما جاء فيها، والإعراض عما سواه من البينات الواضحة في هدي خير العباد، وهدي خلفائه وأصحابه، وأئمة الدين الذين بهم يقتدىٰ، والنقل عنهم صحيح بالسند المتصل فالأخذ بمثل هذه الآراء والأقوال الغريبة المتأخرة في مقابل ما ذكر من النصوص الواضحة المسندة -خصوصًا في مسائل العقائد- من أعظم الخطر في الدين.

فالعاقل من عامة الناس من التجار والعمال والصناع لا يفعل ذلك في مسألة من أمور الدنيا، والخطب فيها هيّن، إذ لو عرض له أمران أحدهما مأمون السلامة، والآخر يحتمل السلامة والخطر، فإنه لا يرضىٰ لنفسه إلا بصفقة مأمونة، فكيف بأهل العلم الذين بصرهم الله -تعالىٰ- بدينه، وأخذ عليهم الميثاق: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، كيف يتركون الواضح المنقول بالسند الصحيح عن المعصوم، وعن خير القرون، إلىٰ أقاويل متأخرة، مخالفة لهم؟ ليس فيها للمفتي بها رواية ولا إسناد[1]، ولا تدري ظروف أصحابها عند صدورها عنهم، ولا ما إذا كانوا قد تركوها أو أقاموا عليها، ثم هي بعد ذلك قول من لم تثبت له عصمة، يؤخذ من قوله ويترك.

فالواجب علىٰ من أعطاه الله -تعالىٰ- علمًا أن يبذل النصح للمسلمين، بالإنكار علىٰ ما علق بمعتقداتهم وعباداتهم من مخالفات، وتنبيههم إلىٰ ما لحق معاملاتهم وعقودهم من فساد، لا بإقرارهم عليها، والبحث لهم عن المبررات والمعاذير، فهو داعية إلىٰ الله ورسوله، وأولىٰ الناس بالنصح لعباد الله، ورسالته إحقاق الحق، ودعوة الناس إليه، وتصحيح عقائدهم وأعمالهم ابتغاء رضوان الله -تعالىٰ-، وليس مؤولًا يؤول النصوص، ويبرر الأخطاء، ويبارك ما تهواه النفوس من العوائد والتقاليد، فإن رضا الناس غاية لا تدرك كما يقول الشافعي رحمه الله: «فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه، ودع ما سواه ولا تعانه». ومن ابتُلي بفتوىٰ فأول ما يبدأ به نفسه فليحرزها، قال -تعالىٰ-: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٤]، كتبت عائشة إلىٰ معاوية رضي الله عنهما: «**سلامٌ عَلَيْك، أمّا بَعْدُ: فإني سَمِعْتُ**

---

(١) فإن قيل إن تدوين العلم وشهرة نسبة الكتب إلىٰ أصحابها أغنت عن الرواية والإسناد، يقال هذا صحيح، ولكن ذلك لا يتم إلا بعد التحقيق ومقابلة المطبوع منها علىٰ مخطوط معتمد.

رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَىٰ النَّاسِ»[1].

واجب أهل العلم أن يحملوا العامة علىٰ الحق، وينكروا عليهم جهالاتهم، ويبذلوا جهدهم في تعليمهم لتصحيح أعمالهم، لا أن يفرغوا وسعهم في الاعتذار لهم، والتمحّل لتصحيح أخطائهم. وعمل من يفعل ذلك عمل الغاش غير الناصح، المفرط فيما اؤتمن عليه، كالطبيب الذي يطمئن المريض ويوهمه أنه صحيح لا يحتاج إلىٰ دواء والداء في أحشائه يسري، حتىٰ يقضي عليه[2].

تحري الفتوىٰ بصحيح الأقوال:

من الأمانة للعلم ألا يأخذ العالم بالتسليم كل ما يجده في كتب المتأخرين، فإن فيه الحق والباطل، والغث والسمين، وليعرض ما وجده في هذه الكتب من كل ما هو من الدين، ويتقرب به إلىٰ رب العالمين، يعرضه علىٰ ما فهمه الأولون والأئمة الذين يقتدىٰ بهم من سنن الإسلام وهديه، فيأخذ به، ويترك ما تركوه، فإنهم كانوا أكثر الناس علمًا وأقلهم تكلفًا، وأبعدهم عن الخرافات والإحداث في الدين، وألزم بتقوىٰ الله -تعالىٰ-، وهدي رسوله ﷺ من غيرهم، فأصول العلوم الشرعية علىٰ عهدهم قد دونت وأسست، وما أتىٰ به من بعدهم فهو تبسيط وتوسيع لما قعدوه وبنيان علىٰ ما هم أسسوه، وبيان لما أجملوه، وما خالفهم أحد في شيء يعول علىٰ مخالفته.

وما جدّ من النوازل لا يمنع من النظر فيه، لكن ينظر فيه علىٰ طريقة المهتدين المهديين، طريقة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فيما جد عليهما، كان أبو بكر رضي الله عنه إذا جد عليه أمر نظر، فإن وجد فيه لرسول الله ﷺ حكمًا حكم به، فإن لم يجد جمع ما كان معه من الصحابة واستشارهم فاجتهدوا. وعمر كان يعرض النازلة علىٰ ما حكم به رسول الله ﷺ، فإن لم يجد له فيها حكمًا، نظر هل حكم فيها أبو بكر بشيء، فإن حكم بها فلا يتعدىٰ حكمه، فإن لم يجد جمع من معه من الصحابة واجتهدوا. هذه سيرة من أمرنا رسول الله ﷺ بالاقتداء بهم، فينبغي لمن تأخر عنهم أن يسلك

---

(١) الترمذي حديث رقم ٢٤١٤، وقد اختلف الترمذي في وقفه ورفعه، وصحح ابن حبان الحديث مرفوعًا، انظر تحفة الأحوذي شرح حديث رقم ٢٤١٤.

(٢) انظر الغلو في الدين للمؤلف ص ٥.

مسلكهم، فينظر فيما فهمه أهل القرون الأولىٰ في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مما له تعلق بالنازلة باستنباط أو تخريج عليه، فلا يتعداه، خصوصًا إذا اتفقوا، كما في مسائل الاعتقاد، فالنجاة لا تكون في اتباع غير سبيلهم، فإنهم الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالفضل، قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

النصيحة المطلوبة من عامة المسلمين:

والنصح لعامة المسلمين المطلوب من كل مسلم: أن لا يظلمهم ولا يسلمهم، ولا يبغضهم ولا يحسدهم، ولا يغشهم، ولا يخونهم، أو يتخونهم، ولا يغبنهم، ولا يغتابهم، ولا يشهد عليهم بزور أو كذب، ولا يدعي عليهم بباطل، ويوصل إليهم حقوقهم، ولا يجحدها، ويعين محتاجهم، ويرفق بضعيفهم، وينصر مظلومهم، ويعود مريضهم، ويعفو عن مسيئهم، ولا يقطع لهم رحمًا، ولا يؤذي جارًا، ويدعو لهم بظهر الغيب، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويبدأهم بالسلام، ويصل من قطعه، ويعطي من حرمه، ويعفو عمن ظلمه. هذا بعض النصح للمسلمين الذي يقاس به إيمان المؤمنين، وهو من خصال الإيمان وشعبه، انظر كم فيه من فرائض مضيعة، وسنن مهجورة! وكأن الكلام عليها صار ضربًا من الخيال، لبعده عن واقع الناس الذين جعلوا الفرائض لا تتعدىٰ أركان الإسلام الخمسة، إلا من رحم ربك.

الحب في الله والبغض في الله:

الحب في الله هو محبة أحد لصفة فيه تقرب إلىٰ الله -تعالىٰ-، كاتصافه بالإيمان والتقوىٰ، أو الصدق والعمل الصالح، أو لعلمه الذي يرجىٰ به هداية الناس ونفعهم في الآخرة. والحب علىٰ هذا الوجه من الإيمان، وهو راجع إلىٰ محبة الله -تعالىٰ- ورسوله، فمن أحب أحدًا لهذه الصفات، فإنما أحبه لأجل الله، وذلك من طاعة الله ﷻ.

وكل مسلم مأمور بمحبة الله ورسوله ﷺ، ومحبة المؤمنين ممن كان علىٰ صفة من صفات الإيمان والعمل الصالح، سواء كان حيًا أو ميتًا، فمحبة الأموات من الأنبياء والصحابة والتابعين والعلماء والعباد الصالحين، واجبة كمحبة الأحياء من أهل الإيمان والطاعة. ومن أحب المرء لا يحبه إلا لله وجد حلاوة الإيمان، وكان ممن

يظلهم الله -تعالىٰ- في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، ومن أحب مسلمًا لإيمانه وطاعته في الله لا لشيء آخر، قال له الملك: إني رسول الله إليك بأن الله أحبك كما أحببته فيه، كما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ[1].

وكما يجب الحب في الله يجب البغض في الله، والترك في الله، فمن أحببته لطاعته واستقامته ونفعه لعباد الله بما يعود عليهم في صلاح دينهم، عليك أن تبغض غيره في الله لمعصيته وظلمه وتفريطه. ويعطىٰ كل مسلم من المحبة والبغض بقدر ما فيه من خير أو شر، فالمسلم لو لم يكن فيه إلا الإيمان فإنه يُحب لإيمانه وينصر لإيمانه، ولا يجوز خذلانه وموالاة الكافر عليه، فمن فعل ذلك يوله الله -تعالىٰ- ما تولىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وهو وعيد شديد أكده الله -تعالىٰ- في آيات كثيرة من القرآن، نفىٰ فيها الإيمان عمن ناصر كافرًا علىٰ مسلم، أو أيده عليه وتوالاه والتأييد المعنوي أو المادي أو الانضمام إلىٰ حلفه وحزبه بما يقوي شوكته ويبسط نفوذه وشره قال -تعالىٰ-: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠]، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

ويبغض المسلم لعصيانه وظلمه بقدر ما فيه من ظلم وعصيان. والبغض يكون بالقلب، ويكون بالفعل والهجر. والأصل في الهجر والبغض للمعصية حديث الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فإن النبي ﷺ أمر بهجرهم وترك كلامهم ونبذهم حتىٰ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، قال -تعالىٰ-: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، ولكن الهجر مشروع بقدر ما يتوقع منه من تقليل المعصية أو زوالها، فإن كان يؤدي إلىٰ بقائها أو قوة التمسك بها، فلا يكون مشروعًا وتركه أولىٰ، فقد هجر النبي ﷺ أقوامًا وتألف آخرين. وكما تعظم محبة المسلم بعظم الطاعة، يعظم بغضه بعظم المعصية، فليس بغض كبغض.

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٢٥٦٧.

هجران أهل البدع:

من الدين والإيمان هجران المبتدع الداعي إلىٰ بدعته، وهجران الفاسق والعاصي المجاهر بفسقه، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، قال القرطبي: إنها دالة علىٰ هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم، فإن صحبتهم كفر أو معصية، إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة[١]. وقال -تعالىٰ- عن المنافقين: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، قال الضحاك: دخل في هذه الآية كل محدث في الدين مبتدع إلىٰ يوم القيامة، وقد أمرت الآية باجتنابهم والقعود معهم ومجالستهم؛ لأن من لم يجتنبهم يكون قد رضي فعلهم، والرضا بالضلال ضلال، فكل من جلس مجلسهم ولم ينكر عليهم يكون شريكًا لهم في الوزر[٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ٦٨]، قال ابن العربي: وهذا دليل علىٰ أن مجالسة أهل الكبائر لا تحل، وقال ابن خويز منداد: منع أصحابنا مجالسة الكفار وأهل البدع، وألا تعتقد مودتهم، ولا يسمع كلامهم، ولا مناظرتهم.

وقد قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي: اسمع مني كلمة واحدة، فأعرض عنه، وقال: ولا نصف كلمة. ومثله مروي عن أيوب السختياني، وقال الفضيل بن عياض: «من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه، ومن زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها»، أي لأن المبتدع يُطلب هجره[٣].

وكانوا يقولون: لا تجالسوهم وإن ذبوا عن السنة، لأنهم لا يفعلون ذلك إلا لترويج باطلهم، ولو اعتقدوا محبة السنة حقًا ما أقاموا علىٰ البدعة. قال مالك: ولا يُسلم عليهم، وهجرهم إنما هو لإلجائهم بالهجر إلىٰ اعتقاد الحق وليتأدب بذلك غيرهم، وقد ترك النبي ﷺ الصلاة علىٰ المدين والغالّ، وحالهما أحسن من حال المبتدع الداعية، ونهي الناس أن يكلموا الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد لمجرد أنه خاف عليهم النفاق.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩/٩٣.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ٦/٣٩٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧/١٦.

ولا غيبة في المبتدع الداعية، والمجاهر بالمعصية، بذكر حالهما بالفسق لمن يسأل عنهما، فإن كان المبتدع غير مجاهر ببدعته، فإنه ينصح ويكلم عسىٰ أن يتوب، ولا يجتنب ولا يشهر به، فإن الستر علىٰ المسلم مطلوب، وهو من الإيمان، ومن ستر عن مسلم ستره الله يوم القيامة كما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ.

فينبغي هجر المبتدع الداعي إلىٰ بدعته، وعلىٰ أهل الفضل أن يهجروه حيًا وميتًا، ولا يشيعوا جنازته زجرًا لأمثاله[1]. وكان السلف ينهون عن النظر في كتب أهل البدع والاستماع إلىٰ كلامهم والمقام معهم، لما يورثه من الظلمة وفساد القلب، قال ابن القاسم سمعت مالكًا يقول: لا يحل لأحد أن يقيم ببلد يسب فيها السلف[2].

ولهجر المبتدع شرطان:

١- أن تكون النية في هجره طاعة لله -تعالىٰ-، كراهية للبدعة ذاتها، لأنها معصية وظلم، لا لأمر آخر من أمور الدنيا.

٢- أن يكون في الهجر مصلحة، إما لأن هجرانه يزجره ويزجر أمثاله، أو يقوي به إيمان من هم علىٰ الحق إذا رأوا صاحب البدعة مهجورًا، فإن لم يكن في الهجر مصلحة يقوي بها الحق، بأن كان لا تأثير له أصلًا، أو كان الهجران يؤدي إلىٰ منكر أشد لم يكن مطلوبًا، فصاحب الحق مع صاحب البدعة كالطبيب مع المريض، يختار له أنسب الأدوية بالمقدار الذي ينفعه، حين يظن أنه ينفعه ويحقق مصلحة الدين، فإن كان الدواء يهيج علىٰ المريض أوجاعًا أخرىٰ كامنة في بدنه، ولا مصلحة معه، ففي إعطائه إياه هلاكه[3].

قال ابن عبد البر: «في حديث كعب -في قصة الثلاثة الذين خلفوا- دليل علىٰ أنه جائز أن يهجر المرء أخاه إذا بدت منه بدعة، أو فاحشة يرجو أن يكون هجرانه تأديبًا له وزجرًا عنه»[4]. وفي زاد المعاد[5]: «وفيه -أي حديث الثلاثة الذين تخلفوا عن

---

(١) انظر الآداب الشرعية ١/ ٢٢٩، وموسوعة الفقه الكويتية، مادة: (بدعة) فقرة ٣٧.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٤٨٤.

(٣) انظر مجموع الفتاوىٰ ٢٨/ ٢١٢.

(٤) التمهيد ٦/ ١١٨.

(٥) ٣/ ٢٤.

غزوة تبوك- دليل علىٰ هجران الإمام والعالم والمطاع لمن فعل ما يستوجب العتب، ويكون هجرانه دواء له، بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به، ولا يزيد في الكمية والكيفية عليه فيهلكه، إذ المراد تأديبه، لا إتلافه».

فالهجر لبعض الناس أنفع، والتأليف لبعضهم أنفع، وقد كان النبي ﷺ يتألف قومًا، ويهجر آخرين[1].

إماطة الأذىٰ عن الطريق:

قال ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنْ الطَّرِيقِ**»[2]. وفي الموطأ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَىٰ الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ**»[3]، وفي لفظ آخر: «**حوسب رجل فلم يوجد له من الخير إلا غصن شوك نحاه عن الطريق فغفر له**»[4]، وفي لفظ عند مسلم، فقال: «**وَاللَّهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنْ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ**»[5].

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا، تَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ**»[6]. وعن أبي برزة، قال: «**قُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَا أَدْرِي لَعَسَىٰ أَنْ تَمْضِيَ وَأَبْقَىٰ بَعْدَكَ، فَزَوِّدْنِي شَيْئًا يَنْفَعُنِي اللهُ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «افْعَلْ كَذَا، افْعَلْ كَذَا، أَبُو بَكْرٍ نَسِيَهُ، «وَأَمِرَّ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ**»[7]، وفي رواية قال قلت: «**يَا نَبِيَّ اللهِ عَلِمْنِي شَيْئًا أَنْتَفِعُ بِهِ قَالَ اعْزِلِ الْأَذَىٰ عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ**»[8].

وعلىٰ هذا فهم أصحاب رسول الله ﷺ الإيمان وخصاله، إماطة الأذىٰ عن الطريق

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ٢٨/٢٠٦.

(٢) مسلم حديث رقم ٣٥.

(٣) البخاري حديث رقم ٦٥٤.

(٤) التمهيد ٢٢/١٣.

(٥) مسلم حديث رقم ١٩١٤.

(٦) مسلم حديث رقم ١٩١٤.

(٧) مسلم حديث رقم ٢٦١٨.

(٨) مسلم حديث رقم ٢٦١٨.

عندهم من الإيمان؛ لأن دفع الضرر عن المسلمين وإرادة الخير لهم هو مقتضىٰ الدين والنصيحة والمحبة للمؤمنين، وهذه الخصلة من الإيمان التي شكر الله فاعلها ووعده الجنة هي علىٰ صغرها تشرح صدر المؤمنين، لأنها تدل علىٰ حضارة هذا الدين منذ أن أكمله الله ﷻ علىٰ لسان نبيه ﷺ، وما تحمله رسالته الخالدة للبشرية من نظم الحياة الراقية، بالمفهوم العصري للرقي، التي شملت فيما شملت المحافظة علىٰ نظافة الإنسان، ونظافة البيئة، وإزالة الأذىٰ عن الطريق، بتحسينها، وتمهيدها، وإصلاح الفاسد منها، وإقامة المعوج، وإضاءة المظلم، وتوسيع الضيق وإزالة كل عائق يفسد بهاءها وجمالها، وطيب هوائها ونقائها، فإن ذلك وغيره مما يوفر الأمن والراحة البدنية والنفسية للسالكين فجاجها، راكبين أو ماشيين، كله داخل في إماطة الأذىٰ عن الطريق، الذي هو من شعب الإيمان، يؤجر عليه العبد ويثاب وتغفر به ذنوبه، ويتقلب به في نعيم الجنة.

وكأن المسلم حين يحافظ علىٰ هذه الشعبة من الإيمان، بهذا المفهوم الشامل الكامل يسير في شوارع أرقىٰ مدن العالم حضارة ونظافة وجمالا، حيث يستحي المار أن يبصق تحت قدميه، لما يخشىٰ من تلويث الطريق، ولما يخشىٰ من الاشمئزاز من فعله والإنكار عليه.

أين هذا الإيمان الذي يؤكد عليه حديث إماطة الأذىٰ عن الطريق مما عليه تصرفات المسلمين في أكثر بلاد المسلمين؟ إنهم لا يحسون بمسئولية تقصير في هذا الجانب الإيماني في حياتهم اليومية، يخرج الجار كناسة بيته بما تضمه من عفونات وروائح كريهة فيلقيها وسط الطريق ولا يبالي، هذا إن كان مع جاره علىٰ مودة ووفاق، وإلا فلا يجاوز بها باب جاره علىٰ غفلة منه، فيدخل فيمن لا يأمن جارُه بوائقه، ويكون ممن حرم الله -تعالىٰ- عليه الجنة كما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ[1]، بدل أن تدخله إماطة الأذىٰ عن الطريق الجنة.

ونشأ عن هذا التهاون جبال من الأوساخ والمخلفات والعفونات في طرقات المسلمين، واضطروا لحرقها بالنار داخل المدن ووسط السكان، وبذلك تصل سمومها ودخانها وروائحها الكريهة كل بيت، فتلوَّثت البيئة، ودفع الجميع الثمن

(١) البخاري حديث رقم ٦٠١٦.

باهضا، بظهور أمراض بينهم استعصت علىٰ العلاج.

فليتنبه من به شيء من التهاون في هذه الشعبة من الإيمان إلىٰ أن الله ﷻ لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وكل شيء عنده في كتاب، يضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا، وأن من آذىٰ المسلمين في طرقاتهم، ونشأ عن أذاه ضرر مباشر أو بعيد، مما لا يخفىٰ عن علم الله - هو مسئول عما صنع، ومقتص منه لمن ظلمه، فانظر يا من تؤذي المسلمين في طرقاتهم كم من خصماء لك بين يدىٰ الله -تعالىٰ-!.

الإنفاق في السفه والبخل في الواجبات:

تنفق الأسرة أموالا كثيرة هي إلىٰ السفه أقرب منها إلىٰ الرشاد، ليست من ضروريات الحياة ولا من لوازمها، منها ما الإنفاق فيه من الكبائر وصريح الحرام كالخمر والمخدرات والزنىٰ والنساء والإنفاق علىٰ معاص أخرىٰ، كأشرطة الغناء والخلاعة والعري، ومشاهدة الدعارة والصورة العارية التي صارت بفضل القنوات الفضائية ومواقع الحاسوب في متناول كل من يريد.

ومنها ما هو متع وتسلية بعضها مباح، وأغلبه محرم أو مشبوه، لا تكاد تجد بيتا في الأحياء ذات الدخل المحدود غير مشترك في البث الفضائي، أو لم ينصب صحنا يلتقط به محطات آخر الليل، أو لا ينفق علىٰ السجائر كل يوم دينارا علىٰ الأقل، في الوقت الذي يترك الماء الأسود وغير الأسود يجري من بيته إلىٰ الطرقات، ويرمي خرق المحايض وبراز صغاره خارج بيته علىٰ خطوات، ولا يستقطع من نفقاته الطائشة من يؤجره علىٰ نقل ما يكف أذاه عن المسلمين. أي سفه وتفريط في حقوق المسلمين أبين من هذا؟!! المؤمن الذي يستحق وصف الإيمان يستقطع من قوته الضروري، من خبز يومه، مكتفيا بنصف ما يسدّ حاجته من الطعام لمن يقوم له بهذا الواجب المتعين، لا أن ينفق ماله علىٰ السفاهة، ويرمي بعفنه علىٰ عباد الله، فإلىٰ الله المشتكىٰ.

الصبر من الإيمان:

ليس كالصبر عون علىٰ إتقان العمل، وأداء الحقوق، والقيام بالواجبات علىٰ أحسن وجه وأكمله، لذا كانت أكثر خصال الإيمان وشعبه داخلة تحت الصبر، حتىٰ ورد أنه نصف الإيمان.

الصبر علىٰ العمل ابتداء ودواما:

ما من عمل من الأعمال الصالحة بأنواعها، في العبادة والمعاملة، إلا ويحتاج إلىٰ الصبر في مراحله الثلاثة، قبل البدء، وفي الأثناء، وبعد الانتهاء. ففي البدء يكون الصبر بتصحيح النية، والإخلاص، وتصفيته من شوائب الرياء، وهوىٰ النفس، وحب الثناء والمدح، وإطلاع الناس، ولا أشق علىٰ النفس من معالجة ذلك، ولعل هذا من أسرار تقديم الصبر علىٰ العمل في قوله -تعالىٰ-: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود: ١١]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

والصبر في الأثناء هو الصبر علىٰ العمل بعد الدخول فيه، وذلك بإتقانه وإكماله وأدائه علىٰ أحسن وجوهه، وأفضل صوره، ومراعاة كامل آدابه وفضائله، ولعل هذا من أسرار وصف المستحقين لأجور عملهم بالصبر في قوله -تعالىٰ-: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩]، أي علىٰ إتقان العمل وإتمامه، فكثيرا ما يصيب العامل فتور وتطفيف وقصور، وأحيانا تفريط وإهمال، لقلة الصبر في العمل، فالتفريط والإهمال، عادة ما يكون -عند ضعيف الإيمان، مع غياب القانون الرادع- في الإخلال بالأعمال التي يتقاضىٰ الناس عليها الأجور، ولا تعود عليهم خسارتها بطريق مباشر إذا أهملوها، كعمال الحكومات، والمصانع، والمؤسسات، في البلاد التي ضعف فيها إيمان المؤمنين وصبر العاملين أو غاب.

وأما الفتور والقصور، مع المحافظة علىٰ هيئة العمل وصورته، فيظهر جليا فيما كان من العمل عبادة لله خالصة، لا ينتظر العامل فيها مودّة صديق، ولا مكافأة ذي جاه وسلطان، فقد يصلي المصلي، ويصوم الصائم كيفما اتفق، فلا يحسن ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها، ولا يترك في صومه اللغو والرفث، فلا يصبر علىٰ ذلك كله، فإذا ما دعاه صديقه أو ولي نعمته من العباد لأن يقوم له بعمل، صبر عليه، وبذل وسعه في أن يكون العمل علىٰ أتم وجه وأحسنه وأتقنه، وتملّقه بتكلف الاعتناء به، ليرضيه ويحصل علىٰ ثنائه، مع تهاونه في أداء ما وجب لله عليه، والله بذلك أحق، والصبر علىٰ أداء ما يستحقه أوجب، مع ما فيه من الجزاء الحسن، ووفاء أجر الصابرين بغير حساب.

والصبر علىٰ العمل بعد الفراغ منه يكون بعدم ذكره وعدم التحدث به، وترك المن

والشهرة والإعجاب بالنفس، وتخليصه من السمعة والرياء، وكل ما يبطله ويحبطه، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

الصبر علىٰ المصيبة:

من الإيمان الصبر علىٰ المصيبة، والصبر علىٰ المصيبة معناه: التجمّل والتجلّد، وضبط النفس، والسيطرة عليها، وعدم إظهار الجزع والهلع، وذلك بتغليب باعث الدين في النفس، علىٰ باعث الشهوة والرغبة العاجلة. وقد ذكر الله -تعالىٰ- الصبر في أكثر من سبعين موضعا في القرآن، ومدح الصابرين مدحا لم يجعله لغيرهم، فجمع لهم ثلاث خصال: ثناء الله -تعالىٰ- عليهم، ورحمته، ووصفهم بالمهتدين، قال -تعالىٰ-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]. وما من قربة إلا وأجرها بتحديد ومقدار، إلا الصبر فقال ﷺ عنه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ولا يتم الصبر إلا بمطابقة القلب للسان والأعمال، فلا ينفع التجمل باللسان، والعمل مخالف، أو القلب جازع بما فيه، متطلع للشهوة المحرمة، وطاعة الشيطان، فإذا قال المصاب بلسانه: إنا لله وإنا إليه راجعون، عليه أن يكون في قلبه تسليم لله بقضائه حقا، وعمله علىٰ مقتضىٰ الصبر صدقا، فلا يصدر منه لفظ اعتراض ولا لوم ولا استغراب يناقض ذلك، فلا يقول مع الاسترجاع: لَمَ يا رب؟ ولا كيف حصل هذا لي؟ أو لَمَ لا يحصل لغيري؟ أو لم أتوقع حصول ما حصل لي، ولا يصدر منه عمل مخالف، كلطم الخدود، وشق الجيوب، أو الإخلال بواجب فإن ذلك يتضمن الاعتراض علىٰ القدر المنافي للصبر.

والصبر علىٰ المصائب لا يفيد صاحبه إلا إذا تجمل به عند الصدمة الأولىٰ، أول نزول المصيبة، فمن صبر عندها رزق الهداية والرحمة، وثناء الله -تبارك وتعالىٰ- عليه، قال ﷺ: «**إنمَا الصَبرُ عِندَ الصَدَمةِ الأَولىٰ**»[1]. وصبر العاقل في أول لحظة، وصبر الأحمق بعد ثلاث، ولا مزية للصبر بعد ثلاث فكل الناس بعدها يصبر. ويخرج عن مقام الصابرين من أظهر الكآبة والحزن غير المتعاد في ملبس، أو فراش، أو مطعم، أو أجّل عملا أو نكاحا، أو غير ذلك من كل ما هو داخل تحت اختياره،

---

(١) البخاري حديث رقم ١٣٨٣.

من أجل المصيبة؛ لأن المفقود عارية من الله ردّت إليه، فلا يستدعي إظهار الحزن والكآبة.

والقدوة في ذلك ما صنعته الصحابية الجليلة أم سليم زوج أبي طلحة رضي الله عنه، حيث أخفت عن أبي طلحة موت ابنه وتهيأت له كعادتها في فراشه، وأخبرته في الصباح بالمصاب، ولشأنها العظيم في ذلك بارك الله لهما في ليلتهما، فرزقهما الله من حملها ذلك سبعة من الولد، كلهم قرءوا القرآن وحملوا العلم. والصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره، ولا يخرج عن حد الصبر توجع القلب ودمع العين[1].

الصبر ثلاثة أنواع:

صبر علىٰ المصائب بالتجلد وعدم الجزع والتسخط علىٰ القضاء، وصبر علىٰ الطاعات بالمداومة عليها والإتيان بها علىٰ أكمل وجه، ابتداء ودواما وانتهاء كما تقدم، وصبر عن المعاصي والحرام بكف النفس عنه، وكلها من الإيمان.

الابتلاء بالنعم أشد من الابتلاء بالنقم:

من الإيمان صبر ذي النعمة علىٰ العافية بأداء ما يجب عليه فيها، وهو أشد من الصبر علىٰ البلاء، فإن الاطمئنان إلىٰ النعم والملذات مع صحة البدن ووفرة المال والجاه، واتساع الرزق، وكثرة الأتباع سبيل إلىٰ الظلم والبطر والطغيان، قال -تعالىٰ-: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وحذر الله -تعالىٰ- أهل السعة أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، ويقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ابتلينا مع رسول الله ﷺ «**بالضراء فصبرنا، ثم ابتلينا بالسراء بعده فلم نصبر**»[2].

والابتلاء بالنعم يأتي من جهة الاطمئنان إلى الدنيا والركون إليها، والاسترسال في الفرح بها، والحرص عليها، وقد حذر الله -تعالى- من ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ٤/ ٧٢.

(٢) سنن الترمذي حديث رقم ٢٤٦٤، وقال: حديث حسن.

لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

ويأتي أيضا من جهة نسيان أن ما أعطيه الإنسان منها من متاع وولد ونعم هو عارية، قد يُسلبه ويَفقده في أي لحظة شاء الله -تعالىٰ- ذلك، ومع نسيان هذه الحقيقة يجزع الإنسان أشد الجزع إذا مسه الضر، ويتصور وقوع المصيبة كأنه اعتداء عليه، لا قدر يجب التسليم له، يغفل المتسخط عن أن أصل النعمة هبة أعطيت له بعد أن كان لا شيء عنده، كما يغفل عن الحقوق الواجبة عليه إزاءها، كالشكر والذكر والزكاة والصدقة، والنجدة، والمعروف، وإغاثة الملهوف بالمال واليد واللسان، وهذا هو السر في أن الابتلاء بالنعم أشد من الابتلاء بالنقم، لما للنعم من حقوق وتبعات، ولأن الصبر علىٰ الجوع عند فقد الطعام أخف من الصبر عليه عند حضوره، ومن العصمة ألا تجد.

حماية التوحيد

سد ذرائع الانحراف في العقيدة:

أقام الإسلام أول ما أقام في نفوس المسلمين التوحيد، وأركان الإيمان، فلما استقر ذلك واكتمل شرع من الأحكام ما يحمي التوحيد والإيمان، ويحققه علىٰ أكمل وجه، وذلك بسد أبواب نواقضه ومفاسده التي تؤدي إلىٰ الشرك وعبادة غير الله. وبذلك أكمل الله -تعالىٰ- الدين، وأتم علىٰ عباده النعمة، فلم تترك الشريعة بابا من الفضائل يرسخ التوحيد، ويقوي الإيمان إلا فتحته، ودعت إليه ورغبت فيه، ولم تترك بابا للخرافات والمفاسد يخل بالتوحيد وينقص عرىٰ الإيمان، أو يذهب به إلا سدته، وحذرت منه أعظم تحذير، بالنهي الصريح، أو بضرب الأمثلة وأخذ العبرة من الأمم السابقة، ممن خرجوا عن طريق الحق، وما آل إليه حالهم من الكفر والعصيان، وما نزل بهم من العذاب، في مبتدعات ظنوها في بادئ أمرهم عبادات وطاعة تقرب إلىٰ الله -تعالىٰ-.

وفيما يلي التنبيه علىٰ أهم التطبيقات العملية السلوكية، التي شرعت لحماية الإيمان والتوحيد في عقيدة المسلم:

إخلاص العمل لله ومراتبه:

إخلاص العمل لله معناه: ألا يقصد به غيره. وقصد غيره بالعمل معناه الرياء، والرياء لا يقبل الله -تعالىٰ- معه عمل، فإن الله ﷻ يقول للمرائين: **«اذْهَبُوا إِلَىٰ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»**[1]. فمن كان عمله لله والدار

(١) مسند أحمد حديث رقم ٢٣١١٩.

الآخرة، كان سعيه مشكورا، وأجره موفورا، وعمله مقبولا، ومن كان عمله لحظ نفسه وزينة الدنيا وإرضاء العباد، عجل الله -تعالىٰ- له من الدنيا ما كتبه له منها، وليس له في الآخرة من نصيب. قال -تعالىٰ-: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وليس علىٰ النفس شيء أشق من الإخلاص؛ لأنه ليس لها منه نصيب، وكان بعضهم يقول: كم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، وكأنه نبت فيه علىٰ لون آخر[١].

وكان من دعاء مطرِّف بن عبد الله: اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه، ثم عدت فيه، وأستغفرك مما جعلته لك عن نفسي، ثم لم أوف به لك، وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك، فخالط قلبي منه ما قد علمت[٢].

وأكمل العمل ما قصد به وجه الله ابتداء ودواما، ولم يحصل منه للنفس حظ في الدنيا أصلا، من شهرة، أو مال، أو ذكر حسن، لا ابتداء ولا انتهاء، وهي المرتبة الأولىٰ في الإخلاص، مرتبة من أنفق حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، فبلغ من الإخلاص غايته، ولم يرج من غير الله شيئا.

ويلحق بهذه المرتبة -وإن كانت دونها- مَن كان عمله لله خالصا، ثم ألقىٰ الله له الثناء الحسن في قلوب الناس، ففرح بفضل الله ورحمته واستبشر، دون أن يغير ذلك قلبه وإخلاصه لله، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر ﷺ قال: قيل لرسول الله ﷺ: **«أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَىٰ الْمُؤْمِنِ»**[٣]، وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رجلا قال: **«يَا رَسُولَ اللهِ الرَّجُلُ يَعْمَلُ**

---

(١) جامع العلوم والحكم ص ٢٤.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٤.

(٣) مسلم حديث رقم ٢٦٤٢.

الْعَمَلَ فَيُسِرُّهُ فَإِذَا اطُّلِعَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ ذَلِكَ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَهُ أَجْرَانِ، أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ الْعَلَانِيَةِ»[١].

المرتبة الثانية: أن يكون أصل العمل لله، ثم تطرأ علىٰ صاحبه نية الرياء والإعجاب بالنفس، فإن كان مجرد خاطر ودفعه عن نفسه، فلا يضره، ولا يفسد العمل اتفاقا، وإن استرسل معه فيحتاج إلىٰ تجديد نية إن كان العمل لا ترتبط صحة أوله بآخره، كالقراءة والذكر، وإنفاق المال وتعليم العلم، فإن لم يجدد نيته لله كان العمل الطارئ باطلا.

أما العمل الذي ترتبط صحة آخره بأوله، كالصلاة والحج، فقيل: طروّ الرياء أثناءه يفسده، لدخول الرياء عليه، وقيل: لا يفسده، عملا بأصل النية الصحيحة، ويدل علىٰ عدم الفساد ما رواه أبو داود في المراسيل عن عطاء الخراساني: أن رجلا قال: يا رسول الله، إن بني سلمة كلهم يقاتل، فمنهم من يقاتل للدنيا، ومنهم من يقاتل نجدة، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله، فأيهم الشهيد، قال: كلهم، إذا كان أصل أمره أن تكون كلمة الله هي العليا[٢].

المرتبة الثالثة: أن يكون الباعث علىٰ العمل وجه الله وحمد الناس، بأن يريد صاحبه الدار الآخرة وعرض الدنيا، فهذا من العمل الباطل، خرج النسائي من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: **«جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَالَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا شَيْءَ لَهُ، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَا شَيْءَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»**[٣].

التحذير من الغلو:

مما حمىٰ به الإسلام التوحيد، أنه حذر من الغلو والإفراط في كل ما يعتقد أن مودته من الإيمان، ومحبته من الدين، كالغلو في الأنبياء والأولياء والشيوخ، والغلو في الكرامات وجعل لكل شيء ميزانا، إذا طغىٰ وجاوز حده تحول إلىٰ ضده، فأوجب

---

(١) الترمذي حديث رقم ٢٣٨٤.

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٣.

(٣) النسائي حديث رقم ٣١٤٠.

محبة الأنبياء والصالحين والتصديق بكراماتهم، وجعل محبتهم من الإيمان، لأن من أحبهم أحبَّ الله -تعالىٰ- وأحب طاعة الله، وطاعة رسوله ﷺ، ولكن محبتهم ليست هي الغلو فيهم، فمحبتهم طاعة، والغلو فيهم معصية، والفرق بين المحبة والغلو قد يلتبس علىٰ الجاهل والغافل، لكن لا يلتبس علىٰ العالم، والمؤمن المتيقظ.

فالغلو فيهم مجاوزة الحد في مدحهم وإطرائهم، ونسبة أمور إليهم هي من خصائص الربوبية، ولم يجعلها الله لأحد من خلقه. والمغالي لا يقف به الغلو عند حد، بل يبدأ غلوه صغيرا، ثم يتدرج به حتىٰ يجعله يعتقد ما لم يشرعه الله -تعالىٰ-، فقد غالىٰ النصارىٰ في عيسىٰ ﷺ، وانتهىٰ بهم الأمر إلىٰ أن جعلوه ربا، قال -تعالىٰ-: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»(١).

التحذير من الغلو في رسول الله ﷺ:

مما جاء في كلام وفد بني عامر حين قدموا علىٰ رسول الله ﷺ: «**فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ-» قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»(٢). نهاهم عن المبالغة في المدح، وقال لهم تكلموا بما يحضركم من القول، ولا تتكلفوا، كأنكم وكلاء للشيطان، تنطقون علىٰ لسانه. وقال ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُه فقولوا: عبد الله وَرَسُولُهُ**»(٣)، وفي المسند عن أنس ﷺ أن رجلا قال للنبي ﷺ: «**يَا مُحَمَّدُ يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ، ولَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ ﷻ**»(٤).

فليس من محبة رسول الله ﷺ وتوقيره المبالغة في إطرائه بما لا يحب، أو طلب

---

(١) ابن ماجه حديث رقم ٣٠٢٩.

(٢) أبو داود حديث رقم ٨٨٠٦.

(٣) البخاري حديث رقم ٣٤٤٥.

(٤) مسند أحمد حديث رقم ١٢١٤١، إسناده صحيح ورجاله ثقات.

شيء منه هو من خصائص الربوبية، بل ذلك مما يغضب الله ﷻ ورسوله ﷺ.

الغلو في الأولياء وتعارضه مع التوحيد:

غالىٰ الناس في الأولياء، وفي الخوف منهم، حتىٰ اعتقدوا أنهم يخرجون من قبورهم، ويحضرون مع أهل (الحضرة) في الأضرحة، وأن لهم تصرفًا ومقامات، ينفعون من انتمىٰ إليهم، ويضرون من يعترض عليهم، حتىٰ صاروا يخشونهم ولا يخشون -الله تعالىٰ-، ويرهبونهم ولا يرهبون الله -تعالىٰ-، ويقدمون لهم النذور، ويطلبون منهم الحاجات، ويعتقدون فيهم النفع والضر ويخافونهم.

يحلف الواحد منهم بالله كاذبا، ولا يخشىٰ سطوته وانتقامه، ولا يحلف بالولي كاذبا، خوفا من أن يكسر الولي ظهره، أو يخلي له داره، أو يُفقده ولده، أو يصيبه بِدَاءٍ لا يقوم منه.

وقد أدّت المبالغات في تعظيم الأولياء إلىٰ أن صارت مكانة الأولياء في قلوب العامة عند نزول المكروه أقرب إليهم من الباري ﷻ، فإذا ما مسّ الواحد منهم ضر فزع إلىٰ الولي بالنذر والاستغاثة، (يا سيدي فلان)، دون شعور ولا تردّد، فانظر كيف فعلت المبالغة في التعظيم فعلها في الغفلة عن الحي القيوم.

والذين ينذرون للولي ويستغيثون به، وينادونه لتفريج الكروب، وتخفيف المصائب ورفع الشدائد، إذا قيل لهم: إنه لا يُرجىٰ غير الله -تعالىٰ-؛ فهو وحده الذي ينفع ويضر، وأن النذر والدعاء عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله، وافقوا علىٰ ذلك، وقالوا: هو لله، والولي واسطة لا ينفع ولا يضر، لكنه أقرب منّا إلىٰ الله، وله دلالة علىٰ مولاه، لذا نتقرب به إلىٰ الله، فإنّ بُعدنا عن الله -تعالىٰ- ومعاصينا تحجبنا عن إجابة الدعاء.

لو سلمنا أن هذا هو حالهم حقيقة، وأنهم لا يقصدون مع الله غيره، مع أن أكثرهم لا يَسلم من اعتقاد أن للولي تأثيرًا وتصرفًا، خصوصا عندما ينادي الولي ويستغيث باسمه عند نزول المكروه، فإنه لو لم يَعتقد له نفعا لما ناداه؛ لأن نداء من لا يقدر علىٰ دفع الضرّ عند نزول الضرّ عبث، لا يصدر من عاقل، بدليل أنك لا تجد أحدا يستغيث بفاسق، أو ينادي عند الشدّة ظالما، لجزمه بعدم نفع الفاسق والظالم.

أقول: حتىٰ لو سلموا من هذا الاعتقاد علىٰ بُعد السلامة منه، فإن ما يفعلونه يؤدي

إلىٰ مفاسد، وهي أنه مخالف لما طلبه المولىٰ ﷻ من عباده، فإنه -سبحانه- لم يطلب منا أن نتوسط بأحد إذا اتجهنا إليه ليسمع دعاءنا، أو يرفع ضرنا، بل قال -سبحانه-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [غافر: ٦٠] ودعاء الأنبياء في القرآن: ربنا، ربنا، بدون واسطة، وقد أمرنا ربنا بالاقتداء بهم ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وبيّن لنا المولىٰ ﷻ أن الاستعانة لا تكون إلا به وحده لا بغيره، فعلّمنا في فاتحة الكتاب التي نكرّرها كل يوم في صلاتنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، وإلىٰ ذلك أيضا أرشدنا ووجّهنا رسول الله ﷺ: «**إذا سألتَ فاسْألِ الله وإذا استَعَنتَ فاسْتَعِنْ بالله**»[1]، فما بالنا نتنكب عن هدي الله -تعالىٰ- وهدي رسوله ﷺ إلىٰ تخرّصات ليس عليها أثارة من علم؟!

شحنت كتب المناقب والكرامات عند المتأخرين، كمجمع الأسرار في مناقب محمد بن عيسىٰ، ومختصر البرموني في مناقب عبد السلام، بخرافات وادعاءات لا أول لها ولا آخر، نسبوها إلىٰ بعض الأولياء، زُورًا وبُهتانًا من غير تمحيص ولا تحقيق علمي، ولا عرض علىٰ الشريعة، وفيها ما هو كفر صريح، ينشرها علىٰ العامة الذين يدعون حب الأولياء، ليزداد التعلّق بهذه الكرامات، وبمن يمت لها بسبب أو دعوىٰ. وفائدة ذلك عند الذين يعيشون علىٰ هذا الأمر، الوصول إلىٰ أموال الناس والهيمنة عليهم باسم بركة الولي الفلاني، وكرامات الولي الفلاني، وأدّىٰ ذلك إلىٰ أن صارت الألسنة تلهج بتمجيدهم وتعظيمهم، وبالغوا في أمرهم، حتىٰ نسبوا إليهم أنّ من لم يعتقد فيهم، ويُسلِّم لهم فيما قالوه من حق وباطل، يسلب منه الإيمان، ويموت علىٰ الكفر، أو تُخلىٰ داره، ويروُون في ذلك حكايات، وقعت لفلان، وفلان من الناس، سُلب من أحدهم الإيمان لاعتراضه علىٰ الشيخ بظاهر الشرع، إلىٰ أن جاء تائبا. ويريدون بذلك أنه يجب التسليم بكل ما ينسبونه إلىٰ الولي، سواء كان ما نسبوه إليه مشروعا يجوز قوله، أو كان منكرا من القول وزورا، فلابدّ من التسليم، وإلا جاء النذير. وهذه الحكايات هي من كيد إبليس وجنوده، لأن الاستسلام إليها ونشرها يؤدي إلىٰ إبطال الشرع، يصنعها المتعيشون علىٰ أبواب الأضرحة من الخدام

---

(١) الترمذي حديث رقم ٢٥١٦، وقال: حسن صحيح.

والأتباع، الذين صاروا من أثرياء الناس، دون كسب ولا صنعة.

يروي الشعراني أن شخصًا أنكر حضور مولد الشيخ أحمد البدوي، فسُلب الإيمان، فلم يكن فيه شعرة تحِن إلىٰ دين الإسلام، فاستغاث بالشيخ، فقال بشرط أن لا تعود، فقال: نعم، فردّ إليه إيمانه[1].

هذا الكلام وشبهه وأشدّ منه كثيرا، منسوب إلىٰ عبد السلام الأسمر، ومحمد بن عيسىٰ، وغيرهما من الأولياء. وكلّ مسلم يعرف قدر الأولياء، ومنزلتهم عند ربهم، لا يتردّد قطعا في أن كل وليّ لله -تعالىٰ- بريء منه؛ لأنه يستحيل علىٰ ولي من أولياء الله -تعالىٰ- محب لله ولرسوله وللمؤمنين، أن تكون كراماته سلبَ الإيمان عن المؤمنين وإخراجَهم من الدين، ومحبة أن يموتوا علىٰ الكفر، أو محبة إخلاء ديارهم، أو إهلاك ذراريهم وأموالهم، فإن هذا من الفساد في الأرض، الذي لا يصلح لأولياء الرحمن، ولا يصلح إلا لأولياء الشيطان، وقطّاع الطرق.

ومن ينسُب إلىٰ أولياء الله -تعالىٰ- هذه الكرامات، فقد ظلمهم واعتدىٰ عليهم، ونقّص قدرهم، واتّهمهم بالتّعاون مع الشيطان، في إخراج الناس من النور إلىٰ الظلمات، ومن الإيمان إلىٰ الكفر ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومن نسب إلىٰ أولياء الله هذا الظلم لا يكون من أوليائهم، ولا من محبيّهم، ولا من مريديهم، ولا من أتباعهم، وإن زعم ذلك، بل خليق به أن يكون من أعدائهم ومبغضيهم؛ لأنه نسب لهم فعل ما لا يجوز شرعا، وما هو كبيرة من المعاصي، إن لم يكن كفرا. وقد ذكر العلماء في باب الردة: إن من قال لغيره: أماته الله كافرا، وكان قاصدا لذلك، فإنه يكفر، لأن الرضا بالكفر كفر، وإن قصد مجرّد التغليظ، ففي كفره خلاف[2].

فتكون نسبة مثل هذه الكرامات إلىٰ الأولياء من الشرور، والباطل الذي لا يرضاه الله -تعالىٰ- لأوليائه، ومن نسب لهم ذلك فقد عاداهم، وقد توعد الله -تعالىٰ- في الحديث القدسي أن من عادىٰ له وليا فقد بارزه بالحرب.

---

(١) الطبقات الكبرىٰ ص ١٦٢.

(٢) انظر الخرشي مع حاشية العدوي ٨/ ٦٥.

فمثلا في مختصر البرموني المشار إليه آنفا من القصائد والكلمات المنسوبة إلىٰ عبد السلام الأسمر أو غيره من الأولياء، لو كانوا أحياء، وهم علىٰ ما يُظنّ بهم من الولاية والعلم ما رضوا بنسبتها إليهم، ولأوجعوا قائلها ومروج نشرها وتوزيعها نكالا وتأديبا، بل لأقاموا عليه حد الزندقة، لما في بعضها من نشر الغلو المفرط في تقديس الذات، ومشاركة الله -تعالىٰ- فيما عُلم يقينا اختصاصه به من العلم والقدرة مما يوجب اعتقاده لغير الله -تعالىٰ- الردّة واستتابة قائله، كالصعود إلىٰ السماء، وإلىٰ الرب -تعالىٰ- كما يأتي في الكلام المنسوب إليه.

قال خليل المالكي في باب الرِّدة، وهو يعدِّد ما يكون به المسلم كافرا: «كإلقاء مصحف في قذر... أو ادّعىٰ أنه يصعد إلىٰ السماء، أو يعانق الحور»، وفي الشفاء للقاضي عياض: «وكذلك من ادعىٰ مجالسة الله والعروج إليه، ومكالمته، يعني أنه كافر بإجماع المسلمين»[1].

فهل يصدق عاقل أن وليّا من أولياء الله -تعالىٰ- يقول للناس في قصائده التي يطلب منهم أن يردّدوها ويتعبدوا بها، يقول لهم فيها: إنه صعِد إلىٰ العرش وسدرة المنتهي، وأنه صعِد إلىٰ الربّ -تعالىٰ-[2]، وأن رب العزة تجلىٰ له، وأنه يعلم ما في السماء وما تحت الأرض، وما في اللوح، وما كان وما سيكون، وما هو مثْبت في اللوح ومنسوخ[3]، وأنه يعلم ما في الكون والملكوت، وأنه يُبري ويضر، وأحيا الله الموتىٰ علىٰ يده[4]، وأن الشرق والغرب والعرب والعجم في قبضته[5]، وأنه يحضر لأتباعه عند النزع، فيفوزون بحسن الخاتمة.

وأن له في الجنة والنار أمرا ونهيا، وأن له علوما لا نفاد لها[6].

كل واحدة من هذه الدواهي توجب الردة والكفر لمن نسبها إلىٰ غير الله -تعالىٰ-، فكيف إذا اجتمعت.

---

(١) مواهب الجليل ٦/ ٢٨٠.

(٢) مختصر كتاب روضة الأزهار لمخلوف ١٠٣، والأصل (روضة الأزهار) للبرموني غير مطبوع.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) مختصر البرموني ص ٩٩.

أليس هذا من الدسائس في الدين علىٰ الأولياء والصالحين؟ ألا يتقي الله ﷻ من يردّد مثل هذه القصائد والحكايات، ويقتني الكتب التي اشتملت عليها، وينشرها ويبيعها ويظن أنه يتعبد بها، وهو يجعل لله ندا؟

ألا يتقي الله من يجلس إلىٰ هذه الحكايات والقصائد، أو يسمع من يردّدها، ولا ينكر عليه ويحذره؟ إن التآليف المشتملة علىٰ مثل هذا الكلام، حتىٰ لو صحت نسبتها إلىٰ أصحابها، لا يجوز شرعا تداولها، ولا قراءتها ولا بيعها، ولا يقتدىٰ بأهلها فيها باتفاق الأمة، لما تؤدي إليه من الفساد في الدين.

وبعض هذه الكتب اشتملت مع ما فيها من الباطل علىٰ كلام من الحق، كالأمر باتباع القرآن والسنة، والاقتداء بهدي النبي ﷺ، والتوصية بالأذكار المشروعة، والأوراد القرآنية.

وهي بذلك تكون أخطر علىٰ الناس من الكتب التي تجرّدت للباطل وتمحضت للفساد، لأن هذا يعظّم الاغترار بها، والركون إليها، لما اشتملت عليه من الحق، وذلك لعدم تردّد الناس في منابذة ما كان باطلا صرفا، ليس فيه وجه حق، فالزيف المحض سرعان ما يضمحلّ، بخلاف المختلط بالحق، فإن له ثباتا لما يصحبه من تلبيس حتىٰ ينفيَ عنه أهل الحق انتحال المبطلين، وجهل الغالين.

تخويف الناس بالكرامات وإفساد العقائد:

الناس بحاجة إلىٰ تعلّم التوحيد تطبيقا وعملا، لا تعلّمه مجرد دروس نظرية فحسب، تجد الواحد حتىٰ من الدارسين في التخصّصات الدينية يدرس مادّة (التوحيد) في كتبه المشتملة علىٰ ما يجب الإيمان به، وما يجب لله -تعالىٰ- من التوحيد، وانفراده بالتأثير والقدرة المطلقة، والإرادة المطلقة، والعلم الذي لا يشاركه فيه أحد وليس له حد، يدرس كل ذلك وغيره من صفات الباري وكمالاته.

ولكنه في الجانب العملي التطبيقي في حياته ينساق مع معتقدات العامة، يخاف الأموات والأضرحة، وينسب إليهم من الأفعال والأقوال والغيبيات والتأثيرات مما يسميه كرامات ما يتنافىٰ مع ما تعلمه في معاهد العلم، ومع ما يتنافىٰ مع إيمانه، فيتطير ويتشاءم، ويخاف الضر والنفع من غير الله -تعالىٰ-، ويحسب ألف حساب لكلمة من مدّع للبركة في عقله خلل، تزيّا بزيّ المجاذيب وأهمل نفسه، ولو أراد هذا الأخير أن

يسلب منه ماله لسلبه ولا يقدر أن يمتنع، خوف أن يصيبه منه ضر، فاستوىٰ من تعلم ومن جهل، وصار المتعلم بسلوكه حجة للجاهل يستند عليها ليقيم علىٰ جهله، ولا يسمع من أحد نصحا ولا تعليما.

الحلف بغير الله:

مما شرع لحماية التوحيد الحلف تعظيمًا للمحلوف به، والحالف إنما يحلف بأعظم شيء يعتقده، ولما كان الله ﷻ أعظم شيء عند المؤمن، كان حلفه المشروع إنما هو بالله أو بصفة من صفاته، ولا يجوز له الحلف بغير الله، لأنه لا شيء غير الله يعظّم تعظيمه. ومن حلف بشيء غير ربه فكأنه عظمه تعظيمه، فسبب منع الحلف بغير الله -تعالىٰ- الخوف من أن يعظم المخلوق تعظيم الخالق، فكيف إذًا بمن يجرؤ علىٰ أن يحلف بالله كاذبا، ولا يخشىٰ انتقامه؟ ولا يحلف كاذبا بأحد الأموات ممن يعتقد فيهم الصلاح خوف أن يخلي له داره، ويعاجله بالعقوبة، بئس الجهل بمقام الله العظيم، سبحان الله!! لا أحد أصبر علىٰ أذىٰ سمعه من الله.

ومن فعل ذلك جاهلا بمقام ربه، غير متعمد لتعظيم غيره عليه، فإنه يؤدب تأديبا بليغا، أما من قصد ذلك فجعل منزلة العبد فوق منزلة الرب فقد خرج عن الإسلام، ففي الصحيح من حديث عمر ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**أَلاَ، إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، وَإِلَّا فَلْيَصْمُتْ**»[1]، وفي رواية: «**أَلَا مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلاَ يَحْلِفْ إِلاَّ بِاللهِ**»[2]. وفي حديث عبد الرحمن بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَحْلِفُوا بِالطَّوَاغِي، وَلاَ بِآبَائِكُمْ**»[3]، وفي حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّىٰ، فَلْيَقُلْ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[4]، واللات اسم صنم كانوا يعبدونه في الجاهلية.

وبذلك يعلم التحذير مما يجري علىٰ ألسنة الناس دون أن يقصدوه من الحلف بما ظاهره الخروج عن الملة، كهو يهودي، أو نصراني، أو بريء من الإسلام، أو من

---

(١) البخاري حديث رقم ٦١٠٨.

(٢) البخاري حديث رقم ٣٨٣٦.

(٣) مسلم حديث رقم ١٦٤٨.

(٤) البخاري حديث رقم ٤٨٦٠.

القرآن، ومن قال ذلك وحنث لا يرتد إن قصد باليمين مجرد الامتناع عن الشيء، ولم يقصد الإخبار عن نفسه، فإن أخبر بذلك عن نفسه في غير يمين، وقال: هو يهودي فهو ردة، ولو كان هازلا أو جاهلا[1]، قال ﷺ: **«مَنْ حَلَفَ فَقَالَ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ الْإِسْلَامِ فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ سَالِمًا»**[2] وقوله: فهو كما قال، قال المنذري: ليس علىٰ إطلاقه في نسبته إلىٰ الكفر، بل المراد أنه كاذب ككذب المعظم لتلك الجهة، ولا يكون كافرا إلا إن أضمر ذلك في نفسه، وهو قول ابن عباس وأبي هريرة وعطاء وقتادة، وجمهور الفقهاء، وقوله: «فلن يرجع إلىٰ الإسلام سالما»، أنه لن ينجو من الإثم ولو بَرَّ فيه، لما في هذا الحلف من الاستخفاف ولا مبالاة.

أما قسم الله -تعالىٰ- بمخلوقاته، كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١]، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١]، وقوله تعالىٰ: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، فهو مما لا يقاس عليه، لأن لله -تعالىٰ- أن يقسم بما يشاء من الأمور التي تدل علىٰ قدرته وعظمته، وليس ذلك لغير الله، ومن العلماء من يرىٰ أن في هذه الآيات حذفا، تقديره: ورب الضحىٰ، ورب الليل... الخ.

وأما قول النبي ﷺ: **«أفلح وأبيه إن صدق»**، الذي ظاهره الحلف بلفظ الأب، فالجواب عليه أن لفظة (وأبيه) غير محفوظة في الحديث عمن يحتج به، كما قال الحافظ بن عبد البر، فقد روىٰ الحديث مالك وغيره من الحفاظ بدونها، ومنهم من رواه بلفظ: **«أفلح والله إن صدق»**، وهذا أولىٰ من رواية من روىٰ (وأبيه)، لأنها لفظة منكرة، تردها الآثار الصحاح، وعلىٰ فرض صحة ثبوت هذه اللفظة، فهي منسوخة لنهىٰ النبي ﷺ عمر عن الحلف بها في الحديث المتقدم[3]، ولم يرد بعد النهي إباحة، ولذلك قال عمر وهو يروي الحديث بعد موت النبي ﷺ: **«فَمَا حَلَفْتُ بِهَا ذَاكِرًا وَلَا آثِرًا»**[4].

---

(١) انظر الشرح الكبير ٢/٢٨.

(٢) صحيح أبي داود حديث رقم ٢٧٩٣.

(٣) انظر التمهيد ١٤/٣٦٧ و١٦/١٥٨ والمغنىٰ ٨/٦٧٨.

(٤) البخاري حديث رقم ٦٦٤٧، (ذاكرا) أي من نفسي، (آثرا) أي ناقلا عن غيري بأن أقول: قال فلان: وأبي.

نسبة الاختراع والإبداع لغير الله:

الإبداع والاختراع معناه الإنشاء والخلق على غير مثال سابق، فالله -سبحانه وتعالى- هو الخالق المبدع قال -تعالى-: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [النمل: ٦٤]، وقال تعالى ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، ولا يجوز إطلاق هذا اللفظ بهذا المعنى على غير الخالق -سبحانه-، فلا يقال: فلان مبدع، ولا فلان مخترع على معنى: نسبة الفعل والتأثير له على الحقيقة. ففي حديث زيد بن خالد الجهني قال: «**صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: "هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟" قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم. قَالَ: "أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**»(١).

ترجم القرطبي في (المفهم) لهذا الحديث: (باب نسبة الاختراع لغير الله حقيقة كفر)(٢)، وذلك يعني أن من اعتقد أن خلق الأشياء أو إبداعها من فعل غير الله حقيقة، أو اعتقد أن المطر من فعل الكواكب، كان بذلك كافرا، أما من اعتقد أن الله -تعالى- هو الخالق والمبدع على الحقيقة، وهو المنزل للمطر على الحقيقة، ولكنه تكلم بذلك دون أن يقصد أن لغير الله تأثيرا، كما يشيع الآن على ألسنة كثير من الكتاب في الصحف والمقالات والإذاعات دون وعي ولا إدراك، متأثرين في ذلك بغير المسلمين، أو بمن ينتسبون إلى الإسلام اسما -فهو مخطئ من جهتين: من جهة مخالفته للشرع الذي حذر من إجراء هذا اللفظ على اللسان، ومن جهة تشبهه بمقالة أهل الكفر الذين أمرنا بمخالفتهم. قال ﷺ: «**خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ**»(٣)، وقال ﷺ: «**خَالِفُوا اليَهُودَ والنَّصَارَى**»(٤).

ولا يدخل في النهي الإخبار عما يتوقع حدوثه بناء على الأسباب التي يتيحها العلم، أو تعرف من التجارب، كأن يستدل باتجاه الرياح أو انخفاضها على توقع

---

(١) البخاري حديث رقم ٨٤٦.

(٢) المفهم ٢٥٨/١.

(٣) البخاري حديث رقم ٥٨٩٢.

(٤) سنن أبي داود حديث رقم ٦٥٢.

نزول المطر، أو برودة الجو، أو حرارته، إلىٰ غير ذلك، وقد روي: «إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غُديقة»[1].

تسمية المخلوق بالرب والمولىٰ والسيد:

لفظ الرب والمولىٰ والسّيد معرّفا بالألف واللام لا يطلق إلا علىٰ الله -تبارك وتعالىٰ-، فلا يجوز إطلاقه علىٰ المخلوق[2]، كأن يقال: فلان الرب. ويجوز إطلاقه علىٰ المخلوقين مضافا، في موضع الإخبار والتعريف والوصف، كما في حديث «أن تلد الأمة ربتها»[3]، وكما في قوله -تعالىٰ- حكاية عن يوسف ﷺ ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، لا في موضع الدعاء والنداء، فلا يقال للمخلوق: يا ربي.

ويجوز استعمال لفظ الرَّب مضافا إلىٰ غير العقلاء كالجماد والحيوان، فيقال: رب الدار، ورب الدابة، ومنه قوله ﷺ في حديث اللقطة: «**دَعْهَا، فَإِنّ مَعَهَا حِذَاءَهَا وَسِقَاءَهَا، تَرِدُ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الشّجَرَ، حَتّىٰ يَجِدَهَا رَبّهَا**»[4]. ولا يجوز أن يتحدث الإنسان بذلك عن نفسه، كأن يقول السيد لعبده: اسق ربك، أو أطعم ربك، أو يقول المملوك لسيده: ربي، أو ربتي، ولا أن يقول السيد: عبدي وأمتي، بل يقول المملوك: سيدي ومولاي، ويقول السيد: فتاي وفتاتي، وغلامي وجاريتي؛ لأن حقيقة العبودية لا تكون إلا لله -تعالىٰ-، وحقيقة الربوبية لا يستحقها إلا الله، فلا تجوز المضاهاة، لما فيها من التشبه والتشريك، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد، ففي الصحيح من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لا يَقُل أحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وضَئْ رَبَّكَ، اسْقِ رَبَّكَ ولْيَقلْ: سَيِّدي مَوْلاي، ولا يَقُلْ أحَدُكُم عَبدِي أَمَتي وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وفَتَاتِي وغُلامِي**»[5].

---

(١) عزاه الهيثمي إلىٰ الطبراني في الأوسط، وقال: تفرد به الواقدي، قال الهيثمي: في الواقدي كلام، وقد وثقه غير واحد، وبقية رجاله لا بأس بهم، وقد وثقوا، أقول: بل الواقدي متروك كما في التقريب، انظر مجمع الزوائد ٢/٢٢٠ والمفهم ١/٢٦٠، وتقريب التهذيب ٦١٧٥.

(٢) تفسير القرطبي ١/١٨٢.

(٣) البخاري حديث رقم ٥٠.

(٤) ٢٤٢٨.

(٥) البخاري حديث رقم ٢٥٥٢.

وفي رواية: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي**»[1]، قال الخطابي: سبب المَنع أن الإنسان مربوب متعبد بإخلاص التوحيد لله، وترك الإشراك معه، فكره له المضاهاة في الاسم، لئلا يدخل في معنى الشرك[2].

واختار القرطبي في المفهم أن المقصود من النهي الوارد في الأحاديث السابقة هو الإرشاد إلىٰ اختيار أحسن الألفاظ في الاستعمال، واجتناب المشترك منها، حتىٰ لا يقع المتكلم في الاحتمال، وهو إرشاد عنده وأدب من غير إيجاب ولا تحريم[3].

سب الدهر:

الدهر: معناه الليل والنهار وتقلبهما، وتصريفهما، وسب الدهر كان عادة في أهل الجاهلية، وجرىٰ مجراهم كثير من أهل العصر، كان أهل الجاهلية ينسبون الأفعال إلىٰ الدهر، فجرىٰ علىٰ ألسنتهم من مثل قولهم: تبًّا للدهر، وقد فعل بي كذا، وفعلت بي الأيام كذا، تبا للأيام، يا خيبة الدهر، فيذمونه إن حصل لهم ما يسوءهم، ويمدحونه إن حصل لهم ما يسرهم، وقد حرم الله ذلك ونهىٰ عنه أشد النهي، فالذي يسب الدهر إنما يسبه لاعتقاده أن له فعلا وتأثيرا، فهو في الحقيقة كالذي يسب الله ﷻ، لأن الفاعل علىٰ الحقيقة هو الله -تعالىٰ-، ولذلك جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**قَالَ الله ﷻ: يُؤْذِينِي ابْن آدم يَقُولُ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا**»[4]، وقال ﷺ: «**لَا تسبوا الدَّهْر؛ فَإِن الله هُوَ الدَّهْر**»[5].

وليس الدهر من أسماء الله -تعالىٰ-، فإن أسماءه توقيفية، وليس منها الدهر، ومعنىٰ فإني أنا الدهر أي أنا الذي أفعل ما ينسبونه إلىٰ الدهر من التأثير، فإن الدهر ليل ونهار، وأنا أقلبهما وأصرفهما.

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٢٤٩.

(٢) فتح الباري ٥/ ٤٨٨.

(٣) المفهم ٥/٥٥٥.

(٤) مسلم حديث رقم ٧٤٩١.

(٥) مسلم حديث رقم ٢٢٤٦.

ومن نسب شيئا من الأفعال إلىٰ الدهر واعتقد تأثيره حقيقة كان كافرا دون شك، ومن جرىٰ سب الدهر علىٰ لسانه دون أن يعتقد تأثيرا ولا خطر بباله أنه يسب الله -تعالىٰ-، فليس بكافر، ولكنه تشبه بكلام أهل الكفر، وفعل ما نهىٰ الله -تعالىٰ- ورسوله عنه، فالواجب عليه التوبة والاستغفار، وأن يتعلم من أمور دينه ما يصحح به اعتقاده وعمله.

التألّي علىٰ الله:

التألي علىٰ الله معناه: التحكم عليه بفعل شيء أو تركه، وهو لا يجوز، فإن الواجب التأدب مع الله ﷻ في الأقوال والأحوال، وعلىٰ العبد أن يعامل نفسه بكامل العبودية، ويعطي للمولىٰ قدره، وما يجب له من أحكام الربوبية، فلا يتألّىٰ علىٰ الله بشيء، ولا يتحكم عليه بأنه يفعل كذا أو لا يفعل كذا، ظنًّا وتخرّصا فالله ﷻ يحكم علىٰ عباده ولا يحكمون عليه ويقضي علىٰ الخلق ولا يقضون عليه بشيء، ويملك من الناس ولا يملكون عليه، ويجير علىٰ عباده ولا يجار عليه، قال -تعالىٰ-: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: **«أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ، وَإِنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ»**[١].

والمتألّي علىٰ الله علىٰ هذا النحو، إن كان مستحلا لنفسه حق التحكم علىٰ الله، غير معذور باجتهاد خاطئ فهو كافر، ويكون إحباط عمله الوارد في الحديث، لأجل الكفر. وأما إذا لم يكن مستحلا لذلك، وإنما قال ما قال لما غلب عليه من الخوف من معصية الله، فحكم بإنفاذ الوعيد علىٰ العاصي فليس بكافر، ولكنه مرتكب كبيرة، ليأسه وقنوطه من مغفرة الله، وجهله بمقام الألوهية، فيحمل إحباط عمله علىٰ أن هذه الكبيرة التي اقترفها ذهبت بأعماله الصالحة، ورجحت عنها، فكأنه لم يبق له عمل صالح يعتد به[٢].

أما إذا كان الحلف علىٰ الله علىٰ جهة حسن الظن بالله، ممن يعظم الله ويخشاه

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٦٢١.

(٢) انظر المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٦/ ٦٠٧.

ويتقيه، فذلك جائز، وقد وقع ذلك ممن علم الله صدقهم وإخلاصهم من عباده المخبتين، وهو معنىٰ قوله ﷺ: **«رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ لَأَبَرَّهُ»**[1]، وقد قال أنس بن النضر لرسول الله ﷺ عندما أراد القوم القصاص من الربيع: **«وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لاَ تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا»**[2]، فأبر الله قسمه، ورضي الطالبون بالدية بعد أن كانوا يريدون القصاص، وكان البراء بن مالك بن النضر أخو أنس أحد هؤلاء الذين لو أقسموا علىٰ الله لأبرهم، قال يوم حصن تُستَر حين اشتد القتال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك، فأبّر الله قسمه واستشهد[3].

التشريك في المشيئة والقدرة:

مما حمىٰ الإسلام به التوحيد أنه لا يجوز أن يُشرك مع الله غيره من المخلوقات في مشيئته أو قدرته، فلا يقال: ما شاء الله وشاء فلان، ولولا الله وفلان، وأنا بالله وبك، كل هذه الألفاظ ورد النهي عنها، لما فيها من تشريك غير الله معه في المشيئة والقدرة.

والصواب أن يقال: ما شاء الله ثم ما شاء فلان، ولولا الله ثم فلان، وأنا بالله ثم بك، لما في العطف بـثم من تقديم مشيئة الله -تعالىٰ- وقدرته علىٰ قدرة غيره ومشيئته، بخلاف العطف بالواو، فإنه منهي عنه، لأنه يقتضي التشريك، فقد خرج النسائي أن يهوديا أتىٰ النبي ﷺ فقال: **«إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ . فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ»**[4].

ورویٰ ابن عباس عن النبي ﷺ: **«إِذَا حَلَفَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ وَلَكِنْ لِيَقُلْ: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ»**[5] وفي رواية: **«أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ**

(١) مسلم حديث رقم ٢٦٢٢.

(٢) البخاري حديث رقم ٢٧٠٣.

(٣) انظر الترمذي ٥/٦٩٢، والإصابة ١/ ٢٨٢، والمفهم ٦/٦١٠.

(٤) النسائي حديث رقم ٣٧٧٣.

(٥) سنن ابن ماجه حديث رقم ٢١١٧.

وَشِئْتَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلًا، بَلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[1]. وإذا كان التشريك بواو العطف في قولهم (لولا الله وأنت) منهي عنه، فما بالك بمن لا يذكر الله أصلا ولا يخطر له علىٰ بال؟ فيقول لمن أسدىٰ إليه معروفا: لولاك لما كان كذا، أو ليس لي غيرك! فكم في استعمالات الناس للألفاظ اليومية من جفوة ومجانبة للأدب في حق الباري ﷻ!

التوسل الجائز:

التوسل والوسيلة له في اللغة معان، منها: الرغبة في الأمر والتقرب بالعمل الصالح، كما في قول الله -تعالىٰ-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، أي يتسابقون في القرب من ربهم بالأعمال الصالحة ويرغبون في ذلك، ومن معانيه أيضا: أن يتقرب المتوسل بحرمة آصرة تجعل المتوسّل إليه يعطف علىٰ المتوسل.

والتوسل الجائز هو التوسل إلىٰ الله -تعالىٰ- بالعمل الصالح ليستجيب دعاء الداعي وهو جائز بالاتفاق، وله وجوه، منها تقديم الصدقة بين يدي الدعاء، ومنها الدعاء في السجود، لقول النبي ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»[2].

ومنها التوسل إلىٰ الله ﷻ بعمل سابق أخلص العبد فيه لربه، كما في حديث الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة في الغار، فتوسَّل أحدهم بما كان عليه من بر والديه، فانزاحت عنهم الصخرة قليلا، وتوسل الثاني بالعفة حين طاوعته ابنة عمه علىٰ نفسها، فخاف الله بعد أن جلس منها مجلس الرجل من المرأة وقام، فانزاحت قليلا عما كانت عليه، وتوسَّل الثالث بتنمية الأمانة لصاحبها دون علمه، ففرج الله عنهم[3].

ومن التوسل الجائز في الدعاء التوسل بدعاء عبد مؤمن حاضر، أو بظهر الغيب، لقول الله -تعالىٰ-: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي ادع لهم عند أخذ الزكاة، ومنه قول النبي ﷺ حين أتاه عبد الله بن أبي أوفىٰ بزكاته: «**اللَّهُمَّ صَلِّ**

---

(١) مسند أحمد ١٨٤٢، وفتح الباري ١٤/٣٤٧.

(٢) مسلم حديث رقم ٤٨٢.

(٣) البخاري حديث رقم ٢٢٧٢.

عَلَىٰ آلِ أَبِي أَوْفَىٰ»[1]، ولما جاء في الصحيح عن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ رَجُلًا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَنِ، يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ، لَا يَدَعُ بِالْيَمَنِ غَيْرَ أُمٍّ لَهُ قَدْ كَانَ بِهِ بَيَاضٌ، فَدَعَا اللهَ فَأَذْهَبَهُ عَنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ الدِّينَارِ أَوِ الدِّرْهَمِ فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ»**[2]، وتوسل عمر ﷺ بدعاء العباس عم النبي ﷺ في الاستسقاء، وقال: **«اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ»**[3].

وقال النبي ﷺ لعمر: **«لَا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ»**، قال عمر: **«فَقَالَ كَلِمَةً مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الدُّنْيَا»**[4].

ومن التوسل الجائز أيضا بالاتفاق التوسل إلىٰ الله -تعالىٰ- بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، لقول الله -تعالىٰ-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وفي الحديث عن أنس ﷺ: **«أَنَّه كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْمَنَّانُ بَدِيعِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ»**[5].

«وسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَىٰ»[6].

التوسل المختلف فيه:

من التوسل المختلف فيه التوسل بذات النبي ﷺ وجاهه عند ربه، بأن يقول

---

(١) البخاري حديث رقم ١٤٩٨.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٥٤٢.

(٣) البخاري حديث رقم ١٠١٠.

(٤) سنن أبي داود حديث رقم ١٤٩٨.

(٥) أبو داود حديث رقم ١٤٩٥.

(٦) الترمذي حديث رقم ٣٤٧٥.

الداعي: اللهم استجب لي بجاه نبيك محمد ﷺ، فهذه الصيغة في الدعاء لم تكن معهودة عند الصحابة، ولا التابعين، ولا متعارفا عليها بينهم. فمن العلماء من منعها، وقال: لو كانت جائزة لأرشد النبي ﷺ إليها أصحابه، ولقدموها بين يدي دعائهم، ولنقلت إلينا، لأنه لم يترك بابا للخير إلا ودلهم عليه، ولم يرد عنه ﷺ ما يحتمل أن يدل عليها إلا حديث واحد، وهو حديث الضرير، فعن عثمان بن حُنَيف رضي الله عنه **«أَنَّ رَجُلًا ضَرِيرَ الْبَصَرِ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَنِي قَالَ إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قالَ: فادْعُهُ، قال: فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعاءِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ، وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيك مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَىٰ رَبِّي فِي حَاجَتِي هذِهِ لِتُقْضَىٰ لِيَ، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ»**[(١)].

هذا الحديث، صححه أكثر الحفاظ، ومن العلماء من أعله، سندا ومتنا، لعدة أمور؛ منها جهالة أحد رواته[(٢)]، ولأن في قصته: «وأن عثمان كان يحتجب من رعيته»، وعثمان رضي الله عنه لم يكن يحتجب عن الرعية، بل كان يجلس على المصاطب يعلم الناس الوضوء، ومنها قول الرجل للنبي ﷺ عند ابن خزيمة والحاكم: «اللهم شفعه فيّ وشفعني فيه»[(٣)]، وهذا خطأ ظاهر، إذ كيف يشفع الرجل في النبي ﷺ؟ إلا أن يكون المراد بالشفاعة سؤال الدعاء، بمعنىٰ أن الرجل يدعو للنبي ﷺ، والنبي ﷺ يدعو للرجل برد بصره، فيصح الكلام، ولا يكون في الحديث حينئذ دلالة علىٰ المطلوب؛ لأن التوسل بدعاء الغير جائز بالاتفاق، وقد رُوي عن الإمام أحمد في هذا النوع من التوسل بالنبي ﷺ خاصة قولان بالمنع والجواز، وقيل: رواية الجواز عنه محمولة علىٰ السؤال بالإيمان به وبمحبته، لا بذاته، فلا تكون من محل النزاع[(٤)].

التوسل المحظور:

منعت الشريعة التعلق بغير الله في كشف الضر وتفريج الكرب، ومنعت اتخاذ

---

(١) الترمذي حديث رقم ٣٥٧٨، وانظر تحفة الأحوذي ١٠/ ٢٥.

(٢) وهو أبو جعفر، قيل: هو الخطمي، وهو ثقة، وقيل: هو الرازي، وهو صدوق سيء الحفظ، انظر تحفة الأحوذي ١٠/ ٢٤، وتقريب التهذيب رقم ٨١٩.

(٣) صحيح ابن خزيمة ٢/ ٢٢٥، والمستدرك ١/ ٤٥٨ بتحقيق مصطفىٰ عبد القادر.

(٤) انظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٦٣، ٩٤.

الوسائط والشفعاء من دون الله، قال -تعالىٰ-: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]. والشفاعة معناها: الطلب من الله عن طريق غيره، فمنعهم القرآن من ذلك وأمرهم أن يطلبوا الشفاعة ممن يملك الأمر كله ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزمر: ٤٤]، وبين لهم أن شفاعة غيره لا تغني شيئا إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضىٰ، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

ومن قال: إن هذه الآيات وأمثالها خطاب لأهل الجاهلية الذين يعبدون الأوثان، وليس في أهل التوحيد من يعبد الأوثان، يقال له: نعم، هي لهم، ولكن القرآن ذكر ما كانوا عليه للتحذير من عملهم، وللاعتبار بحالهم، فلا يجوز للمسلم أن يفعل فعلهم، ويتشبه بهم، فقد قال ﷺ: «**خالفوا المشركين**»[١]، وقال ﷺ: «**خالفوا اليهود**»[٢]، فمن فعل فعلهم أو شابههم في أحوالهم أصابه ما أصابهم، والقرآن ليس خاصا بأمة من الناس، ولا بعصر من العصور ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، إلىٰ قيام الساعة، وقد قال الله -تعالىٰ- خطابا للمؤمنين: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فلم يرشد المؤمنين أهل التوحيد إلىٰ شفعاء وسائط إلىٰ الله -تعالىٰ-، وقد خاطب النبي ﷺ ابن عباس، وهو من أهل الإيمان، فقال له: «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»[٣].

إن الداعي لا يحتاج إلىٰ واسطة ليسمع الله -تعالىٰ- دعاءه، مهما كان بعده من ربه في العصيان، إن الشيطان بعد أن طُرد من رحمة ربه وأُبعد، دعا ربه بدون واسطة وأجيب، ولم يلتجئ إلىٰ الملائكة يتقرّب بهم ليجيب الله -تعالىٰ- دعاءه، بل ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٣٧]، والمشركون ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، فاستجاب الله -

---

(١) البخاري حديث رقم ٥٨٩٢.

(٢) سنن أبو داود حديث رقم ٦٥٢.

(٣) سنن الترمذي حديث رقم ٢٥١٦.

تعالىٰ- لهم، كما أخبر -سبحانه- ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣] والمؤمن مهما كان ضالا فهو أسعد حالا بربّه، وأرجىٰ لرحمته من إبليس وجنوده.

ومن مفاسد الالتجاء إلىٰ المخلوق فيما هو من شأن الخالق أنه حتىٰ مع التسليم بما يدعيه أولئك من إفراد الله -تعالىٰ- بالضر والنفع، فإن التوسط بالشفعاء فيه تشبّه بأهل الشرك والجاهلية، فإنهم أيضا كانوا يقولون عن الأوثان: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ولم يكونوا يعتقدون قط أن للأوثان قدرة علىٰ الخلق والضر والنفع، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ثم إن شدة التعلق بالوسائط والشفعاء من الأولياء والتمادي علىٰ ذلك بحيث تلهج بهم الألسنة كما هو مشاهد ويذكرون وينادون ويستغاث بهم وينسىٰ الخالق -تبارك وتعالىٰ- نهايته أن يصل بأهله إلىٰ ما وصل إليه حال أولئك الذين ذكرهم الله ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] وذاك الشرك بعينه.

الاستغاثة بالمخلوق:

لا يجوز لأحد أن يستغيث بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، فلا يستغيث المسلم بالنبي ﷺ ولا بالملائكة، ولا بالصالحين، فلا يجوز لمن وقع في كرب أو ضيق، أو محنة أن يقول: يا محمد، ولا يا عبد السلام، ولا يا بدوي، ولا يا ابن عيسى، قال -تعالى- عن المشركين: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال ﷺ: «**إذا سألت فاسأل الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ باللَّهِ**»، وفي الحديث الصحيح: إن الغالّ يأتي يوم القيامة: «**يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ**»[1]، فالاستغاثة بغير الله لدفع الضرّ لا تجوز بحال من الأحوال، وأهل الجاهلية علىٰ كفرهم وشركهم كانوا عند الكرب والفزع

---

(١) البخاري حديث رقم ٣٠٧٣.

يخلصون النداء لله، ولا يدعون معه غيره، قال -تعالىٰ-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]، هذا حال الجاهلي المشرك عرف قدرة الله عند الضيق، وأنه لا ينجيه من كربه سواه، فكيف يرتكب المسلم ما لم يقبله قلب الجاهلي؟ فَيدعوَ المخلوقَ لينقذه أو يشفيه، أو يعطيه، المخلوق عاجز ميت، لو كان يملك لغيره شفاء، أو حاجة لنفع نفسه وأحرزها.

تشييد الأضرحة وبناء القبور:

مما شرع لحماية التوحيد نهي النبي ﷺ عن تشييد الأضرحة، وبناء القبور، وأمره بهدم المائل منها وتسويته بالأرض، حتىٰ لا يؤدي ذلك إلىٰ تقديسها وتعظيمها والتمسح بها، والتوجه إليها لقضاء الحوائج، كما هو مشاهد اليوم في كثير من بلاد المسلمين، ففي الصحيح من حديث أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علىٰ ؓ: ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «**أنْ لا تَدَعَ تِمْثَالا إلا طَمَسْتَهُ، وَلا قَبْرًامشرفا إلا سَوَّيْتَهُ**»[1]. وفي الصحيح من حديث جابر ؓ قال: «**نَهَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَىٰ عَلَيْهِ**»[2]، وفي رواية: «**وأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْها**»[3]، فلا يحل لمسلم وهو يسمع هذا النهي أن يشيد قبرا، أو يبني عليه، قال الله -تعالىٰ- ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[4] [الحشر: ٧].

اتخاذ القبور مساجد:

نهىٰ النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، وأن يصلىٰ إليها أو تتخذ عيدا يجتمع الناس عندها تعظيما لها، لعبادة أو غيرها، وذلك حماية للتوحيد، وقد أخبرنا ﷺ بما أدىٰ إليه تعظيم القبور في الأمم قبلنا من الشرك تحذيرا لأمته.

---

(١) مسلم حديث رقم ٩٦٩.

(٢) مسلم حديث رقم ٩٧٠.

(٣) سنن الترمذي حديث رقم ١٠٥٢.

(٤) انظر تفصيل المسألة في كتاب (الغلو في الدين) للمؤلف ص ١١٢.

خرج مالك في الموطأ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تَجْعَلواْ قَبرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[1]. وفي الصحيح عن عائشة ﵂ قالت، قَال رَسُولُ الله ﷺ فِي مَرَضِهِ الذِي لَمْ يَقُم مِنْهُ: «**لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». لَوْلاَ ذَلِكَ أُبرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَوْ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»[2].

وقال ﷺ: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[3]، وقال ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»[4]. وعندما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة ﵄ لرسول الله ﷺ كنيسة رأتاها في الحبشة فيها تصاوير، قال: «**إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فيه تِلك الصُّوَرَ، فأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[5].

وفي الصحيح عن ابن عباس ﵄ أن الأصنام التي عبدها الناس في الجاهلية (**وَدّ وسُواع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْر**) **كانت أَسْمَاءَ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَىٰ الشَّيْطَانُ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِم الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ**[6].

وقد تهالك العامة علىٰ تعظيم القبور وإقامة الأعياد عليها، اتباعا للمألوف وهوىٰ النفوس، وتزيين الغافلين، ووعود الجاهلين، معرضين عن هدي النبي ﷺ، غير مبالين بتحذيره ونهيه، قال -تعالىٰ-: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

---

(١) الموطأ حديث رقم ٤١٦.
(٢) البخاري حديث رقم ١٣٩٠.
(٣) الموطأ حديث رقم ٤١٦.
(٤) مسلم حديث رقم ٥٢٣.
(٥) البخاري حديث رقم ٤٢٧.
(٦) البخاري حديث رقم ٤٩٢٠.

النذر للأضرحة والذبح عندها:

حذر الإسلام من الذبح عند القبر، وجعله من عادات الجاهلية، فلا يجوز للمسلم أن يسوق حيوانا ليذبحه في مكان من الأمكنة، تبركا بذلك المكان، لا بنذر ولا بغيره، إلا إلىٰ مكة في حج أو عمرة، قال ﷺ: «**لا عَقر في الإسلام**»[1]، وذلك حماية للتوحيد، لأن النذر والتقرب بالذبح عبادة، والعبادة لا تكَون إلا لله، فمن توجه بها إلىٰ غير الله فقد ضل ضلالا بعيدا، وسبب هذا الداء ما يشاهد في بلاد المسلمين من تعظيم الأضرحة، والتآكل باسمها حتىٰ صار حراسها يتقاتلون علىٰ خزائنها، وعلىٰ النذور التي تقدم إليها من الجاهلين والغافلين.

فيجب علىٰ العلماء وعلىٰ كل من أعطاه الله فهما وعقلا من عامة المسلمين إنكار تشييد هذه الأضرحة، وما يقام فيها من احتفال وعبادات، واستقباحُه، والزجر عنه أشد الزجر قبل فوات الأوان، فلا يجوز لمسلم فعل ما ذكر، ولا حضوره ولا الرضا به، ولا السكوت عنه ما أمكنه ذلك، لأنه من المنكر العظيم، الذي يؤدي إلىٰ الذهاب بعقائد المسلمين، ويناقض التوحيد.

---

(١) سنن أبي داود حديث رقم ٣٢٢٢.

من مظاهر ضعف الإيمان

التطير والتفاؤل:

التطير أصله: الشيء المكروه من قول أو فعل، أو رؤية شيء للمرء، فيتشاءم منه ويتوقع حدوث المكروه بسببه. وكان أهل الجاهلية يعولون في مجريات حياتهم علىٰ هذا الباب كثيرا، ويرون الأقدار تبعا لما يحصل لهم من تشاؤم أو تفاؤل، فكانوا ينفرون الظبي والطائر -وهي السوانح والبوارح- إذا أردوا أمرا له بال كسفر ونحوه، فإن أخذت عند انطلاقها ذات اليمين تفاءلوا وانطلقوا، وأقدموا علىٰ أمرهم، واعتقدوا فيه الخير والربح والنجاة، وإن أخذت السوانح والبوارح ذات الشمال أحجموا وتركوا ما عزموا عليه، واعتقدوا فيه الشر والهلاك. وكان يصدهم ويثني عزائمهم كلمة يسمعونها لا تعجبهم، أو طير عبر من فوقهم، وإذا سقطت الهامة، وهي طائر البوم أو غيره علىٰ بيت أحدهم تشاءم به، ورآه ناعيا إليه نفسه، أو أحدا من أهله، فقال لهم النبي ﷺ: «**لاعَدْوَىٰ وَلا صَفَرَ وَلا هَامَةَ**»[1].

كما كانت تصدهم الأزلام التي كان لها أيضا حظ في اتخاذ قراراتهم، فإذا خرجت قطعة الخشب (الزلم) من الوعاء مكتوبا عليها، امض، يمضي إلىٰ سبيله، وإن خرجت مكتوبا عليها لا تمض، لا يمضي في أمره مهما كانت حاجته إليه شديدة، ويرىٰ في مخالفة الزلم الهلاك المحقق، وكل ذلك من رجس الشيطان الذي أمر الله -تعالىٰ- باجتنابه.

والتطير والتفاؤل مناف للتوكل علىٰ الله ومناف للإيمان بالقدر الذي سبق في علم

(١) مسلم حديث رقم ٢٢٢٠.

الله أن سيكون، وأنه لابد أن يكون كما علمه، لا يتأخر ولا يتقدم، لا يوقعه تطير ولا يدفعه تفاؤل، قال -تعالىٰ-: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١] وقال -تعالىٰ- ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقد حرم الله -تعالىٰ- التطير علىٰ هذا النحو، وشرع للأمة التوكل علىٰ الله، والأخذ بالأسباب المشروعة، وترك الوسائل الممنوعة، كما شرع لهم فيما التبس عليهم أمره من الأمور الجائزة الاستخارة بالالتجاء إلىٰ الله، والاعتماد عليه والثقة باختياره، والخروج من عهدة النفس، والتبري من الحول والطول، إلىٰ حول الله وقوته ومراده، فكان النبي ﷺ يعلمها أصحابه في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن[1].

وقد بقي في الناس بعض من تطير الجاهلية، فأهل المدن يستبدلون بالأزلام التطلع في الأبراج والحظ، ويتقيدون بما قاله المنجّم والمتنبئ الكذاب، حتىٰ إن من الصحف والمجلات التي يتولاها من له في معتقدات الجاهلية نصيب لها زوايا ثابتة، بعنوان (حظك هذا اليوم). وأهل البادية يكثر فيهم ما يسمونه فتح الكتاب، وخط الرمل، وما يسمونه (السِّبْر) -العادة المتبعة- ومعناه أن الواحد لا يستطيع أن يفعل أمرا منعه (السّبر) علىٰ الرغم من مشروعيته، ويعتقد أنه لو فعله لوقع له مكروه، وكذلك يجب عليه أن يفعل ما أوجبه عليه (السِّبر) مع أنه غير واجب، لأنه يخشىٰ من وقوع المكروه لو لم يفعله.

فمثلا: لا يستطيع أحدهم أن يضع حجر الأساس لبناء بيت إلا إذا أسال الدم عليه، وذبح ذبحا ولو دجاجة، فأخلط أساساته بالنجاسة، وهو ما يؤكد أن العمل من الشيطان، لأنه يحب الحشوش وسكني أماكن النجاسة، وينفر من الطهارة. وكذلك لا تدخل الزوجة وهي عروس بيت الزوج إلا إذا ذُبحت تحت قدميها شاة، ولابد أن يأكلوا يوم المولد عصيدة، وإلا وقع المكروه.

وعادات الناس في ذلك كثيرة، لا يحصرها عد، وكلها من ضعف الإيمان

---

(١) حديث الاستخارة في البخاري مع فتح الباري ٤٣٨/١٤.

ومخلفات الجاهلية، والواجب علىٰ المؤمن بالله وحده الخاضع لقضائه وقدره، أن يترك ذلك كله ليبرأ من التشبه بأهل الجاهلية، ومعتقداتها الفاسدة، ويعتصم بالله وحده لا شريك له، فإنه لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع الشر إلا هو، ولا يقدر أحد غيره علىٰ أن يقدّم أمرا أو يؤخره، أو يوقع ضرا، أو يدفعه، فلا يقع شيء في الدنيا، ولا في الآخرة إلا ما علمه وقدر وقوعه في الوقت الذي أراده، ولا يندفع شيء إلا ما دفعه، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، : ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، ولو سألت أحدا ممن يعمل الأعمال السابقة لأقر لك بهذا التوحيد، وبالإيمان بالقضاء والقدر، وسلمه تسليما كاملا، ولكنه عند التطبيق يترك ما علمه، ويطبق ما ألفه وورثه عن ذويه، دون أن يعيَه.

ومن رفع الحرج في الشريعة أن الله -تعالىٰ- عفا عما يخطر علىٰ البال من التطير لأول خاطرة بسبب أمر من الأمور، لأن إزالته عن النفوس غير داخلة في الاستطاعة، وذلك بشرط أن يسارع المكلف إلىٰ الإعراض عنه، ويتكل علىٰ ربه لينجو من آثاره، ففي حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «**الطِّيَرَةُ مِنَ الشِّرْكِ، وَمَا مِنَّا، ولكنّ الله يُذْهِبُهُ بالتَوَكّلِ**»[1].

ولما قال معاوية بن الحكم لرسول الله ﷺ: «... **ومنا رجال يتطيرون، قال: ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يَصُدَّنَّهم**»[2]، فمن وقع له شيء من التطير في صدره، ولم يعول عليه بل مضىٰ في سبيله متكلا علىٰ ربه لا لوم عليه، وعليه أن يقول كما أرشد رسول الله ﷺ عندما ذكرت عنده الطيرة، فقال: «**أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ لا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إلا أَنْتَ، وَلا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إلا أَنْتَ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بِكَ**»[3].

أما ما ورد في حديث عبد الله بن عمر وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «**لا عَدْوَىٰ**

---

(١) سنن الترمذي حديث رقم ١٦١٤.

(٢) مسلم حديث رقم ٥٣٧.

(٣) سنن أبي داود حديث رقم ٣٩١٩.

وَلَا طِيَرَةَ، إِنَّمَا الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثَةٍ، فِي الفَرَسِ والمَرْأَةِ وَالدَّارِ»[1]، فليس هو علىٰ معنىٰ ما كانت تعتقده الجاهلية من أن الطيرة تؤثر بذاتها، وإنما المعنىٰ أن هذه الثلاث الدار والمرأة والفرس، أشد ما يتشاءم الناس به عادة وطبعا، لملازمتها لهم، ومن وقع له شيء منها، كأن كره الدار، لما سمعه عنها ممن سكنها قبله من إصابتهم بالأذىٰ، أو كره المرأة ولم يتقبلها لسبب من الأسباب، أو الفرس لأنه يصرع راكبه، وتشاءم بما ذكر وتطيّر، فإن الشرع أباح له أن يترك ما تطيّر منه علىٰ خلاف القاعدة في التطير، ولا يكرهه الشرع علىٰ المقام في بيت، أو مع امرأة يكرهها، فإن ذاك من الضرر البيّن، لكن مع اعتقاد أن الله -تعالىٰ- هو الفعال لما يريد، وليس للتطيّر منها أثر في جلب نفع أو دفع ضر[2].

التفاؤل المشروع أن يستبشر المرء ويسّر عند رؤيته ما يحب، ويتوقع قدر الله -تعالىٰ- علىٰ وفق ذلك، فقد كان النبي ﷺ يعجبه الفأل الصالح والاسم الحسن، وكان يعجبه إذا خرج لحاجته أن سمع يا راشدا، يا نجيح[3]، وكان إذا بعث أحدا أو جاءه رسول سأل عن اسمه، فإذا أعجبه اسمه فرح به، فعندما أرسل المشركون يوم الحديبية في المرة الثانية سهيل بن عمرو، ليفاوض المسلمين، استبشر النبي ﷺ وتفاءل، وقال: «**لقد سهل لكم من أمركم**»[4]، وذلك لأن الفأل الحسن تنشرح له النفس، وينُسرّ به القلب، فيحسن الظن بالله -تعالىٰ-، ويتوقع قدره علىٰ ما تحبه النفس، قال الله -تعالىٰ- في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي**»[5].

العدوىٰ:

كان أهل الجاهلية يعتقدون أن المريض إذا دخل علىٰ الأصحاء واختلط بهم، أمرضهم بفعله وتأثيره، والشبهة الحاملة لهم علىٰ ذلك ذكرها قائلهم للنبي ﷺ بقوله:

---

(١) البخاري حديث رقم ٥٧٧٢.

(٢) انظر المفهم ٥/ ٦٣٠.

(٣) انظر الترمذي حديث رقم ١٦١٦.

(٤) البخاري حديث رقم ٢٧٣٤.

(٥) البخاري حديث رقم ٧٤٠٥.

«فَمَا بَالُ الإِبِلِ تَكُونُ فِي الرَّمْلِ كَأَنَّهَا الظِّبَاءُ، فَيَجِيءُ الْبَعِيرُ الأَجْرَبُ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيُجْرِبُهَا كُلَّهَا»[1].

فأبطل النبي ﷺ شبهتهم بكلمة واحدة، وقال لهم: **«فَمَنْ أَعْدَىٰ الأَوَّلَ»**، فلو كانت العدوىٰ هي المؤثرة بنفسها فمن الذي أمرض الجمل الأول الذي لم يختلط بغيره؟ فإن الأول مَرِض دون أن يعديه أحد، فلابد أن يكون المؤثر والممرض علىٰ الحقيقة قدرة أخرىٰ غير العدوىٰ، وهي قدرة الخالق ﷻ، الذي بيده الأمر كله ولا يُرد قضاؤه.

أما قوله ﷺ بعد ذلك في الحديث: **«لا عَدْوَىٰ، وَلا طِيَرَةَ، وَلا هَامَةَ، وَلا صَفَرَ، وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الأَسَدِ»**[2]، وقوله ﷺ: **«لا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَىٰ مُصِحٍّ»**[3]، فهذا من أمر العباد بأخذ أسباب ما ينفعهم، وترك ما يكون سببا في ضرهم بحسب العادة الكونية، التي يوجد الله -تعالىٰ- مسبباتها عند حدوثها.

فنفىٰ النبي ﷺ اعتقاد الجاهلية من أن للأسباب قدرة وتأثيرا بنفسها، وأثبت للأسباب ارتباطا ظاهريا بمسبباتها علىٰ حسب السنن التي سنها الله في الكون، من إيجاد المسبب عند وجود السبب، لتصح للناس أعمالهم وتصرفاتهم، فيؤجرون عليها ويعاقبون.

وليس في الحجر الصحي وعزل المريض عن الصحيح، أو عزل من به مرض معد حسب العادة عن سائر المرضي، ليس في هذا العزل مخالفة ولا مضادة للشريعة، إذا أخذت العدوىٰ علىٰ أنها أسباب معتادة قد يحدث عندها المرض إذا أراد الله -تعالىٰ-، بل هذا العزل مطلوب ومأمور به شرعا، لما فيه من العمل بالأسباب الكونية التي وضعها الله -تعالىٰ- للخلق، ورتب بمقتضاها العقاب والثواب والصلاح والفساد، والله يفعل ما يشاء ويختار[4].

استطلاع الغيب بالكهانة والأبراج وتنزيل الخاتم:

الغيب: كل ما غاب علْمه عن العِيان، سواء في ذلك ما يتعلق بالمستقبل، مثل

---

(١) مسلم حديث رقم ٢٢٢٠.

(٢) ذكره البخاري تعليقا بصيغة الجزم في كتاب الطب (باب الجذام)، ومسند أحمد حديث رقم ٩٤٢٩.

(٣) البخاري حديث رقم ٥٧٧١.

(٤) انظر شرح النووي علىٰ مسلم ١٤/ ٢١٣.

الإخبار بما سيحدثه الله من موت فلان، أو زواجه بفلانة، أو طلاقه، أو سفره، أو غِناه، أو فقره، أو غلاء الأسعار، أو وقوع فتن أو قتل، أو دوام ملك أو انقطاعه، أو حدوث جدب أو خصب، إلىٰ غير ذلك من أخبار المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله. وكذلك ما تعلق بالماضي، مما وقع من أحوال الناس وأسرارهم التي ستروها عن غيرهم، كالإخبار عن السحر، أو موضع السحر، أو عن السارق، إلىٰ غير ذلك.

والدليل علىٰ أن الغيب يشمل ما تعلق بالماضي كما يشمل المستقبل ما يلي:

١- أن الله سمىٰ ما وقع من عدم اطّلاع الجن علىٰ موت نبي الله سليمان عليه السلام غيبا، وهو أمر متعلق بالماضي، فقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]، والآية تدل علىٰ أن الجن أيضا مثل الإنس، لا يعلمون الغيب، فلا يجوز سؤالهم عن أسرار الناس وأخبارهم، ولا يجوز الجزم بصدق ما أخبروا به، لأنهم يكذبون، وفيهم أشرار، وفيهم كهنة كما في الإنس، لا يجوز تصديقهم، قال -تعالىٰ- مخبرا عن قول الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١]، وقال -سبحانه-: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤].

٢- قال -تعالىٰ- عما أعطاه لعيسىٰ عليه السلام من معرفة ما تَستُره الناس في بيوتهم: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فجعل الله -تعالىٰ- إخبار عيسىٰ عليه السلام، عما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، معجزة له من دلائل نبوته عليه السلام، التي لا يطّلع عليها إلا من أوحىٰ الله إليه، فلو كان ادعاء معرفة ما وقع بين الناس ممكنا لآحاد الناس، ولا يعدّ من التعلق بالغيب، لما جعله الله آية لنبيه، ومعجزة دالة علىٰ صدقه.

أما حكم استطلاع الغيب بالحساب وتنزيل الخاتم وخط الرمل والنظر في (الفنجان) والنجوم، فالذين يفعلون هذا هم الكهان الذين أضلهم الله، وأغواهم الشيطان، فاتبعوا سبيله، وقد نهىٰ النبي ﷺ عن إتيان الكهان، فقال: «**فلا تأتوا**

الكهان»[1]، فلا يجوز الذهاب إليهم، وإن كانوا يقرءون القرآن، فقد يقرأ القرآن من لا خير فيه. ومن أتاهم معتقدا صحة ما يخبرون به، فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ كما ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ.

أما هم أنفسهم، فمن ادعىٰ منهم مشاركة الله -تعالىٰ- في علم غيبه، بواسطة ضرب خط، أو تنجيم، أو تنزيل خاتم، أو غير ذلك، فقد كفر بالله وكذب قوله، قال -تعالىٰ-: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦]، وقال ﷺ: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح مِنْ عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مُطِرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**»[2].

ولا يغتر أحد بما يخبرون به مما يوافق الواقع، فإن إخبارهم بشيء من المغيَّبات، هي جمل تلقيها إليهم الشياطين، قليل منها يوافق الحق، فيمررون به ما يشاءون من الكذب يضللون به العباد.

فلا جائز أن يخبر أحد غير الأنبياء -صلوات الله عليهم-، بشيء من المغيَّبات، علىٰ وجه الحق والصدق، إخبارا متواليا فيه تفصيل ووضوح، من غير أن يتخلله غلط وكذب، ولذا فإن عادة الكهان أن يُعطُوا جملا مقتضَبَة، وأخبارا مجملة، محتمِلة لوجوه مختلفة، كما وقع لابن صيَّاد اليهودي حين خبّأ له النبي ﷺ شيئا من سورة الدخان في كُمِّه، وهو قوله -تعالىٰ-: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان: ١٠]، وكان ابن صيَّاد يتكهن ويدعي النبوءة، فقال ابن صياد: هو الدخ -أي الدخان- فقال له النبي ﷺ: «**اخسأ فلن تعْدُوَ قدرك**»[3]، يريد إنك لا تقدر علىٰ أكثر من ذلك، ولا يمكنك أن تأتيَ بالأشياء علىٰ تفاصيلها، كما يخبر الأنبياء الموحىٰ إليهم، وإنما تُلقىٰ إليه الكلمة تصادف الغيب فإذا طُلب منه أكثر منها، أضاف ما شاء من الكذب، فإن ابن صيَّاد لم يقدر علىٰ أن يأتي بأكثر من كلمة الدخان ناقصة، فقال: الدخ.

---

(١) مسلم حديث رقم ٥٣٧.

(٢) مسلم حديث رقم ٧١.

(٣) البخاري حديث رقم ١٣٥٥.

ومثله أيضا ما وقع لهرقل وكان كاهنا، وقد أصبح ذات يوم خبيث النفس فسألوه عن ذلك فقال: «**إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم مَلِك الختان قد ظهر**»[1]، أي غلب، فقد أُخبر بهذا الخبر المجمل الذي حيَّره وقض مضجعه، وخشي منه علىٰ ملكه، ولم يقدر من جهة الكهانة علىٰ معرفة أزيد من ذلك، كبعثة النبي ﷺ وصفته وظهور أمره، وما ينتهي إليه شأنه ومتي يكون ذلك.

وضعيف الإيمان إذا ألقىٰ إليه العراف والكاهن الكلمة المبهمة المحتملة، فسّرها علىٰ الوجه الذي يريده من الإخبار بالغيب، ووقع في قلبه تصديقه في كل ما أخبره به بعد ذلك من الكذب والتخليط، وربما خوفه من وقوع أمر له إن فعل كذا، أو لم يفعل كذا، وربما فرض عليه مالا، فدفعه خائفا أن يقع له المكروه، فيعتقد بذلك نفع العراف وضُرَّه.

فحذار من تصديق أمثال هؤلاء، واختلاط أمرهم، وليكن لدىٰ المؤمن من اليقين والإيمان ما يرد به كيدهم، مقتديا برسول الله ﷺ في قوله لابن صيَّاد: «**اخسأ فلن تعدوَ قدرك**». والله كفيل أن يكفيه باليقين والإيمان كل مكروه.

وأما قول الله -تعالىٰ-: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [**الصافات: ٨٩**]، فليس هو من الكهانة في شيء، وإنما معناه أن إبراهيم عليه السلام نظر إلىٰ السماء والنجوم، وفكر في عكوف قومه علىٰ عبادة الأوثان، فقال لهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، معتذرا عن الخروج معهم في يوم عيدهم، كما قال أهل التفسير، لِيَفْرُغ في غيبتهم لتكسير أصنامهم، مستعملا في ذلك معاريض الكلام، التي فيها مندوحة عن الكذب.

فقد عنىٰ هو بسُقْمه ما أصابه من الغم، من عكوف قومه علىٰ عبادة الأوثان، وإعراضهم عن عبادة الله، وفهموا هم من السقم، المرضَ المانعَ من الخروج معهم فعذروه، وهو معنىٰ ما ورد في الحديث: «**لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللهِ ﷻ، قَوْلُهُ**: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، **وَقَوْلُهُ**: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾»[2]، اثنتين منهما في ذات الله، إحداهما قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فليس المراد حقيقة الكذب، وإنما هي المعاريض يُتَّقىٰ بها الكذب، ويُوصَل منها إلىٰ الغرض.

---

(١) البخاري حديث رقم ٧.

(٢) البخاري حديث رقم ٣٢٥٨.

وأما قول معاوية بن الحكم السُّلَمِي للنبي ﷺ: «. . . **ومنا رجال يخطُّون**»، فقال له النبي ﷺ: «**كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطَّه فذاك**»[1]، فقد اتفق العلماء علىٰ أن الحديث يفيد تحريم الخط، والنهي عنه لا إباحته، فإن معناه: إذا علمتم يقينا موافقة الخط للغيب، كما علمه ذاك النبي فخطوا، وهذا العلم لا سبيل لنا إليه، فلا يكون الخط مباحا في حقنا، لأنه معلق علىٰ أمر متعذر الحصول.

(لو) تفتح عمل الشيطان:

الرضا بالقضاء من أركان الإيمان، والمسلم قبل وقوع القضاء مطالب بأمرين:

١- الاستعانة بالله والتوكل عليه، والالتجاء في كل أمر إليه.

٢- الأخذ بالأسباب بحزم وذلك بالجد والحرص علىٰ ما ينفعه في أمر دينه ودنياه، فلا يعجز ولا يتعلل بالقدر، ولا يفرط في ما يقدر عليه من عمل، بل تكون همته عالية وعزيمته قوية، وإرادته صلبة، في تحقيق ما ينفع به نفسه وينفع الناس، وينهض بأمر المسلمين. قال ﷺ: «**الْمُؤمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجزْ**». أما بعد وقوع القضاء، فالواجب هو الرضا بالقضاء، والتسليم لما قدره الباري ﷻ، والإعراض عن الماضي وعما فات من نفع، أو وقع من ضر، قال -تعالىٰ-: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾ [الحديد: ٢٣]، وقال ﷺ: «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اَللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ اَلشَّيْطَانِ**»[2]. فيكف المسلم نفسه عن التفكير فيما فاته وفي أسبَابه، ويقطع عنها وساوسَ الشيطان، فإن استرسال الفكر فيه يؤديْ إلىٰ التسخط وردّ القضاء، ولا يزيد القلب إلا هما وحزنا؛ لأنه يفتح علىٰ النفس باب اللوم والندم والأسف، وتفتح له (لو) عمل الشيطان، لو فعلت كذا لكان كذا، فيسند بذلك التأثير إلىٰ فعله وقدرته وعمله وعلمه وخبرته، وينسىٰ قدرة ربه كما كان حال قارون، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، وكما كان حال المنافقين يوم أحد: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فظنوا أن فعلهم بالخروج أو عدمه يمنعهم

---

(١) مسلم حديث رقم ٥٣٧.

(٢) مسلم حديث رقم ٢٦٦٤.

من الموت، فرد الله -تعالىٰ- عليهم: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

المسلم بعد وقوع القضاء، عليه أن يبادر إلىٰ الرضا والتسليم، لكن بقلبه قبل لسانه، ويكون قوله باللسان: -قدر الله وما شاء فعل- تعبيرا عما امتلأ به قلبه من الإيمان والرضا، ولا يقول: لو كان كذا لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان، والتسخط علىٰ القضاء.

واستعمال (لو) ليس دائما مذموما، وإنما يكون مذموما إذا كان في سياق الاعتراض علىٰ القدر كما تقدم، أما إذا كان الغرض الإرشاد وبيان الحكم لما يقع في المستقبل، فلا خلاف في جوازه، فقد نطق به النبي ﷺ قال: «**لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ، وَلَوْلَا أَنَّ مَعِي الْهَدْيَ لَأَحْلَلْتُ**»[1]، وقال ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ رَاجِمًا أَحَدًا بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ لَرَجَمْتُ فُلَانَةً**»[2].

لا يُقال: هلك الناس:

من الجهل بالله الناتج عن ضعف الإيمان الحكم علىٰ الناس جميعا بالهلاك، فهو من التحكم علىٰ الله -تعالىٰ- بإقناط الناس من رحمته، والناس لا يهلكون جميعا إلىٰ أن تقوم الساعة، ولا تزال طائفة من الأمة علىٰ الحق كما جاء في الصحيح[3]. وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**»[4]، روي بضم الكاف (أهلكهم) ومعناه أن القائل أحق بالهلاك، وهو أشدهم هلاكا إن قال ذلك محقرا لهم ومعجبا بنفسه ومذكيا لها.

ويروىٰ (أهلكَهم) بالفتح، ومعناه أن الذي قال ذلك هو الذي أهلكم، ولم يهلكم الله -تعالىٰ-، فهو متألّ علىٰ الله -تعالىٰ-، ومقنط للناس من رحمة الله ﷻ، وموقع لهم في الهلاك.

---

(١) البخاري حديث رقم ١٦٥١.

(٢) سنن ابن ماجه حديث رقم ٢٥٥٩.

(٣) مسلم حديث رقم ١٥٦.

(٤) مسلم حديث رقم ٢٦٢٣.

قال القرطبي في المفهم: «ولا يدخل فيه من قال ذلك علىٰ جهة الشفقة علىٰ أهل عصره، وأنهم بالنسبة إلىٰ من تقدمهم من أسلافهم كالهالكين، فإنها عادة جارية في أهل الفضل والعلم، يعظمون أسلافهم ويلومون بالتقصير والتفريط من بعدهم في باب التذكير والموعظة، ليقتدي اللاحق بالسابق كما قال الحسن ﷺ: لقد أدركت أقواما لو أدركتموهم لقلتم: مرضىٰ، ولو أدركوكم لقالوا: هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب»[1].

وهذا الحديث فيه ردّ اعتقاد الخوارج وأهل التكفير الذين يقولون بهلاك الناس جميعا، فلا يصلون معهم الجماعات، ولا يعتدّون لهم بعمل ويرون الخروج عليهم وقتالهم، فإن القائلين ذلك هم الذين أهلكوا الناس ظلما وتحكما علىٰ الله -تعالىٰ-، وليس الله هو الذي أهلكهم، لأن الله -تعالىٰ- حكم بأنه لا تزال طائفة من الأمة علىٰ الحق لا يضرهم من خالفهم، وهؤلاء يكذبون ذلك ويحكمون بهلاك الأمة[2].

تعليق الدعاء علىٰ المشيئة:

المسلم مأمور في جميع ما يريد فعله أن يتبرأ من حوله وقوته، وأن يعلقه علىٰ مشيئة ربه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ٢٣]، ويستثنىٰ من ذلك أمران: الإيمان والدعاء، فلا يقل أحد: أنا مؤمن إن شاء الله، ولا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت، ففي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ؛ لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهُ لَا مُكْرِهَ لَهُ**»[3]، قال ابن عبد البر: «لا يجوز لأحد أن يقول: اللهم أعطني إن شئت وغير ذلك من أمور الدين والدنيا، لأنه كلام مستحيل لا وجه له، لأنه لا يفعل إلا ما شاء»[4].

وسبب النهي عدم الجزم بالدعاء وتعليقه علىٰ المشيئة أن التعليق يتضمن فتور الرغبة في المطلوب، وعدم المبالاة بما إذا حصل أو لم يحصل، فكأن الداعي مستغن عن ربه لم يتحقق من حاله الافتقار والذل والاضطرار، وهذا حال من قسا قلبه وضعف

(١) المفهم ٦/٦٠٨.

(٢) انظر المفهم ٦/ ٦٠٩.

(٣) البخاري حديث رقم ٦٣٣٩.

(٤) فتح الباري ١٢/ ٤٢٧.

إيمانه، وقل اكتراثه بذنبه وحاجته إلىٰ رحمة ربه. وإذا كان الله ﷻ لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه كما ورد عن النبي ﷺ، فكيف بمن قل اكتراثه بما عند ربه؟[1].

قال ﷺ: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»[2].

طاعة الشيطان بتنفيذ ما يوسوس به:

أخذ الشيطان علىٰ نفسه العهد أن يضل العباد ويفتنهم كما أخبر عنه القرآن:

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة ص: ٨٣]، ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ **[الأعراف: ١٦، ١٧]**.

وللشيطان في الإغواء لإضعاف إيمان المؤمن أو الذهاب به طريقان: طريق تزيين المعصية، والإغراء عليها، وتحبيبها إلىٰ النفس، وتسهيل آثارها عليها، بعدم المبالاة بها، حتىٰ تصير هيّنة يتقبلها القلب ولا ينزعج منها. كأن يزين له الزنا ووسائله من النظر، لما فيه من المتعة المؤقتة التي يعقبها ندم عاجل. أو يزين له الغش في البيع، أو أخذ الرشوة، لما فيه من تهيؤ الحصول علىٰ المال سهلا سريعا. أو يزين له الكذب والزور والنميمة والغيبة لما يوهمه في ذلك من المصلحة أو النصيحة، إلىٰ غير ذلك من أنواع الحرام التي يزينها الشيطان، فإن استجاب له اكتفىٰ منه بذلك، واطمأن إلىٰ أنه حقق منه ما يريد.

وإن لم يجد الشيطان استجابة من العبد من هذا الطريق، بأن وجده قوي الإيمان، عالما بمكره وكيده، حريصا علىٰ دينه، لا يفرط فيه ولا يتهاون به، ولا ينقاد إليه، أتاه من الطريق الآخر طريق الوسوسة والتشكيك في دينه، فيهجم عليه بالأفكار الرديئة الخبيثة في معتقده، أو يشككه في عبادته، بحيث إذا فعل منها شيئا قال له: لم تفعله؟ ليحزنه ويغمه، فإن كان العبد علىٰ فقه وبصيرة ولم يعبأ به، واستعان عليه بربه، رجع الشيطان خاسئا مدحورا، وإن لم يكن كذلك اشتدت وطأة الوسوسة عليه حتىٰ يمل وييأس من إصلاح نفسه ومن عمله، وبذلك يكون قد استجاب للشيطان ونال منه ما أراد.

---

(١) انظر المفهم ٧/٢٩.

(٢) الترمذي حديث رقم ٣٤٧٩.

أنواع الوسواس:

الوسواس قد يكون في العقيدة، بالتشكيك فيما يجب الإيمان به، أو بإلقاء الخواطر والأفكار الرديئة بنسبتها إلىٰ الله ﷻ أو إلىٰ رسله، وملائكته، وقد يكون في العبادات بالتعمق فيها، وفعل ما لم يطلب الشارع فعله من العباد ولا كلفهم به، كتكرار العمل في الوضوء، أو الغسل مرات ومرات، بحيث كلما غسل الموسوس يعيد، ويقول: إنه لم يغسل مع أنه منغمس في الماء، أو بتكرار النطق بالتكبير، أو النية عند دخول الصلاة، أو تكرار السلام عند الخروج منها، ويعالج ذلك حتىٰ يصيح باللفظ أحيانا إذا اشتد عليه الأمر، ناطقا به كالحيوان، وذلك من تلبيس إبليس عليه.

الوسوسة في العقيدة:

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ**»[1].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «**سُئِلَ النَّبِيّ ﷺ عَنْ الْوَسْوَسَةِ، قَالَ: تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ**»[2]، وفي الصحيح: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ، حَتَّىٰ يُقَالَ هَذَا: خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ**»[3]، وفي رواية: «**إذا وجدت شيئا من ذلك، فقل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم**»[4].

وفي حديث ابن عباس: «**أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أَحَدَنَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِالشَّيْءِ، لأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَهِ الَّذِي لَمْ يَقْدِرْ مِنْكُمْ إِلا عَلَىٰ الْوَسْوَسَةِ**»[5].

دلت هذه الأحاديث علىٰ أن الوسوسة في العقيدة، وورود الخواطر الرديئة علىٰ

---

(١) مسلم حديث رقم ١٣٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مسلم حديث رقم ١٣٤.

(٤) مسلم ١/١١٩.

(٥) مشكل الآثار ٢/٣٢٦.

القلب مع كراهته لها، وشعوره بالهمّ والغم منها، لا تدل علىٰ ضعف الإيمان، بل إن الخوف منها والحزن والقلق بسببها هو صريح الإيمان، كما أخبر النبي ﷺ، ولو كان الوسوسة من ضعف الإيمان لما وقعت لأصحاب رسول الله ﷺ، وهم خيار الأمة، فقد كان أحدهم يقول عما يقع في قلبه: لأن يكون أحدنا حُممة -أي فحما- أحب إليه من أن يتكلم به، وقال ﷺ للذي وجد في نفسه ما يتعاظم أن يتكلم به: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال ذاك صريح الإيمان.

فالموسوس لا تضره الخواطر الرديئة التي ترد علىٰ قلبه كرها، ولا يجد لها مدفعا، ولا تفسد إيمانه، بل بمعاناته ومكابدته إياها يقوىٰ إيمانه، ويعظم أجره، ولا يؤاخذه الله -تعالىٰ- عليها، لأنها ليست من فعل العبد ولا من كسبه أصلا، بل هي من فعل شيطان مريد جالس بجنبه، يتكلم بها عنه، ليَغيظه ويُحزنه، وهذا من رحمة الله -تعالىٰ- بعباده ولطفه بهم، وتمام عدله وحكمته، فإنه تجاوز لهذه الأمة عما حدثت به نفسها ما لم تفعل أو تتكلم، كما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ.

ومن أنفع العلاج لخواطر النفس ووسواس الشيطان في العقيدة أن يفرح بها العبد، ويعتبرها علامة علىٰ قوة إيمانه، فإنه بذلك يغيظ الشيطان، ويقطع طمعه فيه.

شكا رجل إلىٰ أبي سليمان الداراني الوسواس فقال: إذا أردت أن ينقطع عنك فأي وقت أحسست به فافرح، فإنك إذا فرحت به انقطع عنك؛ لأنه ليس شيء أبغض إلىٰ الشيطان من سرور المؤمن، وإن اغتممت به زادك، قال النووي: وهذا يؤيد ما قاله بعض الأئمة إنما الوسواس إما يبتلىٰ به من كمل إيمانه، فإنه اللص لا يقصد بيتا خربا[1].

وهذا كله في الخواطر والوسوسة الواردة غير المستقرة في القلب، أما شبه الإلحاد المستقرة في القلب، كشبه أهل البدع والزيغ، المعتقدين للخرافات، المحدثين في الدين ما ليس منه، بعبادات باطلة، أو معتقدات فاسدة، يرون أنهم يؤجرون عليها، أوالمعتنقين لمذاهب فلسفية أو كلامية خاطئة تقوم علىٰ التشكيك في المعتقدات أو معتنقين مذاهب علمانية، أو شيوعية، أو أي مذهب فيه زيغ وانحراف، أو كفر وإلحاد، فهم مؤاخذون بما استقر في قلوبهم، فإن كان علىٰ اقتناع فالأمر واضح في

---

(١) الأذكار ص ١١٨.

مؤاخذتهم بما اعتنقوه، وإن كان شبهة، فعليهم أن يدفعوها بالنظر والاستدلال والاطلاع علىٰ حجج أهل الإسلام، وإلا كانوا من الضالين.

الوسوسة في العبادات:

وللوسوسة في العبادات صور في غاية العجب، قال الشعراني: وقد رأيت من يقفز في الهواء إذا نوىٰ الصلاة، ثم يقبض بيديه علىٰ صدره كأنه يخطف شيئا كان هاربا منه، ثم يقول: أستغفر الله، ثم يقول: الطلاق يلزمني ثلاثا لا أزيد علىٰ نية واحدة ثم يزيد، وكان ذلك في صلاة الجمعة، فما زال كذلك حتىٰ فاتت الجمعة[١].

وذكر ابن الجوزي عن أبي الوفاء بن عقيل أن رجلا لقيه، فقال له: إني أغسل العضو وأقول: ما غسلته، وأكبر وأقول: ما كبرت، وأنغمس في الماء مرارا كثيرة، وأشك هل صح لي غسل أم لا، فما ترىٰ؟ فقال ابن عقيل: دع الصلاة، فإنها ما تجب عليك، فقالوا له: كيف تقول ذلك؟ فقال لهم: قال النبي ﷺ: رفع القلم عن المجنون حتىٰ يعقل، ومن يكبر ويقول ما كبرت فليس بعاقل.

الوقاية من الوسوسة:

من أراد أن يجنبه الله -تعالىٰ- الوسواس قبل وقوعه، فليأخذ بأسباب الوقاية منه، والوقاية منه تكون بالتفقه في الدين، وتعلم العلم الشرعي، ومصاحبة أهل العلم والفقه العاملين، فإن ذلك أجود ما يتوقىٰ به وسواس الشيطان، وفي الأثر: فقيه واحد أشد علىٰ الشيطان من ألف عابد -أي جاهل-.

ومن أسباب الوقاية منه أيضا الحرص علىٰ أكل الحلال، وتطيب المطعم والمشرب، فإن ذلك ينوّر القلب، فلا يجعل الله للشيطان عليه سبيلا، هذا مع المحافظة علىٰ ذكر الله -تعالىٰ-، وما كان يقوله رسول الله ﷺ ونقل عنه من الأذكار، وأدعية اليوم والليلة، وتلاوة القرآن، كل ذلك يجعل منه المسلم وردا لنفسه كل يوم، مع التدبر وحضور القلب، سواء في التلاوة أو في ذكر الله -تعالىٰ-، والأدعية المأثورة، فإن حضور القلب، واستحضار معاني الذكر التي فيها تعظيم الله -تعالىٰ- يتحقق معه النفع، ويتحقق مع حفظ الله -تعالىٰ- الذي رتبه عليه، ووعد به قائله، وهو حفظ الرب، الفعال لما يريد، الذي لا يقدر علىٰ اختراقه جان ولا مريد.

---

(١) انظر لطائف المنن ٥٥٥، وتلبيس إبليس ص ١٣٤.

علاج الوسواس بعد وقوعه:

أما بعد الابتلاء بالوسواس وحصوله، فعلاجه يكون علىٰ الوجه الآتي:

١- الإعراض عنه، فإنه ليس لعلاج الوسواس بعد وقوعه كالإعراض عنه، وعدم المبالاة به، وتركِ الالتفات إليه، وإلىٰ ذلك نبه النبي ﷺ بقوله في الحديث: «... **فليستعذ بالله وَلْيَنْتَه**»[1]. خرج مالك في الموطأ عن سليمان بن يسار أنه سئل عن البلل يجده الإنسان -أي من أثر الوسوسة- فقال: «**أنضَحْ مَا تَحْتَ ثَوْبِكَ بِالْمَاءِ وَالْهُ عَنْهُ**»[2]، والمعنىٰ في ذلك أن الموسوس إذا نضح بالماء فإنه إن أحس بللًا قدَّر أنه من أثر النضح بالماء، وسدَّ الباب علىٰ الشيطان بالوسوسة.

ولا يقلق الموسوس ويضعف إذا رأىٰ في بادئ الأمر مع الإعراض عن الوسوسة زيادة فيها، فإنه شائع في الموسوسين. يأتي الموسوس ويسأل، فُيبين له أن الوسوسة لا تضر المؤمن، وهي ابتلاء يعظم له به أجره، وخوفه منه دليل علىٰ قوة إيمانه، والله ﷻ لا يعذب عباده بما لا قدرة لهم علىٰ دفعه، فإن الحاكم من البشر لا يؤاخذ بذلك إن كان معه شيء من العدل، فما بالك بعدل الله ورحمته وحكمته وعلمه؟. وتقول له: إن حجر الزاوية في التخلص من الوسوسة هو الإعراض عنها وعدم المبالاة بها، فيجد راحة لمثل هذا القول ينشرح به صدره، ثم لا يلبث أياما قليلة حتىٰ يعود للسؤال نفسه، وهو في حالة أسوأ من حاله الأول، ويقول: إنه لم ينفع معه الإعراض وأن الوسواس اشتد عليه أكثر من ذي قبل، ويعتقد أنه لم يبق له من الإيمان شعرة، وهو في يأس من حاله.

وقوع مثل ذلك متوقع من كل موسوس، فإن ذلك من تمام مكر عدو الله وكيده، وهي علامة علىٰ أن الخناس أذن بالرحيل، فإن كل عدو إذا ما حاربته بما لا يطيق من سلاح، يقاوم أول الأمر كأشرس ما يكون، ثم تخمد قوته ويذهب ريحه.

٢- علىٰ المؤمن إذا ما ابتلىٰ بشيء من الوسواس أن تكون ثقته بالله -تعالىٰ- كبيرة، واعتصامه به لا يتزعزع، واعتماده وتوكله عليه في دفع الخواطر، يقينا

---

(١) البخاري حديث رقم ٣٢٧٦.

(٢) الموطأ حديث رقم ٩٠.

لا ارتياب فيه، فإن الموسوس إذا قويت نفسه علىٰ دفع الشيطان، وقال له: أنا أدرىٰ بنفسي منك، انقطع طمعه فيه، ويئس منه، وليعلم العبد أن الشيطان ضعيف لا قدرة له، ولا حول ولا طول، فإنه لضعفه وتخاذله سماه الله -تعالىٰ- الخناس، والخناس: الذي عادته الاختفاء، والتأخر بعد الظهور، مرة بعد مرة، وقد أخبر الباري أنه ليس له سلطان علىٰ الذين آمنوا وعلىٰ ربهم يتوكلون: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

٣- الاستعاذة من الشيطان والاستعانة عليه بذكر الله والاستغفار، وتلاوة القرآن، وأفضل الذكر بعد القرآن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير، قال -تعالىٰ-: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، وقال ﷺ في جواب السائل عن الوسوسة: «... **فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ**»[١]، وفي رواية: «**فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ**»[٢]، وفي رواية: «**إذا وجدت شيئا من ذلك، فقل: هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم**»[٣].

ومن صيغ الاستعاذة الواردة في السنة «**أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**»[٤]. والاستعاذة معناها: الاستعانة بالله وحده والالتجاء إليه والتوكل عليه، وهي أنفع لدفع الشيطان من سبّه ولعنه، فإنه يتصاغر مع الاستعاذة، ويتعاظم عند السّب، حتىٰ يقول: بقوتي صرعته. ففي الحديث إن دابة عثرت بالنبي ﷺ، فقال رجل: تعس الشيطان، فقال: «**لَا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيْطَان، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّىٰ يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَهِ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّىٰ يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ**»[٥] وفي رواية: «**حَتَّىٰ يَكُونَ أَصْغَرَ مِنْ ذُبَابٍ**»[٦].

تم ما قصدت إليه والحمد لله أولا وآخرا،

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه.

---

(١) البخاري حديث رقم ٣٢٧٦.

(٢) مسلم حديث رقم ١٣٤.

(٣) مسلم ١/١١٩.

(٤) سنن الترمذي حديث رقم ٢٤٢.

(٥) أبو داود حديث رقم ٤٩٨٢.

(٦) مسند أحمد حديث رقم ٢٠٠٦٨.